حكم ابن عطاء الله السكندري

(٦٥٨ هـ ـ ٧٠٩ هـ)

العارف باللَّه الشيخ
أحمد بن محمد زرّوق

(٨٤٦ هـ ـ ٨٩٩ هـ)

اعتنى به
الدكتور ناجي السويد

تصحيح سمير رباب

المقدمة

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

لقد جاءت الشريعة الإسلامية شاملة لجوانب الحياة كافة من ناحية العبادات والمعاملات وأحكام الأسرة، والميراث وأحكام السير... إضافة إلى الجانب التربوي.

هذا الجانب يعتبر مقصداً من بعثة النبي ﷺ، فصقل النفس وتهذيبها، وتزيينها بالخلق الرفيع يعدّ جزءاً من شخصية المرء المسلم، فالأخلاق وتزكية النفس مشروع حضاري سعى الإسلام إليه وصوره كثيرة ومتنوعة.

ومن جملة التجارب في شأن التربية، هي حركة التصوف التي ظهرت في الأمّة الإسلامية، وتنوّع المدارس والطرق فيها، مع الإشارة إلى أن أصل التسمية ومنشأ الفكرة فيه كلام كثير... إضافة إلى مشايخ الصوفية وما نتج عن آراء لهم.

والمهم في هذا الجانب ظهور الطريقة الشاذلية التي ينتمي إليها مؤلف الحكم العطائية وكذلك شارحها، فإنّ ابن عطاء يعتبر من أصحاب الباع الكبير في تثبيت ونشر هذه الطريقة.

ويعتبر كتاب الحكم بمجموعه من الحكم كتاباً حافلاً ومثالاً مهماً ونهجاً متقناً في شأن التربية وتزكية النفس بل هو مرجع أساسي في هذا الفن.

والدليل على ذلك كثرة جهود العلماء في شرحه في السابق والحاضر.

فقد بلغت شروح الحكم ما يزيد عن ثلاثين شرحاً، تؤكد بمجملها عظمة هذا الكتاب لما يحوي من فضائل ومناقب ومواعظ وتوجيهات للمريدين، أو للساعين في سلوك هذا الدرب.

عملنا في الكتاب:

- إخراج الكتاب بحلّة جديدة.
- سيرة موجزة للمؤلف والشارح.

- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة.
- تراجم للأعلام.
- شرح الكلمات المبهمة.
- فهرس عام.

وأخيراً أسأله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به طلاب العلم والحمد للّه رب العالمين.

وكتبه د. ناجي السويد

سيرة المؤلف[١]

أحمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالرحمن بن عبداللّه بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء اللّه الإسكندري.

صوفي كبير، متكلم على لسان الصوفية، صحب الشاذلي، فصنف مناقبه، من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية، فهو ممن قام عليه، فبالغ في ذلك.

مؤلفاته:

له تصانيف منها:

الحكم العطائية في التصوف.

تاج العروس.

لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن.

ومفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.

وفاته:

توفي في المدرسة المنصورية نصف جمادى الآخرة سنة (٩٠٧هـ) وكانت جنازته حافلة، ودفن بسفح جبل المقطم. رحمه اللّه تعالى رحمة واسعة.

سيرة الشارح[٢]:

أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي أبو العباس زرّوق، من أهل فاس بالمغرب، مالكي إمام علامة، صوفي وفقيه أصولي.

ولد سنة (٨٤٦هـ) فمات أبوه قبل تمام أسبوعه، نشأ يتيماً، حفظ القرآن العظيم وكتب عدَّة في علوم شتى.

تفقّه في بلده، وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح.

---

(١) الدرر الكامنة (١/ ٢٧٣) رقم (٧٠٠)، والأعلام (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٢) انظر شذرات الذهب (٧/ ٣٦٣)، والأعلام (١/ ٩١).

أخذ التصوف عن القوري، ارتحل إلى مصر وحج، أقام بالقاهرة نحو سنة، أخذ الحديث عن السخاوي.

له تصانيف معظمها شروح واختصار منها:

فن التصوف.

شرح مختصر خليل في فقه المالكية.

إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين.

عدّة شروح على الحكم بلغت نيفاً وثلاثين شرحاً.

على القرطبية في شرح المالكية.

شرح رسالة أبي زيد القيرواني وهي عدّة شروح.

شرح كتاب صدور الترتيب.

شرح حزب البحر للشاذلي.

شرح الأسماء الحسنى.

وفاته:

توفي في تكرين قرب طرابلس الغرب، سنة (٨٩٩هـ). رحمه اللّه تعالى رحمة واسعة.

حِكمُ ابن عطاءِ اللَّه السكندري

(٦٥٨هـ ـ ٧٠٩هـ)

شرح

العارف باللَّه الشيخ أحمد بن محمد زرّوق

(٨٤٦ هـ ـ ٨٩٩ هـ)

مقدمة الكتاب

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

يقول العبد الفقير، المعترف بذنبه، الراجي بكل حال فضل ربِّه الشيخ الفقيه العارف المحقق، فريد عصره، ونسيج وحده، أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، عرف بـ«زرُّوق» أصلح اللّه حاله، وبلّغه فيما لديه آماله بمنّه وسعته إنه على ما يشاء قدير:

الحمد للّه، الذي فجَّر ينابيع الحكمة من قلوب الصادقين فَجَرت، وفتح لها أسماع المحبِّين والراغبين فسرت، ونوّر بها بصائر المتوجهين والطالبين فأبصرت. أحمده حمد معترف بمنّته في حمده، وأشكره شكر عارف بإحسانه ورِفده، وأستغفره من كل ذنب في هزل العمل وجدِّه، وأستعينه إستعانة من علم أن كل شيء من عنده، وأصلِّي على سيدنا محمد نبيه الكريم وعبده، وعلى آله وأصحابه وذريته وكافة أهل ودّه، صلاة نؤدي بها ما وجب من تعظيم قدره ومجده، وأسلم عليه وعليهم تسليماً كثيراً. والحمد للّه على ذلك.

أمَّا قبل كل شيء، ومعه، وبعده، فليس على الحقيقة إلا اللّه وحده، من وقف ببابه الكريم أنجح وملك، ومن استند لجنابه العظيم أفلح وسلك، ومن حاد عن منهجه القويم خسر وهلك.

وخير العباد من وقف بكنه همَّته عليه، وأفضلهم حالاً من توجَّه في كل أموره إليه، وأعلاهم قصداً من طرح نفسه دائماً بين يديه؛ فقام للحق على بساط التحقيق، وجمع بين ظاهر الشرع وباطن الطريق، ووقف للخدمة وغيرها موقف أهل الصدق والتصديق، مقتدياً بأئمة الهدى والتوفيق؛ كالسادة الشاذلية، ومن في معناهم، والجماعة الوفائية ومن جرى مجراهم: إذ كانت لهم أعمال صحيحة مرضية، وأحوال عظيمة سنية، وأخلاق حسنة زكية، وهمم رفيعة علية، وحقائق ظاهرة جليَّة. وقد قربوا الطريقة أتمَّ تقريب، وهذَّبوا الحقيقة أحسن تهذيب فوصلوا

الإيمان بالإسلام، وأجْروا الإحسان في الأعمال والأحكام؛ ولذلك لا يصح إنكارها من فقيه محقق، ولا اعتراضها من أصولي مدقق، بل يكاد يرى سلوكها واجباً، ومُجانبها خائباً، وسالكها طالباً بل كما قيل:

على مِثل ليلى يقتل المرءُ نفسه ويحلو له مرُّ الغرام ويعذبُ

وإن من أجلّ كتاب وقع لهم في ذلك.. وأنفعه لكل مريد صادق سالك، كتاب «الحِكم العطائية الشاذلية التوحيدية العرفانية الوهبية». عباراته رائقة جامعة، وإشاراته فائقة نافعة، تثلج الصدر وتبهج الخاطر، وتحرك السامع لها والناظر، مع تداخل علومه وحِكمه وتناسب حروفه وكلمه؛ إذ كلُّه داخل في كله، وأوّله مرتبط بالأخير من قوله، بل كل مسألة منه تكملة لما قبلها وتوطئة لما بعدها، وكلُّ باب منه كالشرح للذي قبله، والذي قبله أيضاً كأنه شرح له، فكل حكمة أو كلمة إنما هي كالتكملة، أو كالمقدمة، فأوسطه طرفاه، وآخره مبتداه، وأوَّله منتهاه، يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله، وسنشير له في جمله وتفاصيله؛ إذ قصْدُنا بهذا المسطور المختصر، وضع شيء عليه يشبه الحواشي والطرَر، وعلى اللّه المعتمد في بلوغ التكميل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تنبيه:

قد تكلم الناس على هذا الكتاب وراموه بالشرح كثيراً؛ فلم يتفق لأحد ممن رأينا إكمال شيء إلا ما لسيدنا الفقيه العارف المحقق الخطيب البليغ، نسيج وحده، ومقدِّم من أتى من بعده، سيدي أبي عبداللّه محمد بن إبراهيم بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النِّفْزِيِّ[1] نسباً، المالكي مذهباً، فإنه أكمل كتابه واعتمد فيه على النقل وتحصيل الفوائد المحتاج إليها، فأتى بالعجب العجاب من ذلك، وآثر السلامة فاقتصر على التقرير.

وقد كان رحمه اللّه ورضي عنه ذا سمة وهمَّة، وتجمُّل وزهد وعفاف وصيانة، وعظيم علم وكبير ديانة.

مولده بـ«رندة» سنة: سبعمئة وثلاث وثلاثين.

وبها نشأ على أحسن حال وأكمله.

(١) محمد بن إبراهيم بن عبداللّه بن مالك بن إبراهيم النفزي الحميري الرندي أبو عبداللّه ولد سنة (٧٣٣هـ) بالأندلس تنقل بين فاس وتلمسان ومراكش، استقر خطيباً للقرويين بفاس توفي سنة (٧٩٢هـ). انظر الأعلام (٥/ ٢٩٩).

حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم ارتحل لفاس وتلمسان فقرأ بها العربية والأصول والفقه، ككتاب «الإرشاد» و«مختصر ابن الحاجب الأصلي والفرعي» وتسهيل ابن مالك.

ومن مشايخه «الأيلي» والشريف أبو عبداللّه التلمساني، والأستاذ المجاصي وآخرون.

سكن مدينة «سلا» وصحب بها أوحد أهل زمانه علماً وعبادة، وأفضلهم ورعاً وزهادة، سيدي الحاج أحمد بن عمر بن عاشر المرسي، فانتفع به كثيراً، ثم انتقل بعد وفاته، فجعل خطيباً بجامع القرويين ـ من مدينة فاس ـ وبقي بها خمس عشرة سنة على ذلك، ثم توفي يوم الجمعة الرابع لشهر رجب الفرد سنة: اثنتين وتسعين وسبعمئة عن ثلاث وستين سنة، أو نحوها. ودفن بـ«كيدة البراطل» داخل باب الفتوح. وقبره الآن بها مشهور، ومزيته معروفة شرقاً وغرباً.

وقد كتب رسائل معروفة أكثرها كان لسيدي «يحيى السراج».

وله كتاب الشرح مع سيدي سليمان بن عمر الذي قال فيه إنه ولي لا شك بطلبهما لذلك.

ورأيت كتاباً في الإمامة قد سماه «تحقيق العلامة في أحكام الإمامة» فذكرته لشيخنا «أبي عبداللّه القوري» رحمه اللّه، وكان معتنياً بكتبه معمولاً عليها في غالب حاله، فقال: أظنه لوالده سيدي إبراهيم، وقد كان خطيباً بالقصبة؛ إذ كانت عامرة. وله خطب عظيمة الفصاحة حسنة الموقع. واللّه أعلم.

فصل

وممن علَّق على هذا الكتاب سيدي «أبو القاسم الرمَّاح» أحد عدول «طرابلس» رحمة اللّه عليه؛ إذ كان رجلاً صالحاً، حسن النية، جميل الحالة. وحاصل كتابه: أنه أوقع لكل حكمة خطبة، وجمع كثيراً من كلام ابن الفارض والحاتمي وغيرهما على غير مناسبة، فاللّه ينفعه بنيَّته.

وممن علَّق عليه أيضاً الشيخ أبو المواهب محمد المعروف بـ«ابن زغوان» قديماً، تونسي الدار، توطَّن مصر، وأخذ عن بيت الوفائية، وبشَّر به بعضهم قبل قدومه، ولقبه بـ«أبي المواهب». وكان حسن الأخلاق متجملاً جداً، ذا لسان عظيم في كلام القوم، يرى أن ليس في المغاربة من يفهم الطريقة.

وقد نحا بشرحه نحو شقاشق[١] الفلاسفة ودقائقهم واللّه أعلم بمراده. ولم يكمل كتابه هذا، بل انتهى لنحو ربعه، واللّه أعلم.

وممن علّق عليه أيضاً «الشيخ أبو عبداللّه القرَّا»، وصنف فما قام، ولا قعد، ولا كمل، ولا وصل. وكان يدَّعي مرآى خارجة عن الأخبار بنبينا النبي ﷺ؛ فامتحن لذلك. ومات مرفوضاً والعياذ باللّه في سنة ثمانمئة واثنتين وثمانين، وكذا الشيخ أبو المواهب مات في هذه السنة. أما الرماح فمات في وباء سنة ثمانمئة وسبع وثمانين عن نحو مئة سنة وزيادة.

وذكر لي أن رجلاً بالشام يقال له «ابن الصابوني»[٢] علّق عليه شيئاً مال فيه لعلم الكلام ونحوه، وهي طريقة غير مفيدة، ولا مخلّصة في ذلك. واللّه أعلم.

فـصـل

وقد كنا كتبنا عليه مراراً عديدة، كمل منها سبعة عشر؛ فكان الأول منها بمدينة «فاس» سنة: سبعين، ثم سرق، فكتبت الثاني بها وكملته بتونس، ثم الثالث بتونس، ثم الرابع بالقاهرة، ثم الخامس بالمدينة المشرفة، ثم السادس بالقاهرة أيضاً، ثم السابع بطرابلس، ثم الثامن بتونس أيضاً، ثم التاسع ببجاية؛ ثم العاشر والحادي عشر والثاني عشر بمدينة فاس؛ ثم الثالث عشر كذلك؛ وكذلك الرابع عشر، ثم الخامس عشر ببجاية أيضاً، ثم السادس عشر بالقاهرة أيضاً، ثم هذا هو السابع عشر. وأرجو اللّه أن يكون نفعه عاماً، وأن يجعله، حيث ما حلَّ، رحمة لعباده وبركة في بلاده، وأن يحميه من كل جاهل يتحامل، أو حاسد يعرف الحق ويتجاهل، إنه وليُّ ذلك، والقادر عليه، وحسبنا اللّه، ونعم الوكيل.

---

(١) الشقشقة شيء كالرئة يخرجه الجمل من فيه إذا هاج وهدر. انظر المعجم الوسيط ص(٤٨٩).

(٢) قاسم بن إبراهيم بن قاسم بن يزيد من سلالة عبداللّه بن رواحة الأنصاري، أبو محمد بن الصابوني، فاضل من أهل قرطبة سكن إشبيلية، ولد سنة (٣٨٣هـ)، اشتغل بالقراءات والحديث، توفي سنة (٤٤٦هـ). انظر الأعلام (٥/ ١٧١).

فـصـل

وقد اختصت هذه التعاليق بثلاث خصال:

إظهار المناسبة في الكلام، والاختصار في التقرير، والتسهيل في البيان:

مع زيادات أخر تخصُّ بعضها وتَعُمُّ كلها، من ذلك: أن الكتاب محتو على أربعة أنواع:

التذكير والوعظ: وهو حظُّ العوام وللخواص منه نصيب.

والكلامُ على الأحكام: وهو حقُّ المتوجهين من كل فريق ولكل طريق.

والكلام على الأحوال: وهو نصيب المريدين، وربما كان تنبيهاً أو تشويقاً لغيرهم.

والكلام على الحقائق: وهو نصيب العارفين والمحققين.

وقد علم كلُّ أناس مشربهم، وما يجري به حالهم وما يليق بهم. وباللَّه التوفيق.

فـصـل

وقد ذكرنا في بعضها مقدمة تحتوي على تعريف الطريقة وما تبنى عليه من حقٍّ وحقيقة. وذكرنا فيها عشرة أشياء:

أحدها: أن حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجُّه إلى اللَّه تعالى من حيث يرضى بما يرضى.

الثاني: أن مداره على إفراد القلب والقالب للَّه وحده.

الثالث: أنه من الدين بمنزلة الروح من الجسد، والفقه جسده؛ إذ لا ظهور له إلا فيه، كما لا قيام له إلا به.

الرابع: أن نظر الصوفيِّ في وجوه الكمال والنقص. والفقيه فيما يسقط به الحرج. والأصولي فيما يصح به الإيمان ويثبت.

الخامس: أن نظر الصوفيِّ أخصُّ من نظر الفقيه والأصولي؛ فلذلك صح إنكارهما عليه، ولا يصحُّ إنكاره على واحد منهما، وصوفيُّ الفقهاء خير من فقيه الصوفية.

السادس: إظهار شرف التصوف ودليله برهاناً ونصّاً.

السابع: أن الفقه شرط في صحة التصوف، فلذلك قدّم عليه، والعمل ليس شرط صحة، بل كمال لا يترك لأجل فقده.

الثامن: ذكر الاصطلاح واختصاصه بكل فن على حسبه.

التاسع: مفاتيح الفتح فيه أربعة: إحكام العبادة، وصدق الرغبة في الوصول، والتشوف للحقائق، وعدم التقيد بالتقوُّل مع التحقيق.

العاشر: أنه طريق غريب عجيب، ومبناه: على اتِّباع الأحسن أبداً، فمن العقائد على اتباع السلف، ومن الأحكام على الفقه، ومن الفضائل على مذهب المحدثين، ومن الآداب على ما به صلاح قلوبهم عزيمة أو رخصة، مباحاً أو صريحاً أو شبهة، ما لم تقو جداً، أو تكون مائلة لجانب الظلمة، ولذا قالوا بأشياء أنكرها عليهم من لم يعرف مقصدهم، وآثرها من دخل الطريقة بالجهل فهلك فيها. فنسأل اللّه العافية بمنِّه.

فصل

ومما قدَّمناه أيضاً التعريف بالمؤلف والكتاب، وإسناده الموصِّل للصواب.

فأما المؤلف، فهو الشيخ الإمام العالم العامل العارف المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالرحمن بن عبداللّه بن أحمد بن عيسى بن الحسيني بن عطاء اللّه الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القاهري مزاراً. توفي بالقاهرة سنة: سبعمئة وتسع، في جمادى الآخرة. وكان أعجوبة زمانه في التصوف وغيره، كما قيل:

حلف الزمان ليأتينَّ بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفِّر

وأمَّا كتابه فقد مرَّ تعريفه.

وأما الإسناد فقد أخبرنا به إجازة شفاهاً الشيخ شمس الدين السخاوي[1] سنة: ثمانمئة وست وسبعين بداره بالقاهرة، قال: أخبرنا به إجازة من بيت المقدس الشيخ أبو زيد عبدالرحمن بن عمر القباني، قال: أخبرنا به في جملة كتب ابن

(١) محمد بن عبدالرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي ولد في القاهرة سنة (٨٣١هـ) مؤرخ عالم بالحديث والتفسير ساح في البلدان سياحة طويلة له مؤلفات عدّة توفي سنة (٩٠٢هـ). انظر شذرات الذهب (٨/ ٢ ـ ٣٢) والأعلام (٦/ ١٩٤).

عطاء اللَّه شيخ الإسلام تقي الدين أبو الحسن علي بن عبدالكافي السبكي[١] عن مؤلفها، وهي: «التنوير في إسقاط التدبير»، و«لطائف المنن»، و«تاج العروس»، و«مفتاح الفلاح»، و«القول المجرد في الاسم المفرد».

وهذه الحِكم التي افتتحها بأن قال:

(١) علي بن عبدالكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي أبو الحسن تقي الدين، ولد سنة (٦٨٣هـ) في سبك بمصر انتقل إلى القاهرة ثم الشام، ولي قضاء الشام، عاد إلى القاهرة وتوفي فيها سنة (٧٥٦هـ). انظر الدرر الكامنة (٣/ ٦٣)، والأعلام (٤/ ٣٠٢).

البابُ الأول

من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل

قلت: الاعتماد: حصر القوة في الشيء، وهو باعث النفس لما تريد في تحصيل المقصود منه.

وعلامة حصوله إيثار المعتمَد والنظر إليه في الإقبال والإدبار.

والناس ثلاثة: معتمد على عمله، وموقفه التقصير، وغايته التشمير، ومقامه الإسلام: لدورانه مع العمل رجاء أو خوفاً، وبساطه قوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وعلامته: ما ذكر في النص.

ومعتمدٌ على فضل اللّه تعالى، وموقفه شهود المنَّة، وغايته التبرِّي من الحول والقوة، ومقامه الإيمان: لدورانه مع القدرة في إقباله وإدباره، وبساطه قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وعلامته: الرجوع إلى مولاه في السراء بالحمد والشكر، وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر.

ومعتمدٌ على سابق القسمة وماضي الحكم، وموقفه شهود التصريف، وغايتُه الفَناء في التوحيد، ومقامه الإحسان؛ لما شهد به حاله من المشاهدة والعيان، وبساطه قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وعلامته: الاستسلام والسكوت تحت جريان الأحكام، فلا يزيد رجاؤه لعلة ولا ينقص لسبب، فلو وزنا لتعادلا في كل حال من أحواله، بل هو دائم البشر متواصل الأحزان، كما جاء في صفة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد قال بعض المحققين رضي اللّه عنهم: «من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى اللّه تعالى» انتهى.

وإنما كان الأمر على ما ذكر؛ لأن الاعتماد على الشيء في حصول قصده يوجب استشعار فواته لوجود ضدِّه، ويوجب الحرص عليه اعتباراً بقصده. ومن مظاهر ذلك ما ذكره في التجريد والأسباب إذ قال:

إرادتك التجريد مع إقامة اللَّه إياك في الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة اللَّه إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية.

قلت: وإيثار كل واحد منهما بدلاً من مقابله المقام فيه من الاعتماد عليه في حصول مقصوده؛ إذ لو لم يعتمد ما آثره بدلاً من مقابله. فافهم.

والناس ثلاثة:

مُقام في الأسباب، وحكمه: الرضى والصبر والاستسلام، وعلامته: استقامتها له بحصول فوائدها العادية، واستقامته فيها بالقيام بالحقوق الشرعية.

ومُقام في التجريد، وحكمه: الشكر والتشمير وعدم الفترة والتقصير.

وعلامته: القيام بالحقوق والإعراض عن كل مخلوق.

ومن خرج عما هو فيه من أحدهما، وحكمه: التثبت في الأمور بالانتقال للمثل حتى لا يستقيم بوجه فيصح انتقاله للمقابل والضد؛ لأن الإقامة علامتها الاستقامة، وتخلّفها إذن في الانتقال إذْ حُكم العبد أن يقيم حيث أقامه مولاه، ولا يختار شيئاً غير ما به تولَّاه.

قال في «التنوير»: «والذي يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك، حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولَّى إخراجك كما تولّى إدخالك، وليس الشأن أن تترك السبب، بل الشأن أن يتركك السبب».

قال بعضهم: تركت السبب كذا كذا مرّة فعدتُ إليه فتركني السبب فلم أعد إليه. اهـ.

فترك السبب إياه عدم استقامته له أو استقامته فيه، كما تقدم.

والتجريد: ترك الأسباب.

والسبب: العمل فيما يتوصَّل به إلى غرض دنيوي.

والشهوة: انبعاث النفس لطلب الملائم طبعاً من حيث هو: وإنما كانت هنا خفية، لأن صورة المطلوب، وهو التجريد، مؤلم بظاهره، إذ هو مفارقة المعتاد ومخالفة المراد، لكن في طيِّه استعجال الراحة والشهوة والفرار من الكلفة والتكاليف.

والانحطاط: النزول عن علوّ إلى أسفل.

والهمَّة: قوة انبعاث في النفس إلى مقصودٍ ما تعلو بعلوِّه وتسفل بتسفُّله.

وإنما كان تسبب المتجرد انحطاطاً؛ لاستبداله الراحة بالتعب، والسلوة بالشغب، وتعرُّضه لأسباب العطب؛ بمخالطته للأغيار، ومفارقته الأنوار، ولذلك قيل:

«من لم يأبق[١] من مشاركة الأضداد في الأسباب فهو خسيس الهمَّة».

ثم إرادة العبد لا تساوي شيئاً لتوقفها على إرادة الحق، فاشتغاله بإرادة غير ما أقيم فيه إساءة أدب بدون فائدة، وبيان ذلك فيما بيَّنه المؤلف إذ قال:

سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار:

قلت: بل تدور مع القدر كيفما دار، حسبما دلت عليه العقول وقضايا الشرع والنقول، فقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال ﷺ:

«كلُّ شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس»[٢].

وأنواع الهمم ثلاثة: الهمم القواصر: وهي التي تقتضي العزم والحزم من غير فعل ولا انفعال.

والهمم المتوسطة: وهي التي توجب مع العزم فعلاً ومع الحزم كمالاً، سواء وقع انفعال أم لا.

والهمم السوابق: وهي قوى النفس الفعَّالة في الوجود بلا توقف كما يكون من العائن[٣] عن خبثه، ومن الساحر عن عُقده ونفثه[٤]، ومن المتريِّض عن تجريد قوى نفسه، ومن الوليِّ عن تحققه في يقينه؛ إذ لا يتوقف الانفعال في كل عن حركة، وذلك بقضاء اللَّه وقدره، كما مر، وقد قال في حقِّ السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم سبق هذه الهمم إنما هو في الرتبة باعتبار جلالتها، لا في المرتبة باعتبار تقدم أزمنتها، وجلالتُها بسرعة نفوذها وقوة تأثيرها وعدم احتياجها في نفوذها

---

(١) يهرب. انظر المعجم الوسيط ص(٣).

(٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح (١٤/ ١٧) رقم (٦١٤٩)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٠٤٥) رقم (٢٦٥٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٥)، وأحمد في المسند (٢/ ١١٠) رقم (٥٨٩٣)، ومالك في الموطأ (٢/ ٨٩٩) رقم (١٥٩٥).

(٣) الحاسد الذي يصيب بالعين. انظر ص(٦٤١).

(٤) سحره. انظر المعجم الوسيط ص(٩٣٧).

لسبب مُعِين. وإذا كانت مع ذلك لا تخرق أسوار الأقدار فكيف بالتدبير والاختيار، وما لا فائدة فيه: فيه تعب عاجل يتعيَّن تركه على كل عاقل؛ فلذلك عقّب المسألة بأن قال:

ارح نفسك من التدبير.

قلت: أفاد ذكره للإراحة وجود التعب فيما تطلب الاستراحة منه وهو التدبير، وذلك لما تضمنه من وجود التكدير، ومنازعته الحكم والتقدير، فقد قال سهل بن عبداللّه رضي اللّه عنه[١]: «ذَروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم».

وقال عليه السلام: «إن الله جعل الروح والراحة في الرضا واليقين...»[٢] الحديث.

وقال عليه السلام: «التدبير نصف العيش»[٣].

قيل: فتركُ التدبير العيشُ كلُّه؛ لأن من لم يدبِّر دُبِّر له.

وهذا وإن كان بعيداً عن السياق بالقوَّة فهو حسن في المعنى، إذ التدبير تقدير شؤون تكون عليها في المستقبل مما يخاف أو يرجى، بالحكم لا بالتفويض، فإذا كان مصحوباً بالتفويض لم يكن تدبيراً عند التحقيق، وإن أُطلق عليه فمجاز للتقريب. واللّه أعلم.

ثم ذكر ما يعين على ترك التدبير وهو النظر لسابق الحكم والتقدير. فقال:

فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك.

قلت: لأن ذلك تكلُّف في غير فائدة، وعمل في غير معمل، وتعب في غير حاصل.

وفي مفهوم الكلام بالقوة: أن ما وُكل إلى قيامك به لا يصحُّ أن تتركه

---

(١) سهل بن عبداللّه بن يونس بن عيسى بن عبداللّه بن رفيع، أبو محمد، إمام صحب خاله محمد بن سوّار وشاهد ذا النون المصري، توفي سنة (٢٩٣هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٢٠٦) رقم (١٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٢١٥) رقم (١٠٥١٤) واللفظ عند الروح والفرح والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٤٢) رقم (٢٦٤٨) واللفظ عنده الروح والفرج وأيضاً أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٣٠).

(٣) أخرجه أبو عبداللّه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٥٤)، باب رقم (٢٠).

لغيرك، فهما إذن أمران أشار إليهما إبراهيم الخواص[١] رضي اللَّه عنه حيث قال:

«العلم كله في كلمتين: لا تتكلَّف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت».

وقال سهل بن عبداللَّه رضي اللَّه عنه:

«للعباد على اللَّه ثلاثة أشياء: تكليفهم، وآجالهم، والقيام بأمرهم، وللَّه على العباد ثلاثة أشياء: اتِّباع نبيه، والتوكُّل عليه، والصبر على ذلك إلى الموت» انتهى، وبه يتفسر قوله: ما قام به غيرك عنك وما وُكل إلى قيامك به.

ومعنى كون الأولى على اللَّه هو أنه لا سبب للعبد فيها، إذ لا يجب عليه تعالى شيء.

ومعنى كون الثانية على العباد هو أنهم مأمورون بها، فمن لم يتَّبع فمبتدع، ومن لم يتوكَّل فهو مدبر، ومن لم يصبر فمنازع، ومن قام بكلّ في محله كان سالم البصيرة منوَّر السريرة، وإلا فعلى العكس، كما نبّه عليه المؤلف وبيَّنه بأن قال:

اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك.

قلت: لأنك أتيت بالشيء على غير وجهه، ووضعته في غير محلّه، إذ عكست ما حقك أن لا تعكسه، فتركت ما أُمرتَ بالقيام به، وقمت بما كفيت أمره، وهو المضمون.

قال في «التنوير»: «فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة واهتمامك فيما ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك فيما طُلب منك، حتى قال بعضهم: «إن اللَّه ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة، فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا» انتهى.

وعبَّر بالاجتهاد لأن الطلب دونه لا يقدح بل ربما كان مطلوباً، وبالضمان ليشعر بسبق القسمة، وبالتقصير لأن الترك أعظم، وبالطلب ليشمل الواجب والمندوب.

ولو كان بدل الاجتهاد استغراقاً، وبدلُ التقصير تركاً لكان بدل الطمس عمى، لأن الدنيا كنهر «طالوت» لا ينجو منه شاربٌ إلا من اغترف غرفة بيده.

والبصيرة: ناظر القلب، كما أن البصر ناظر العين.

ثم علامات الاجتهاد في المضمون ثلاث: التأسف على الفائت، وفقد

---

(١) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق الخواص، صوفي كان أوحد المشايخ في وقته، من أقران الجنيد، ولد في سامراء، ومات في جامع الري سنة (٢٩١هـ). انظر تاريخ بغداد (٦/ ٧) والأعلام (١/ ٢٨).

التقوى في التحصيل، والغفلة عن الحقوق المتأكدة في التسبب.

وعلامات العكس ثلاث: الرضا بالواقع، والتقوى في الطلب، وحفظ الآداب في الأسباب.

ومن الاجتهاد في المضمون: اليأس من العطاء عند تأخر إجابة الدعاء؛ فلذلك أتبعه المؤلف ناهياً عنه، فقال:

لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك.

قلت: الإلحاح: التكرر في الدعاء لحاجة من وجه واحد على سبيل الطلب، وهو مطلوب في الدعاء، والإجابة مضمونة بمطلق الدعاء.

فإذا قمت بما طلب منك من الدعاء والإلحاح فيه فلا تيأس من الإجابة، لأن يأسك ناشئ عن رؤية السببية بدعائك واجتهادك منك في حاجتك: إذ صَرَفك تأخرها عن باب مولاك، فقصَّرت في المطلوب بالدعاء الذي هو إظهار الفاقة ودوام الحضور بالمناجاة. فافهم.

والناس ثلاثة:

رجل قصد مولاه بالتفويض فحصل له الرضا عنه ودوامُ التعلق به في الوجود والعدم، فهذا لا ينصرف لطول تأخر ولا لغيره.

ورجل وقف بباب مولاه واثقاً بوعده وناظراً لحكمه، فهو يرجع على نفسه برؤية التقصير وفقد الشروط عند التأخر، فيؤديه ذلك إلى اليأس تارة وإلى الرجاء أخرى، وإن تيسر مراده عظمت الشريعة في قلبه.

ورجل وقف بالباب مصحوباً بالعلل منوطاً بالتعذُّر ملفوفاً بالغفلة طالباً للغرض دون تعريج على حكم ولا حكمة. وهذا ربما تشكك في الوعد أو وقع في الحيرة أو دان باليأس، لا لسبب. نسأل اللّه العافية.

وقد قال الشيخ أبو محمد عبدالعزيز المهدوي رضي اللّه عنه: «من لم يكن في دعائه تاركاً لاختياره، راضياً باختيار الحق تعالى له فهو مُسْتَدْرَج، وهو ممن قيل فيه: اقضوا حاجته فإني أكره أن أَسمع صوته، فإن كان مع اختيار اللّه تعالى لا مع اختياره لنفسه كان مجاباً وإن لم يُعط. والأعمال بخواتيمها» انتهى.

وإنما ينفى الجهل المؤدي لليأس بالعلم باتساع الوعد وأن وقوعه غير محصور، وهذا ما بيَّنه المؤلف إذ قال:

فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد.

قلت: وذلك كله مضمّن في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فضمّن الإجابة بوعده، وجعلها مطلقة إذ لم يقل بعين ما طلبتم، ولا متى شئتم، ولا كيف شئتم.

وأكّد ذلك رسول اللّه ﷺ بقوله: «ما من داع إلّا وهو بين إحدى ثلاث:

إما أن تعجّل له طلبته، أو يؤخر له ثوابها، أو يصرف عنه السوء بمثلها»[(١)].

وقال عليه السلام: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجّل: يقول دعوت فلم يُستجب لي»[(٢)].

وروي أنه كان بين إجابة موسى وهارون عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أربعون[(٣)] سنة.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي[(٤)] رضي اللّه عنه في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: على عدم الاستعجال ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين يستعجلون في الدعاء.

وإنما جعل الإجابة فيما اختاره تعالى عيناً ووقتاً لوجوه ثلاثة:

أحدها: رفقاً بعبده وعناية، لأنه كريم، رحيم عليم، والكريم إذا سأله من يعزّ عليه أعطاه أفضل ما علمه له. والعبد جاهل بالصلاح والأصلح، فقد يحب الشيء وهو شرّ له ويكره الشيء وهو خير له. فافهم.

الثاني: لأن ذلك أبقى لأحكام العبودية في نظر العبد وأقوى في ظهور سُطوة الربوبية؛ إذ لو كانت الإجابة بالدعاء على وفق المراد حتماً لكان نفس دعائه تحكماً على اللّه، وذلك باطل، فافهم.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (١/ ٢٩٢) رقم (٩٣٧). وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٢٢) رقم (٢٩١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٥/ ٢٣٣٥) رقم (٥٩٨١)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٠٩٥) رقم (٢٧٣٥).

(٣) أخرجه ابن عبدالبر في التمهيد (١٠/ ٣٠١).

(٤) أبو الحسن الشاذلي علي بن عبداللّه بن عبدالجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلي المغربي أبو الحسن رأس الطائفة الشاذلية، ولد سنة (٥٩١هـ) في غمارة بريف المغرب تفقه وتصوف بتونس، وسكن شاذلة قرب تونس، سكن الإسكندرية كان ضريراً، توفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج سنة (٦٥٦هـ). انظر الأعلام (٤/ ٣٠٥).

الثالث: لأن الدعاء عبودية سرّها إظهار الفاقة، ولو كانت الإجابة بعين المراد حتماً لما صحّت فاقة في عين الطلب، فبطل سر التكليف به ومعنى الاضطرار المطلوب فيه، فافهم.

وقد قال بعضهم: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلَّا فالرب يفعل ما يشاء.

ثم ذكر مسألة هي أبلغ من التي قبلها في نفي اليأس والثقة بالوعد وإن تعيّن الزمان، فقال:

لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه.

قلت: التشكك: التردد بين إيقاع الشك ونفيه لاضطراب النفس في موجبه بحيث يقول الوعد صدق والزمان متعيِّن والموعود مفقود فيتحيّر في ذلك ويشكّ وهذا من ضيق المعرفة، والوقوف مع ظاهر الوعد دون نظر إلى باطن الأوصاف؛ إذ لو اتسعت دائرته علم أن ظاهر الوعد لا يقضي على باطن الصفة فجزم بالوعد وراعَى باطن الوصف بتقدير تعلّق الأمر بشرط ستره الحق عنه؛ إذ لا يجب عليه بيان ما يريد اشتراطه، بل يصح في الحكمة ستره إبقاء لسمو الربوبية في نظر العبد واستبقاء لأحكام العبودية عليه، فقد وعد الحق سبحانه نبيه عليه السلام بالنصر في «أحد» و«الأحزاب» ودخول مكة وستر شرط ذلك وهو «الذلّة» التي اقتضت حكمتُه ترتب النصر عليها دائماً حتى أظهرها في معرض المنة والتنبيه؛ إذ قال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، وقال عزّ وعلا: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ . . .﴾ [التوبة: ٢٥] الآية.

قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس في وصيته: «واعلم أن النصر مع الذل[1]، وهو سر الاضطرار المشروط في الإجابة بعين المقصد إذ قال: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] فافهم».

وإنما ذكر تعيين الزمان مبالغة، أو في حق من يصح التعيين في حقه.

ثم ذكر علَّة نهيه عن التشكك «لما ذكر كيف ذكر» فقال:

لئلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك.

قلت: أمَّا كونه قدحاً في البصيرة فلرؤيتها الأمر على غير الوجه المطلوب

(١) ورد بلفظ النصر مع الصبر. انظر ما أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤) رقم (٦٣٠٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٢٣) رقم (١١٢٤٣).

فيه، من النظر لاتساع العلم، واعتياد ذلك حتى تقوى دائرة الوهم فينتفي التحقق، وأما كونه إخماداً لنور السريرة فلأن نور السريرة مستفاد من اتساع النظر، والوقوف مع ظاهر الوعد مناف لذلك.

والبصيرة كالبصر أدنى شيء يقع فيه يمنع النظر ويشوِّش الفكر وإن كان لا يفضي إلى العمى، فالخطرة من الشر تشوِّش النظر وتكدِّر الفكر والإرادة تذهب بالخير رأساً، والعمل به يذهب عن صاحبه سهماً من الإسلام فيما هو فيه ويأتي بضده، فإن استمرَّ على الشر تفلَّت منه الإسلام سهماً سهماً، فإذا انتهى إلى الوقيعة في الأئمة وموالاة الظلمة حباً في الجاه والمنزلة وحباً للدنيا على الآخرة فقد تفلّت منه الإسلام كلّه، ولا يغرّنك ما تُوسم به ظاهراً فإنه لا روح له، وروح الإسلام: حبّ اللّه ورسوله وحب الآخرة، وحب الصالحين من عباده. وقال بعضهم: «ادفع رديء الخواطر قبل أن يتمكن الهمّ لئلا يصيبك».

وقيل: «إن أول الذنب الخطرة، كما أن أول الغيث القطرة».

وكما وجب أن لا يتوهَّم في وعده وجب أن لا يتوهم في فعله، بل يظن به الجميل في هذا كله. وهذا ما توجَّه له المؤلف وذكر بأَن قال:

إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها وإن قلّ عملك.

قلت: بها حقك أن تفرح بها لما تضمنه من التعرف الموجه فيها، الذي لا يكاد يتحصَّل بغيرها، ثم وجهة التعريف هي ما يعرفك بجلالة مولاك وحقارة نفسك وتعرف بها الدنيا وما فيها، والخلق بحقيقة ما هم عليه على وجه ينطبع في سويداء قلبك انطباعاً ينصبغ به حتى يكون الإقدام والإحجام على حكمه دون توقف، وليس ذلك إلَّا لأمور قهرية، وغاية أمرها أنها مانعة من إكثار العمل، فإذا قلَّ لأَجلها وجب أن لا تبالي؛ لأن الذي أمرك هو الذي قهرك، والكل منه وإليه فكما وجب امتثال أمره وجب الاستسلام لقهره، إنما على العبد أن لا يعزم على محظور، ولا يفرط في مأْمور فإن قصر به الحال فلا يبالي، وبذلك جرى أمر السنَّة، ألا تراه عليه السلام في حديث الوادي حيث ناموا عن الصلاة بعد توكيل بلال الذي شأنه عدم النوم في ذلك الوقت قال: «لن تراعوا إن اللّه قبض أرواحنا»[1]، فأحالهم على القدر لمَّا لم يتنبهوا.

---

(١) أخرجه أبو القاسم الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٤٤) رقم (١٠٧٤) ومالك في الموطأ (١/ ١٤) رقم (٢٦)، وابن عبدالبر في التمهيد (٥/ ٢٠٣).

ولما سأَل عليّاً وفاطمة: ما لكما لم تصلّيا الليل؟ أجابه عليّ: بأن اللّه قبض أرواحنا. فضرب فخذه وقال: وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً[١].

قال علماؤنا: وإنما كان هذا جدلاً؛ لأنهم تسببوا بوجود الجنابة وأجابوا بالقدَر في محل السبب، وإنما حملهم على ذلك وجود الحياء فافهم. ثم قال:

فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك.

قلت: وذلك مشاهد من حالها إذ لم تأْت إلا بالتعريف وهو بساط المعرفة التي لا تصل إليها إلَّا به ولا تبلغها إلا بمنّته قال:

ألم تعلم أن التعريف هو مورده عليك.

قلت: يقول أليس في علمك أن التعريف من عنده، هو أورده. والوجهة بساطه فإذا وجهها لك فقد وجه لك التعريف الذي تتضمنه وبه تصل للمعرفة التي هي غاية المطالب ونهاية الآمال والمآرب.

والأعمال أنت مهديها إليه: من أفعالك المدخولة، وصفاتك الناقصة المعلولة. **وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك:**

من معارفه الجليلة وأفعاله الجميلة وعطاياه الجزيلة، بينهما في الحكم ما بينكما في الوصف: ربٌّ وعَبْد، كيف يشتبهان ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وفي تلك الحكاية مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة المعرفة بالكريم المتفضل. وفي الحكاية الأخرى، فشتّان بين ما فعله بك لتنجو وبين فعلك لتنجو.

قلت: فعلك يحتاج إلى التخليص والإخلاص، وفعله بك لا يلحقه شرك ولا انتقاص، ويرحم اللّه «خير النسَّاج»[٢] حيث قال: «ميراث أعمالك ما يليق بأفعالك، فاطلب ميراث فضله وكرمه فهو أولى بك» انتهى.

ثم أخذ المؤلف في تقوية ما طلبه من عدم المبالاة فقال:

تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٣٧٩) رقم (١٠٧٤)، ومسلم في الصحيح (١/ ٥٣٧) رقم (٧٧٥).

(٢) خير بن عبداللّه النساج أبو الحسن، ولد سنة (٢٠٢هـ) في سامراء وأقام في بغداد، متصوف زاهد، صحب الجنيد والخواص والسهيلي، توفي سنة (٣٢٢هـ). انظر الأعلام (٢/ ٣٢٦) وطبقات الصوفية ص(٣٢٢) رقم (١٧).

قلت: التنوُّع التلوُّن، والأعمال: عبارة عن الحركات الجسمانية. والأحوال: عبارة عن الحركات القلبية، فحركات الأجسام تبع لأحوال القلوب، وإذا كانت كذلك فينبغي ألا نبالي بفقد الفرع لوجود أصله عند تعذر الفرع. هذا مقتضى ما في التنبيه.

والذي أفهمه أن الأعمال عبارة عن: الحركات الجسمانية والقلبية، والأحوال عبارة عن: التقلبات الوجودية كالغنى والفقر، والعز والذل، والعافية والبلية... إلى غير ذلك مما ترتب عليه الأحكام فتختلف باختلافه، فلكل حالٍ عمل يخصُّهُ ويختص به، فيكون عوضاً عن مقابله، فما فات مثلاً بالشكر على العافية استدرك بالصبر على البلية، وبالعكس، وما نقص من الأعمال البدنية تحصَّل بالأعمال القلبية، ولذلك قال الفاروق رضي اللّه عنه: «الصبر والشكر مطيّتان ما باليت أيهما أركب».

وأثنى الحق سبحانه وتعالى على الصابر والشاكر ثناء واحداً؛ فقال عزَّ من قائل في كلٍّ من سليمان وأيوب: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

ولمَّا خُيِّرَ النبي ﷺ بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً قال: «يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت تضرَّعت إليك. وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»[(١)]، فلم يُؤثر واحداً منهما على الآخر، بل ينظر إلى العبودية في الجميع، لأنها المقصود، وباللّه التوفيق.

ثم كمال الأعمال إنما هو بالإخلاص، وهو قلبي، وذلك يقتضي عدم المبالاة بها إذا عدمت لأجله، وهو ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها.

قلت: ولا عبرة بصورة لا روح فيها، كما أنه لا قيام لروح دون صورتها.

ويحتمل قوله «سرُّ الإخلاص» أن يكون من إضافة الشيء إلى نفسه؛ فالمراد؛ السرُّ الذي هو الإخلاص، ويحتمل أن يكون ما هو أخص منه، وهو الصدق المعبَّر عنه بالتبرِّي من الحول والقوة وكلاهما مطلوب: الإخلاصُ لنفي الرياء، والصدق لنفي العجب، وكلاهما لا كمال للعمل إلَّا به، فلذلك قال بعض المشايخ رحمه اللّه: «صحِّح عملك بالإخلاص، وصحِّح إخلاصك بالتبرِّي من الحول والقوة».

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٥٧٥) رقم (٢٣٤٧). وأحمد في المسند (٥/ ٢٥٤) رقم (٢٢٢٤٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٠٧) رقم (٧٨٣٥).

قال الشيخ أبو طالب المكيّ[١] رضي اللّه عنه: «والإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الحق، وأول الخلق النفس.

والإخلاص عند المحبين: أن لا يعمل عملاً لأجل النفس، وإلا دخل عليه مطالعة عوض أو ميل إلى حظ نفس.

والإخلاص عند الموحِّدين: خروج الخلق من معاملة الحق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون إليهم والاستراحة بهم في الأحوال» انتهى.

وكما أن الإخلاص حصن الأعمال فالخمول حصن الإخلاص، وهو طرح النفس فيما يليق بها من النقص والدناءة. وبحسب هذا فهو دفن لها، كما نبَّه عليه إذ قال:

ادفن وجودك في أرض الخمول.

قلت: يقول: غيِّب ما تُذكر به من علم وعمل وحال وغيره فيما ينفي عنك شهوة الرفعة عن عيوبك الأصلية، والفرعية، والعارضة.

والناس ثلاثة:

رجل غلب عليه التحقيق فغاب عن رفعته برؤيته نقصَه في الأصل، اعتباراً بأن الكمال كلّه للحق سبحانه وتعالى، وأن العبد لا يليق به من حيث ذاته إلا النقص فرجع بالكل لمولاه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

الثاني: رجل ساعده التوفيق فغاب عن محاسن نفسه بعيوبها المنطوية فيها بحيث شاهد محاسنه مساوئ ورأى حقائقه دعاوي، فسقطت نفسه من عينه بوجه لا يرجع فيه لنظر غيره.

الثالث: رجل اتسعت عليه نفسه فغلبه الوهم عن الفهم حتى رأى حظها وشاهد لحظها، فاحتاج لنفي ذلك بما ينافيه من مباح مستبشَع، أو مكروه لم يُمنع دفعاً لدعواها، وفراراً من بلواها، لا تستراً من الخلق: لأن التستر منهم تعظيم لهم، وهو يكرّ على أصله بالنقص.

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي[٢] رضي اللّه عنه: «من أراد الظهور فهو

---

(١) محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب، مكي النشأة، عجمي الأصل كان مجتهداً واعظاً، دخل البصرة، توفي سنة (٣٨٦هـ). انظر سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٣٦) رقم (٣٩٣)، وتاريخ بغداد (٣/ ٨٩).

(٢) أحمد بن عقبة المرسي، أبو العباس شهاب الدين، فقيه متصوف، من أهل الإسكندرية، أصله =

عبد الظهور، ومن أراد الخفاء فهو عبد الخفاء، وعبد اللّه سواء عليه أظهره أو أخفاه» انتهى. ثم أبان المؤلف عن فائدة الدفن المذكورة فقال:

فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

قلت: هذا هو المشاهد في الزرع وما في معناه، فإنه لا ينتج منه إلّا ما دفن، وما لم يدفن لا ينبت، وإن نبت فلا ينتج، وإن نتج فلا يتم نتاجه وإن ظهر نوره وابتهاجه...

وكذا ما ظهر من الأعمال وما بطن منها؛ فالتغيّر هوى مسرع لكل ظاهرٍ حسّاً في الحسيات ومعنى في المعنويات، ولذلك أشار شيخنا أبو العباس أحمد بن عقبة الحضرمي حيث أنشد ـ لا أدري له أو لغيره ـ فقال:

عش خامل الذكر بين الناس وارضَ به ... فذاك أسلم للدنيا وللدين
من عاشر الناس لم تسلم ديانته ... ولم يزل بين تحريك وتسكين

وكما لا يصحُّ دفن الزرع في أرض رديئة لا يصحُّ الخمول بحالة غير مرضية وهو ما كان محرَّماً متفقاً عليه؛ لأن ما كان ظلمةً بالذات لا يصح أن يكون نوراً بالعرض، فقياس الخمول بالمحرم بمن غُصَّ بلقمة لا يجد لها مساغاً إلَّا بجرعة خمر لا يصح: لأن المحرم لا يباح لنفي مكروه، وقوله إن هذا تقوية حياة فانية، وذلك حياة باقية مردود؛ فإن ذلك مُعين على قتل نفسه: فالحياة الباقية تفوته بفعله، والأخرى إنما يفوته كمالها فافهم.

ثم إن الموصّل للإخلاص وتحقيق الخمول إنما هو العلم الوافي عن الفكر الصافي، ومقدمته إنما هي العزلة، ثم الخلوة، فلذلك أتبعها به فقال:

ما ينفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة.

قلت: لأنه بالعزلة يسلم من الأغيار، وبالفكرة يستجلي الأنوار، وكل عزلة لا تصحبها فكرة فإلى المحق مآلها، والفكرة لا تصحُّ بدون العزلة، فالعزلة منزل الفكرة «وفي بيته يؤتى الحَكم».

ثم العزلة بالانفراد بالحال حقيقة، وبالانفراد بالشخص مجاز. واللّه أعلم.

والناس ثلاثة:

منفرد بقلبه لا بشخصه، وهذا كائن بائن، راحل قاطن، وحاله حال الأقوياء وأهل الكمال.

= من الأندلس، توفي سنة (٦٨٦هـ)، ودفن بالإسكندرية، لأهلها اعتقاد كبير فيه، انظر الأعلام (١/ ١٨٦) والنجوم الزاهرة (٧/ ٣٧١).

ومنفرد بالشخص دون القلب، وهذا سالم إن توفرت شروطه، متعرض لنفحات الرحمة وإن كان لا عبرة فيه في الحال.

ومتفرّد بهما وهو المتخلِّي، وأنواعه ثلاثة:

معتزل ليسلم، ومعتزلٌ ليغنم، ومعتزل لينعم.

فشرط الأول بعد علم حاله: القيام بواجبات وقته وسلامة الناس من سوء ظنه.

وشرط الثاني: التحفظ في السنَّة مع الجدِّ في العمل.

وشرط الثالث: تحقيق الأحوال والتبري من المقال. واللّه أعلم.

والميدان في الأصل: المجال للخيل، فشبّه جولان الخيل في ميادينها بجولان الفكر في مجاريه.

ومجاري الفكر أربعة:

وجود الأكوان لتحقيق ما دلت عليه والتحقيق به «فينفي ويثبت».

ووجود الشهوات المانعة من المقصد حتى ترجع فلا تعوق.

ووقوع الغفلات الصارفة عن المراد حتى تنتفي فلا تدفع عن بساط الحق.

وحصول الهفوات في التصرف حتى لا تصرف عن الفهم.

وأول ذلك أن يعلم أن الأربعة حائلة دون المقصود وقاطعة دونه على مراتبها. وهذا ما توجّه المؤلف لبيانه فقال:

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته.

قلت: حتى منعه انطباعها عن شهود تجلياته.

وذلك على ثلاثة أوجه:

الأول: انطباع وجودها من حيث النفع والضرّ، وذلك يوجب الاعتماد عليها والاستناد إليها.

الثاني: انطباعها من حيث الجمال والاستحسان الموجب للحب، وذلك يقتضي العبودية لها.

الثالث: انطباعها من حيث الشهوة وذلك يقتضي الغفلة بها.

ومعنى انطباعها في مرآة القلب ارتسامها فيه على وجه لا يقبل غيرها.

وصور الأكوان: أعيان الموجودات. ومرآة القلب: بصيرته.

وإنما لا يشرق القلب مع ما ذكر؛ لأن القلب ليس له إلا وجه واحد إذا توجَّه لشيء انقطع عما سواه، وعلامة انطباع الكون في المرآة إيثاره من غير توقف. والميلُ إليه ولو مع التعلل. وشغل النفس بالأعراض والعوارض ردّاً وقبولاً، وهذا دليل الشهوة وهي من موانع النهوض، كما قال:

أم كيف يرحل إلى اللّه وهو مكبّل بشهواته.

قلت: كلما أراد النهوض أخلدته، وإن نهض له أمسكته عن السير، وإن سار منعته من الإسراع، وإن أسرع ثبَّطته في الطريق، فكلما اجتمعت له رغبة بُكرةً فرَّقتها جنود الشهوة عشية، فلا يصحُّ رحيله عن عوالم طبعه إلى بساط الحق. وإن أشرق نوره حتى رأى الحقيقة وعرف الحق، ولكونها مثبطة مانعة من الإسراع في السير لزم تركها لذوي الإرادة لا لذاتها إن كان حكمها الإباحة. ومن هنا قالوا: لذع الزنابير على الأجسام المقرحة أيسر من لذع الشهوات على القلوب المتوجهة. ويذكر أن اللّه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: «أن حذِّر قومك كلّ الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني»[(١)]. انتهى.

ثم الشهوات داعية الغفلة، وقد تكون بدونها، وهي مانعة بعد الرحلة من الدخول كما قال:

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة اللّه وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته.

قلت: حضرة اللّه: دائرة ولايته ومقام اختصاصه بخواص عباده، وهو مقام مطهَّر لا يدخله إلا مطهَّر من جنابة الغفلة، كما لا يدخل المسجد إلا طاهر منها، بل سرُّ وجوب الطهارة من الجنابة الحسية ليكون العبد لمولاه بالكل كما كان لنفسه بالكل، وليشمله الحضور بالغسل كما شملته الغيبة باللذة وجوداً وقصداً.

والتطهُّر من هذه الجنابة المعنوية يكون بالطهارة المعنوية: الذكر والفكر، وهما عبارة عن الغيب المذكور في قول القائل:

تطهَّر بماء الغيب إن كنت ذا سرّ وإلَّا تيمم بالصعيد أو الصخر

والصعيد إشارة للعبادة، لأن أثرها يظهر على وجه العبد كالتراب عند استعماله.

والصخر إشارة للزهد والتبرِّي، لأنه لا يظهر أثره، وهما بدل من الأصل، فطهارتهما بالعرض لا بالأصل، ثم قال:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦٠).

وقدِّم إماماً كنت أنت إمامه.

يعني: اتّبع الشرع، لأنه إمام كنت أنت إمامه في إثباته حتى إذا أثبتَّه وجب عزلك باتباعه. فافهم، ثم قال:

وصلِّ صلاة الظهر في أول العصر.

يعني: إجمع ظُهر الشريعة بعصر الحقيقة لتجدّ في سيرك ولتقف بعرفات المعرفة، وباللّه التوفيق.

ثم من لوازم الغفلة وجود الهفوة. وهو الوقوع في الزلل من غير قصد، وهي مانعة من فهم الأسرار بعد دخول الحضرة لوجود الران[1] الناشئ عنها. وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته.

قلت: التي غمره رانها فأعمى قلبه عن مفهوماته. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فجعل التقوى بساط العلم.

قال أبو سليمان الداراني[2] رضي اللّه عنه: «إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالمٌ علماً».

فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فصدَّقه وذكر الحديث: «من عمل بما علم ورَّثه اللّه علم ما لم يعلم»[3].

وفي وصية مالك للشافعي ـ رحمهما اللّه ـ: «اتق اللّه ولا تطفئ هذا النور الذي آتاك اللّه بالمعاصي».

وأنشدوا في ذلك المعنى:

وما رُمت الدخولَ عليه حتى ... حللت محلَّة العبد الذليل

وأغضيت الجفون على قذاها ... وصنت النفس عن قال وقيل

---

(١) غطي على قلبه. انظر لسان العرب (١٣/ ١٩٢).

(٢) عبدالرحمن بن أحمد بن عطية، من أهل داريا قرية من قرى دمشق، توفي سنة (٢١٥هـ)، انظر طبقات الصوفية ص(٧٥) رقم (٩).

(٣) أورده القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٦٤)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٦٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٢٣).

وإنما تنتفي هذه الأربع بشهود الحق سبحانه، فمن شهده في الأكوان فاعلاً ومدبِّراً نسيها به فلم تنطبع في مرآته، ومن شهده عندها قائماً لها بما يجب وقائماً عليها بما يجب لم يتعلق بشهواته. ومن شهده قبلها مقدِّراً لها ومخصِّصاً لم يتعلق بغفلاته، ومن شهده بعدها رجع منها إليه فتاب من هفواته. ومن شهد الكون كلَّه ظلمة وأن الحقَّ هو الذي أناره فقد فتحت له أبواب تجلياته؛ لأنه بصير بقلب مفرِّد فيه توحيد مجرَّد. وقد قيل للجنيد[1] رحمه اللّه: «كيف السبيل إلى الانقطاع إلى اللّه تعالى؟

قال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبُعدها من الأمل.

قيل له: فبماذا يصل العبد إلى هذا؟

قال: بقلب مفرِّد فيه توحيد مجرَّد» انتهى.

وهذه الأربع المذكورة هي التي تنفي الأربع التي ذكرها المؤلف وأصلها الأخير.

وأصل ذلك للنظر إلى الوجود بعين العدم والظلمة، كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

الكون كله ظلمة:

قلت: والظلمة لا تهدي إلى شيء، بل تكفُّ عنه، فوجب رفضه فضلاً عن أن ينطبع في مرآة القلب، وبذلك ينتفي الاعتماد على العمل وغيره، وإنما كان ظلمة لأنه عدم في جميع أحواله: في الماضي بحقيقة حاله، وفي الحال بعدم استقلاله، وفي المستقبل على حكم ذلك: فإن كان باقياً فله حكم الحال، وإن كان فانياً فله حكم الماضي، ثم ما هو به في الوجود الذي هو نوره إنما هو من الحق سبحانه كما بيّنه إذ قال:

وإنما أناره ظهور الحق فيه.

قلت: أناره بالوجود الجائز بدلاً من العدم المجوِّز فظهر فيه بعلمه من حيث إتقانه، وإرادته من حيث تخصيصه، وقدرتُه من حيث إبرازه ظهورَ دلالة وتعريف، لا ظهور حلول وتكييف، فعُرفت به ذاته وصفاته وأسماؤه إذ هو فعله، وبهذا يفهم

---

(١) الجنيد بن محمد أبو القاسم الخزاز القواريري، أصله من نهاوند ولد ونشأ في العراق، أخذ عن أبي ثور وصحب السري السقطي والحارث المحاسبي، إمام فقيه توفي سنة (٢٩٧هـ). انظر طبقات الصوفية ص(١٥٥) رقم (١).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وأن الكون مشكاة فيها زجاجة الأفعال الجامعة لزيت النسب المعتصر من زيتونة الأوصاف الكمالية، لا شرقية جمالية ولا غربية جلالية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار التأثير الظاهر من مصباح الصفات، نور على نور الأفعال على نور النسب على نور الأسماء على نور الصفات، وهي التي ظهر بها الكل، يهدي اللَّه لنوره من يشاء في أي مقام كان، فيشهد الحقَّ على قدر ما حصل له من الهداية... فافهم. ووجوه الشهود مختلفة، من حصل على شيء منها كان كمالاً له، ومن لم يحصل على شيء فهو في دائرة النقص كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار.

قلت: ومن شهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فهو الكامل الأنوار المظهر الأسرار وإن تفاوتت الرتب.

والمراد برؤية الكون: اعتبار وجوده من حيث ما ظهر فيه وبه من التصرفات العادية وغيرها.

وشهود الحق فيه: النظر لوجود تصريف الحق له بوجه لا ينفك وتجري الأفعال على حكمه بأن لا يبقى للعبد على غيره اعتماد، ولا لمن سواه استناد، بل يبقى شاخص القلب لما يرد منه في كل دقيقة وحقيقة رجوعاً لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وعملاً بخالص التوحيد في بساط التجريد فافهم.

وعدم ذلك بالرجوع إلى الأسباب والعمل على أن النيل والمنع بالاكتساب، وشهوده عنده: هو النظر إلى أنه القائم له بما يحب والقائم عليه بما يجب، فيقع بذلك ظل في الصدور يقتضي مراقبته بالشكر على ما أسدى من محبوب، وبالقيام بما وجب من مطلوب، فتنتفي شهواته إذ يشغله الثناء على اللَّه عن أن يكون لنفسه شاكراً، وتشغله حقوق اللَّه عزَّ وجل عن أن يكون لحظوظه ذاكراً، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقوله عز وجل: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله جل وعلا فيما يرويه الصادق المصدوق ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي... إن اللَّه عند كل عمل وعامل حتى يوفيه... أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» فافهم[1]. وعدم ذلك بالغفلة وترك الحقوق. واللَّه أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ٢٦٩٤) رقم (٦٩٧٠)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٠٦١) رقم (٢٦٧٥).

وشهوده قبله: أن يسبق إلى قلبه أن مراده لا يكون إلا بإرادة الحق وقدرته، فينتج له ذلك التوكل عليه فيه علماً منه أن وجود كل شيء منه سبحانه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيحها التي يفتح بها وجودها وموجدها، فينتفي عنه الغفلة بهذه الرؤية لاشتغاله بالشكر عن المساعدة، وعدمُ ذلك برؤية النفس في التحصيل وعدمه. فافهم.

وشهوده بعده هو أن يغفل عن التصريف والقيام بالأمور والإبرام للأحكام حتى يقع في أمر يريده فيذكر مِنَّة الحقّ تعالى بتيسيره، أو في ضده فيذكر قهره سبحانه في تعسيره. وهذا حال عوام الخلق من المتوجهين ونحوهم، وإليه الإشارة بحديث: «أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به...»[1] الحديث.

وليس وراء هذه المرتبة إلَّا الاسترسال في الغفلة المؤدي لوقوع الهفوة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وذلك لأنهم غفلوا واسترسلوا، ولو رجعوا ما خسروا. فافهم.

ثم من حصل على الشهود الأول كان باللَّه، أو على الثاني كان للَّه، أو على الثالث رأى الأمر من اللَّه، أو على الرابع رجع فيه إلى اللَّه. ومن فاته ذلك كله فهو مُعْوز أي: محتاج لوجود الأنوار؛ إذ غلبه النظر إلى الأغيار.

وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار.

قلت: شبَّه المعارف بالشموس؛ لأنها تذهب بكل ظلمة ونور، وتكشف عن حقائق الأمور مع علوها وارتفاعها وعموم النفع بها، وأخْذِ كل أحد منها على قدره.

واستعار السحب للآثار؛ لأنها تغطِّي الحقيقة ولا تذهب بها، وتُضعف النور ولا تذهبه، وتعرض له ولا تدوم عليه.

وبالجملة فمعرفة الحق أصل لكل أصل، وما سوى الحق حجاب عنه، ولا يخرجك عن الوصف إلا شهود الموصوف، ومن ذكر الحق نسي نفسه، ومن ذكر نفسه نسي الحق، وأعظم باب في معرفته شهود قهره من بساط توحيده؛ لأنه يشعر بعظيم عظمته، وقد توجَّه المؤلف للكلام في ذلك إذ قال:

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٢/ ٣٩٢) رقم (٦٢٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠) رقم (٧٦٠٨). ومسلم في الصحيح (٤/ ٢١١٢) رقم (٢٧٥٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ١١١) رقم (١٠٢٥٢).

مما يدلك على وجود قهره، سبحانه، أن قد حجبك عنه بما ليس بموجود معه.

قلت: استدلال القوم مراد لتمكين الحقيقة من النفس، لا لمطلق الإثبات؛ لأن مقاصدهم دائرة على طلب الكمال بعد إثبات الأصل الذي هو شأن الأصولي، وقد تقرر في النقول أن اللّه خالق كل شيء فالكل منه وإليه، فوجود كل شيء به وله لا معه؛ لأن الكل عدم لوجوده، كما مرّ.

ثم الخلائق محجوبون عنه بهم، وهم عدم، فالعدم حجب العدم، وذلك عجيب من الصنع.

ثم احتجاب العدم بالعدم دليل على ظهور الوجود بالموجود بلا حجب ألبتة. وذلك من أكبر شواهد العظمة.

وإنما قلنا إن احتجاب الخلق بهم؛ لأن الحق ـ سبحانه ـ لا يصح أن يكون حجاباً ولا محجوباً، وقد ذكر المؤلف في ذلك عشرة أوجه فقال في أولها:

١ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء.

قلت: أظهره من العدم إلى الوجود فكان دليلاً عليه لكل موجود؛ إذ خصصه بإرادته وأبرزه بقدرته، وأتقنه بحكمته، وتجلَّى فيه برحمته.

٢ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء.

قلت: ظهر به من حيث التعريف؛ إذ أظهره من العدم فدلَّ على أنه المنفرد بالكمال والبقاء والقدم:

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحد

٣ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء.

قلت: ظهر فيه بما أظهر عليه من آثار قدرته وتخصيص إرادته ودلائل حكمته وشواهد رحمته؛ فكان مرآة لمعرفته.

٤ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شي.

قلت: ظهر له بما ظهر فيه فكان عارفاً به على قدره حسب تعريفه، ولذا قيل: «ما ثمَّ إلا عارف به على قدره»، فلذلك لا يعذر الكافر بجحده.

٥ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء.

قلت: لأنه أظهر الأشياء فكان قبل وجودها، إذ هو الأول الذي لا مُفتتح لوجوده، ولا ظهور لشيء إلَّا بإظهاره إياه. فافهم.

٦ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء.

قلت: لأنه الواجب الوجود لذاته، وكل شيء إنما وجد بإيجاده وواجب الوجود أظهر للمناط العقلي أبداً، ولا عبرة بوهم فيه. فافهم.

٧ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء.

قلت: ليس معه شيء أبداً، كما لم يكن معه شيء أزلاً، لأن الكل فعله وهو المنفرد بالكمال. وكان اللّه ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

٨ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء.

قلت: لأنه المتصرف فيك بكل شيء، وتصريفه سابق لك قبل وجود ذلك الشيء، فهو أقرب إليك حتى من نفسك ونفَسك قال اللّه تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥].

٩ ـ كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء.

قلت: وذلك لافتقار كل شيء له، وغناه عن كل شيء، وعلَّة كلِّ شيء صَنَعه، ولا علة لصنعه، ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن.

١٠ ـ يا عجباً، كيف يظهر الوجود في العدم.

مع أن العدم ظلمة والوجود نور. وقد كان ذلك.

أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم.

قلت: مع أن الحادث لا وجود له من ذاته ولا في صفاته، والقديم لا ثبوت لشيء مع ظهور صفاته، وقد كان ذلك، فدلَّ على أن الظاهر والثابت إنما هو القديم وحده، وتلاشي الحادث وفناؤه فيه.

يحكى أن رجلاً كان بين يدي الجنيد، فقال: الحمد للّه، ولم يقل رب العالمين.

فقال الجنيد رحمه اللّه: كمِّله يا أخي.

فقال الرجل: وأيُّ قدر للعالمين حتى يُذكروا معه!!

فقال الجنيد: قله يا أخي، فإن الحادث إذا قُرن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم.

قال في «التنوير»: فما سوى الحق ـ تعالى ـ لا يوصف بفقد ولا وجود؛ لأنه لا يوجد معه غيره، ولأنه لا يُفقد إلا ما وُجد، ولو انتهك حجاب الوهم لوقع

العيان على فقد الأعيان، ولأشرف نور الإيمان فغطى وجود الأكوان». انتهى، وسيأتي من نوعه كثير، وهو نخبة الكتاب ولبُّ اللباب، كم من خانه الجهل به فضلّ، وأنكر على أهله فزلّ، فهو معدن غرور الجهال، ومزلّة أقدام الرجال، ولا أجهل ممن يتعصب بالباطل، وأنكر لما هو به جاهل، فإن عرفت فاتَّبع، وإن جهلت فسلِّم، فعليكم بكمال التنزيه ونفي التشبيه والتمسك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

تنبيه:

تكلَّم في هذا الباب على بداية البدايات، وأشار في آخره إلى نهاية النهايات، وجمع في ذلك بين الشريعة والحقيقة، والإشارة والبيان، وكذا في كلّ كلامه.

الباب الثاني

ثم افتتح بالمعاملات والكلام فيها بأن قال:

وقال رضي اللّه عنه:

قلت: جعل هذه الترجمة في كل فصل من كتابه، وفيها نوعٌ من التعظيم: فيحتمل أن يكون مُلغى في نظره حين وضعها، ويحتمل أن الواضع لذلك غيره بإشارته أو بغير إشارته، ويحتمل أن يكون أملاه إملاء على الكاتب فترجمه لنفسه بحسب المجالس والفصول، واللّه أعلم.

ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره اللّه فيه.

قلت: الوقت هنا الزمان الذي لا يقبل غير ما أظهره اللّه فيه بحكم التصريف، وإرادة غير ما أظهره اللّه فيه بالتلهف على عدم موافقته للغرض النفساني ونحوه.

والسلامة من ذلك بوجود الاستسلام.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري[1] رضي اللّه عنه: «ومن كلامهم «الوقت سيف»». أي: كما أن السيف قاطع فالوقت بما يقتضيه الحق تعالى ويجريه: حاكم.

وقيل: «السيف ليّن مسّه قاطع حدّه، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصْطَلَم»[2]، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى. كما قيل:

وكالسيف إن لاينته لان مسُّه وحدّاه إن خاشنته خشنان

وقد يراد بالوقت غير هذا، مثل: طيبة القلب، ومنه قولهم: فلان صاحب وقته وطاب وقته.

ومثل الاجتماع للسماع، ومنه قولهم: صنع فلان وقتاً، وحضرنا وقتاً، ونحو ذلك.

---

(١) عبدالكريم بن هوزان بن عبدالملك بن طلحة القشيري الخراساني النيسابوري إمام زاهد صوفي ولد سنة (٣٧٥هـ)، صحب أبا العباس الثقفي وأبا علي الدقاق، وأخذ عن ابن فورك، وأبي إسحاق الإسفراييني، توفي سنة (٤٦٥هـ)، انظر سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٢٧) رقم (١٠٩).

(٢) قطع من أصله. انظر لسان العرب (١٢/ ٣٤٠).

فأما قولهم: «فلان بحكم الوقت» فمعناه ما تقدم أولاً، أي: أنه يجري مع التصريف بغير اختيار من نفسه.

وإنما كانت معاندة الوقت غاية الجهل لانسداد أبواب العلم وطرقه في حق صاحب هذه الحالة.

وطرق العلم ثلاثة: العقليات، والشرعيات، والعاديات.

فدليل جهله بالمعقولات إرادته رفع الواقع وإيقاع الممتنع.

ودليل جهله بالشرعيات اعتراضه على مولاه وإساءة أدبه معه فيما قضاه له، وإرادتُه غير ما أقامه فيه من تجريد وأسباب وغيرهما.

ودليل جهله بالعاديات عدم مراعاته لحكمة اللّه في خلقه وسنَّةِ اللّه في عباده، وأن من أراد موافقة أغراضه أبداً أتعب نفسه بغير فائدة، إذ لا يكون غالباً إلَّا غير ما يريده الإنسان.

وقد قيل: من طلب ما لم يُخلَق أتعب نفسه ولم يُرزق. يعني: الرَّاحة في الدنيا. وكما أمرتَ بالاستسلام في الواقع حيث لا يمكن غيره أمرتَ بالحقوق حسب الإمكان وإن كانت بمضايقة فترك الاستسلام في مجاله جهل وترك العمل في وقته حمقٌ. كما بيّنه المؤلف إذ قال:

إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس.

قلت: الرعونات: جمع رعونة، بضم الراء والمهملة، وهي ضرب من الحماقة فَيُظَنُّ بصاحبها العقل وليس بعاقل في نفس الأمر. والعبد في هذه الحالة كذلك، لأن صورة فعله تقتضي عقله، وفي حقيقة الأمر هو أحمق من ثلاثة وجوه:

أحدها: إحالته ما وجب عليه شرعاً وهو العمل، على محال عادة وهو الفراغ في هذه الدار فهو يقول لا أعمل حتى أتفرَّغ، ولسان الحال يقول له: لا تتفرَّغ إلا بالعمل.

الثاني: أنه وثوق بغير موثوق به، وهي النفس في عزماتها التي غالب الأمر أنها لا تفي بها.

الثالث: إنه إهمال للحزم والعزم المقدمين عند العقلاء خوفاً من تقلبات الدهر.

ولكن إيثار الدنيا على الآخرة واجتهاده فيما ضُمن له دون ما طلب منه هو الموجب لذلك: وقد قال رسول اللّه ﷺ: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد

الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على اللّه الأماني. . .»[1] الحديث.

والناس ثلاثة:

رجل ساعده القدر فعمل في فراغه وشغله. وهذا من الموفَّقين المغبوطين.

ورجل وجد الفراغ ولم يعمل. وهذا من البطّالين المغبونين؛ إذ جاء: «خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ»[2].

ورجل لم يجد الفراغ وجعله علَّة في التسويف فأحال عليه العمل، وهذا من المغترّين؛ إذ لا حقيقة له في وقته، ولا فيما يؤول إليه أمره، ويرحم اللّه ابن الفارض[3] حيث قال:

وعُدمن قريب واستحب واجتنب «غداً» وشمِّر عن ساق اجتهاد بنهضة
وسِر زمِناً وانهض كسيراً فحسبك البطالة ما أخرت عزماً لصحة
وكن صارماً كالوقت فالمقت في «عسى» وإياك «علّ» فهي أخطر علة
وجذَّ بسيف العزم «سوف» فإن تجُد نَفساً فالنفس إن جُدت جدّت

ثم إذا قمت بالاستسلام في محل القهر، وبالامتثال في محل الأمر فلا تختر حالة تكون بها من تجريد أو أسباب، عجز أو اكتساب: تشوقاً لما يرجى في ذلك، بل كن بحكم الوقت كما بيّنه المؤلف إذ قال:

لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها.

قلت: بل قم فيما أقامك اللّه فيه طالباً الاستقامة معه من غير زائد على ذلك: وإنما أمرت بذلك لثلاثة أوجه:

أحدها: القيام بحق العبودية فيما أنت فيه بالرضا به.

الثاني: لتجد الراحة بالاستسلام فتسلم من نكد التدبير وأكدار التغيير.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٢٥) رقم (١٩١)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٤٢٣) رقم (٤٢٦٠)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٦٣٨) رقم (٢٤٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٥/ ٢٣٥٧) رقم (٦٠٤٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١) رقم (٧٨٤٥)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٣٩٦) رقم (٤١٧٠) والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٥٥٠) رقم (٢٣٠٤).

(٣) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي أبو حفص شرف الدين ابن الفارض ولد سنة (٥٧٦هـ)، نشأ بمصر، أشعر المتصوفين، لقب بسلطان العاشقين، اشتغل بالفقه، أخذ الحديث عن ابن عساكر كان يكثر العزلة، توفي سنة (٦٣٢هـ). انظر الأعلام (٥/ ٥٥) وشذرات الذهب (٥/ ١٤٩).

الثالث: لئلا تُعطَى ما طلبت وتُمنع الراحة فيه؛ فقد حكي أن رجلاً كان يسأل اللّه تعالى كل يوم رغيفين ويتفرغ للعبادة، فسُجن، وكان يؤتى كل يوم برغيفين ففكّر في أمره، فقيل له: إنك سألت الرغيفين والعبادة ولم تسأل العافية، فاستغفَر، وأُخرج لوقته.

قال في «التنوير»: فتأدَّب بها أيها المؤمن ولا تطلب منه أن يخرجك من أمر ويستعملك فيما سواه إذا كان ما أقمت فيه مما يوافق لسان العلم؛ فإن ذلك من سوء الأدب مع اللّه تعالى، فاصبر لئلا تطلب الخروجَ نفسُك فتُعطى ما طلبتَ وتمنع الراحة فيه. فربَّ تارك شيئاً وداخل في غيره ليجد الراحة فتعب، وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار» انتهى.

ثم ما يريده العبد من الأسباب وغيرها يتحول إلى ضده. ووجودُ الجمع غير ممتنع، فإرادة الانتقال من عدم اتساع دائرة الفهم. وإلَّا فالأمر كما بيّنه المؤلف إذ قال:

فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج.

قلت: وذلك بأن يحصل لك فوائد التجريد مع الأسباب وفوائد الأسباب مع التجريد، وذلك عليه ـ سبحانه ـ يسير لا امتناع فيه ولا عسر، فكم من متجرد أَوْسع عليه الرزق حتى أضعف وأوسَعَ، وكم من متسبب بسِط له الزمان ووسع عليه وقته حتى جمع بين العبادة والتسبب، فقد روي أن سهل بن عبداللّه التستري رضي اللّه عنه قال: لمَّا أسلموني إلى المكتب كنت إذا اشتغلت بمراقبة قلبي ضاعت وظيفتي في اللوح وإن اشتغلت باللوح ضاع قلبي، فسألت اللّه فجمع لي بينهما، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي، رضي اللّه عنه، للمؤلف لمَّا رام الخروج مما هو فيه من الاشتغال بالعلم الظاهر قائلاً إن الوصول مع ذلك بعيد إذ قال له: اقعد فيما أنت فيه وما قُدِّر لك على أيدينا يصلك. ثم نظر إليه وقال: هذا شأن الصدِّيقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم كما تولى إدخالهم، فإذن أنت بين إحدى ثلاث:

إمَّا أن تقام فيما أنت فيه من غير نقل ولا زيادة ولا نقص. وهذه سلامة ورحمة.

وإما أن يستعملك فيه من غير إخراج فيكون لك غنيمة العبودية منوطة بغنيمة الفائدة المطلوبة مع زيادة ما أنت فيه، وإما أن يهيّئك للخروج عما أنت فيه بتخلُّف

شرط الإقامة الذي هو استقامته والاستقامة فيه فإن التخلف إذْنٌ في التخلف، كما تقدم.

ثم إذا قمت بما عليك من الاستسلام أو الامتثال حيث أقمت فلا تقف بهمتك عند شيء دون الحق، لأن ما سواه حجاب عنه وقاطع دونه، وإن كان من فوائده وكراماته.

وهذا ما بيّنه المؤلف إذ قال:

ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلبه أمامك.

قلت: يقول متى أراد المريد أن يقف بهمته عندما كشف له من العلوم والمعارف ونحوها نُودي من بساط الحقيقة بلسان حال ما كشف له: الذي تطلبه من معرفة الحق أمامك، ولا يزال أمامك أبداً فجدّ في الطلب ولا تعوّد نفسك الكسل؛ لأن ما كشف لك إن كان من علوم الأفعال ومعاني النسب الظاهرة فيها فقد فاتك موقف الأسماء والتحقيق بمعانيها على ما يليق بك وما يبدو لك منها، وإن كان ما كشف لك من معاني الصفات وحقائقها، فقد فاتك كشف عظمة الذات وجلالتها.

ثم كذلك في كلّ مرتبة إلى ما لا نهاية له؛ لأن المعروف لا يتناهى، فالمعرفة به لا تتناهى في دار الآخرة الأبدية فضلاً عن الدار الدنيوية.

ثم الوقوف على ثلاثة أوجه: وقوف قنوع، ووقوف رؤية الانتهاء، ووقوف استئناس.

وقد قال بعض المشايخ: وقفة المريد شرٌّ من فترته؛ لأن الفترةَ تُجبر بالتشمير والوقفة تقطع عن التوجّه بالتقصير، وهو رأس الحرمان والعياذ باللّه. وقد يدعوه للوقوف ما يظهر له من الكرامات قنوعاً واستئناساً أو اعتقاداً بأنها النهاية؛ فلذلك قال:

ولا تبرجت له ظواهر المكنونات إلا ونادته حقائقها «إنما نحن فتنة فلا تكفر».

قلت: تبرّجت: ظهرت بالزينة لقصد الاستمالة، وليس ذلك إلّا بخرق العوائد وتحصيل الفوائد، فإذا ظهر شيء من ذلك أُولعت النفس به فأرادت الوقوف معه فيناديه لسان حالها (إنّما نحنُ فتنَة) أي اختبار لك، هل تقف معنا فتحجب عن ربنا، أو تنظر لمنَّته فتشكر نعمة اللّه تعالى فينا فلا تكفر نعمة اللّه عليك فينا

بوقوفك معنا وتَجاوزْنا لرؤية الحق بنا أو دوننا شكراً لما أنعم الحق عليك بنا، واعمل على أبيات الششتري[1] حيث يقول:

فلا تلتفت في السير غيراً فكلما ... سوى اللّه غير، فاتخذ ذكره حصنا
وكلُّ مقام لا تقم فيه إنه ... حجاب فجدّ السير واستجلب العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلى ... عليك فحل عنها فعن مثلها حُمْنا
وقل ليس في غير ذاتك مطلب ... فلا صورة تجلى ولا طُرفة تجنا
وسر نحو أعلام اليمين فإنها ... سبيل بها يمنٌ فلا تترك اليمنا

وبالجملة فالوقوف بالهمة على شيء دون الحق حرمان، واشتغال النفس بالطلب له مفتاح كل خير لكن على وجه العبودية، لا على غير ذلك الوجه، فإن وجوه الطلب كلها معلولة، إلا ما كان على وجه العبودية وقد بيَّن ذلك المؤلف في كل وجه منها فقال:

طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه.

قلت: يقول: طلبك منه، أي: سؤالك منه ما تريده من الحوائج منه تعالى على جهة الاقتضاء والتسبب بالطلب من اتهامه تعالى في علمه ورحمته ووعده؛ لأنك لو وثقت بعلمه بحالك لم تجنح لسؤالك، ولو وثقت برحمته كنت تكتفي بها عن طلبك، ولو وثقت بوعده ما كنت تطلب منه شيئاً قسمه لك قبل وجودك، ولذلك قيل:

«لا تكونوا بطلب الرزق مهتمين فتكونوا للرازق متهمين» انتهى.

وطلبك له معناه طلبك الوصلةَ به من وجُود الغيبة عنه، لأنه ليس بغائب ولا بعيد، فطلبك له من وجود غيبتك وبعدك عنه؛ إذ لو كنت قريباً منه شاهدت قربه منك حتى ترى أنه أقرب إليك من نفْسِك ونفَسك.

وطلبك لغيره معناه طلبك الوُصلة بغيره، أي: من أمر الدنيا والآخرة من قلّة الحياء منه تعالى؛ لأنك لو استحييت منه حقَّ الحياء ما كنت تلتفت لغيره، فضلاً عن أن تراه أهلاً لأن تطلب الوصلة به.

---

(١) علي بن عبداللّه النميري الششتري، أبو الحسن، متصوف أندلسي من أهل ششتر، ولد سنة (٦١٠هـ)، تنقل في البلاد، توفي قرب دمياط، ودفن بها سنة (٦٦٨هـ)، انظر الأعلام (٤/ ٣٠٥).

وطلبك من غيره الحوائج لوجود بُعدك عنه، لأنك لو شاهدت قربه منك عرفت أن الأمور كلها بيده فوقفت بِكنه الهمَّة عليه.

وبالجملة، فالطلب كلُّه معلول إلا ما كان على وجه العبودية والقيام بحق الربوبية، لأن الحق تعالى أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كلّ شيء شهيد، فلا محل للطلب إذن.

وبرهان ذلك فيما ذكره المؤلف إذ قال:

ما من نفس تبديه إلا وله فيه قدر يمضيه.

قلت: النفَس بالتحريك أدق الحركات النفسانية في عالم الملك والشهادة، ومرجعه لأزمنة دقيقة يجري بها وجود الإنسان فتبدو: أي تظهر على وجوده ويبدو معها ما يقضيه الحق للعبد من الأمور العادية وغيرها، فهي مراتب للأحكام الجارية على العباد، وبحسب هذا فكل نفَس يقتضي تجلياً جلالياً أو جمالياً أو خارجاً عنهما. وذلك التجلي يقتضي عبودية، وتلك العبودية تقتضي تجل ولا يزال ذلك متجدداً على مرِّ الدهور والأوقات بعدد الأنفاس، فيكون المريد في كل نفَس سالكاً طريقاً إلى اللَّه تعالى، وعلى هذا يتنزل قولهم: الطرق إلى اللَّه بعدد أنفاس الخلائق، لا ما يسميه بعض الناس اختلاف الحق ومخالفته، فما ثمَّ إلا طريق واحد وهو طريق محمد ﷺ. ومسالكه ثلاثة:

عبادة، وإرادة، وزهادة.

وإن كان ما من نفَس تبديه إلا وله قدَر فيك يمضيه لم يصح لك اتهامه، ولا يصحّ أن يكون عنك غائباً. فيجب أن تستحي منه بأن لا تطلب غيره، ولا تطلب من غيره وتدَع التدبير معه فتنهض الهمَّة إليه من غير توقف ولا تردد، كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

لا تترقب فروغ الأغيار فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه.

قلت: لا تنتظر بعملك فراغاً من الأغيار والأفكار؛ فإن ذلك التوقف قاطع لك عن عبودية الوقت وحكمه، ولكن قم له بما تقدر عليه كما أنت من غير التفات إلى فراغ ولا غيره فقد قيل: «سيروا إلى اللَّه عُرجاً ومكاسير ولا تنتظروا الصحة؛ فإن انتظار الصحة بطالة» انتهى.

ومترقب الفراغ للعمل كمن يقول لا أتداوى حتى أجد الشفاء، فيقال له: لا تجد الشفاء حتى تتداوى. فلا هو يتداوى ولا يجد الشفاء، كذلك هذا: يقول لا

أعمل حتى أتفرغ، ولا يتفرغ حتى يعمل، فهو لا يعمل ولا يجد الفراغ.

ثم الذي ينتظره من الفراغ محال عادة؛ لأن الدنيا دار الشغل والفكر كما قيل:

فما قضى أحدٌ منها لُبانته ولا انتهى أربٌ منها إلا إلى أرب

فإذا أردت أن يكون شغلك فراغاً فاجعل عملك من جملة أشغالك، وليس ذلك إلا بتحقيق العلم بما هي عليه، كما نبّه عليه إذ قال:

لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها، وواجب نعتها.

قلت: وذلك أنها موصوفة بالدناءة، أي: الخساسة. والدنوّ أي: قرب المرام، وقرب المسافة. عمرها قصير، ومتاعها قليل، وآفاتها غزيرة، ومن وطّن نفسه على ذلك منها وعمل عليه وجد الراحة وكان دهره كلُّه عافية. ومن نظر إلى العكس أتعب نفسه من غير حاصل، ولذلك قال جعفر الصادق رضي اللّه عنه[1]:

من طلب ما لم يُخْلق أتعب نفسه ولم يُرزق، يعني الراحة في الدنيا. وأنشدوا في معناه:

تطلب الراحة في دار الفناء خاب من يطلب شيئاً لا يكون

وقال الجنيد رضي اللّه عنه: لست أستبشع ما يرِد عليَّ من العالم؛ لأني قد أصّلت أصلاً وهو أن الدنيا دار هَمٍّ وغمٍّ والعالم كله شر، ومن حُكمه أن يتلقاني بكلّ ما أكره، فإن تلقاني بما أحب فهو فضل، وإلا فالأصل هو الأول».

قال ابن مسعود[2] رضي اللّه عنه: «الدنيا دارُ هَمٍّ وغَمٍّ، فما كان منها من سرور فهو ربح» انتهى.

ثم الأشغال والأكدار وغيرها تذهب بالرجوع إلى اللّه سبحانه وتعالى وتتضاعف بالرجوع إلى النفس، وهذا ما نبّه عليه وبيّنه المؤلف بأن قال:

---

(١) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الهاشمي القرشي أبو عبداللّه الملقب بالصادق، كان من أجلاء التابعين، أخذ عنه مالك وأبو حنيفة، توفي بالمدينة سنة (١٤٨هـ). انظر الأعلام (٢/ ١٢٦).

(٢) عبداللّه بن مسعود بن غافل الهذلي المعروف بابن أم عبد وأحد العبادلة اشتهر بملازمته للنبي ﷺ، وكان صاحب نعليه، من أوائل الداخلين في الإسلام، وهو أول من جهر بالقرآن الكريم في مكة، شهد المشاهد. توفي سنة (٣٢هـ). انظر الإصابة (٢/ ٨٣٦).

ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك.

قلت: الطلب باللّه تعالى هو: الاستناد إليه في تيسير المطلب.

وعلاماته ثلاث.

التفويض في المراد، والتوكل في التحصيل، والاستقامة في التوجُّه. فإذا تمت هذه فالمطلب متيسر، سواء وجد المراد أو لم يوجد؛ لأن المقصود تبريد حرقة الاحتياج ولا بقاء لها مع التفويض، لأن عاقبته الرضا في الوجود والعدم، والطلب بالنفس هو الاستنادُ إليها في تحصيل المراد، وعلاماته ثلاث: حبُّ الموافقة من غير تفويض، واعتماد الأسباب من غير توكل، والتهوّر في وجه التحصيل دون تقوى ولا استقامة، وكلها عائدة بالضرر في الوجود والعدم. فالمطلب وإن تيسَّر بها صورة، فهو حرمان في الحقيقة؛ لما فيه من نسيان الشكر ومفارقة الحق، والاعتماد على الخلق.

قال في «التنوير»: «وما أدخلك اللّه فيه تولَّى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكّلك إليه ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، فالمدخل الصدق: أن تدخل لا بنفسك، والمخرج الصدق أيضاً كذلك» انتهى.

وبحسب هذا فالرجوع إلى اللّه علامة الربح، والرجوع إلى النفس علامة الخسران، كما قال:

من علامة النجح في النهايات الرجوع إلى اللّه في البدايات.

قلت: من علامة الخسران في النهايات الرجوع إلى النفس في البدايات؛ لأنها إذا كانت البداية باللّه كانت النهاية إلى اللّه، وإذا فُوّض له شكر في العطاء ورضاء في المنع، وكان ناظراً لما عنده أولاً وآخراً فهذا الفوز والنجح، والعكس للعكس، هذا مع أنه موكول لما رجع إليه، مخذول فيما وقف معه، كما قيل:

إذا لم يُعنْك اللّه فيما تريده ... فليس لمخلوق إليه سبيل

فإن هو لم يرشدك في كل مسلك ... ضللت ولو أن السِّماكَ دليل

وقد قال النهرجوري[1]: رضي اللّه عنه: «من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً، ومن قصد بحاجته غير اللّه لم يزل محروماً، ومن استعان على أمره بغير اللّه لم يزل مخذولاً»اهـ. وهو عجيب.

---

(١) إسحاق بن محمد النهرجوري، أبو يعقوب، صحب الجنيد، أقام بالحرم سنين كثيرة، توفي سنة (٣٣٠هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٣٧٨) رقم (٨).

ثم العوايد على حسب الفوائد، والفوائد على حسب المقاصد. والأمر كما قال:

من أشرقت بدايته أشرقت نهايته.

قلت: يقول: من أشرقت بدايته بالرجوع إلى اللَّه أشرقت نهايته بالوصول إلى اللَّه...

من أشرقت بدايته بإحكام أصولها أشرقت نهايته بالعثور على محصولها...

من أشرقت بدايته بالتزام الطريقة أشرقت نهايته بكشف الحقيقة.

من أشرقت بدايته بتلفه في اللَّه أشرقت نهايته بخلفه من اللَّه.

من أشرقت بدايته برفع الهمَّة عن الأكوان أشرقت نهايته بالكشف والعيان من اللَّه، لأن البدايات مجلى النهايات، ومن كانت باللَّه بدايته كانت إليه نهايته.

وقد قال ابن الجلَّاء[1] رحمه اللَّه: «من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكوّنها، ومن وقف بهمّته على شيء دون الحق فاته الحق؛ لأنه أعزُّ من أن يرضى معه بشريك»اهـ.

ثم ما يوجد في البداية والنهاية إنما هو سر الحقيقة والغاية كما قال:

ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر.

ما استُودع في غيب السرائر من معرفة اللَّه ظهر في شهادة الظواهر بالعمل على مقتضى ما هناك، فمن كان غيْب سرّه أتم كان ظاهره أحكم لأن ظواهر الأمور تدل على حقائق الصدور، والأسِرَّة تدل على السريرة، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره يلوح، والكلام صفة المتكلم، وما فيك يظهر على فيك، وأدب الظاهر عنوان أدب الباطن (لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه سيماهم في وجوههم ـ ولتعرفنهم في لحن القول ـ وخصلتان لا يجتمعان في منافق: حُسن سَمْت وفقه في دين، قال بعضهُم:

دلائل الحبِّ لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخفى إذا عبقا

ثم مما أودع في غيب السرائر رؤية الخلق بالحق لقوم، ورؤية الحق بالخلق لقوم، ولكل مرتبة حكمها؛ فلذلك قال:

---

(١) أحمد بن يحيى بن الجلاء أبو عبداللَّه، أصله من بغداد، أقام بالرملة بفلسطين، ودمشق صحب ذا النون المصري أحد أئمة الصوفية. انظر طبقات الصوفية ص(١٧٦) رقم (٤).

شتّان بين من يستدل به أو يستدل عليه.

قلت: يعني بُعْدان وفُرقان ما بينهما وإن اجتمعا في طلب الحق ومعرفته، فكثير بين من ينظر بنور الأكوان وبين من ينظر بنور المكوِّن.

المستدل به عرف الحق.

قلت: الحق هو النظر لواجب الوجود قبل جائز الوجود لأهله الذي هو واجب الوجود لذاته، فإنه أظهر في الجائز؛ لدلالة العقل عليه أولاً بمقتضى الإطلاق إذ إنما يُعرف وجود ثم يُحمل عليه موجود لا يفهم في وجوده إلا أنه مطلق غير مقيد وذلك يقتضي كماله بكل وجه، ومن لازم كماله وجوب اتصافه بالكمالات، ثم من كمال الأوصاف ظهور آثارها: فعرف الموجود في وجود، وعرف الأوصاف من ذلك الموجود، ثم عرف الأفعال من الأوصاف، فنظر الأمر على وجهه.

وأثبت الأمر.

الذي هو وجود الكون وما يجري عليه.

من وجود أصله.

الذي هو إيجاد الخلق بكرم الحق وفضله، وظهورهم على أثر وصفه بفعله.

وهذه طريقة أرباب التدلّي في البرهان، وأنكرها قوم فما أتوا ببيان.

وقال قوم: لا تكون المعرفة في بدايتها إلا كسبية بالترقي، ثم تعود ضرورية، فيكون النظر على التدليّ وهو الذي يفهمه أكثر الناس، وعليها نبِّه في «لطائف المنن» حسب ما يأتي.

وقسم ثالث: وهو أن يتجلى الحق تعالى لبعض عباده بالحقيقة فيكون له في معدن العيان بحيث لا يشعر بدليل على التدليّ ولا يفهم معناه على الترقي، كما قال ذلك الصبي لخاله وهو ابن ثلاث سنين، حيث قال: يا بنيَّ نَمْ فقد أشغلت سرّي، أرأيت من تجلى لقلبه شيء فسجد له؟ قال: إلى متى؟ قال: إلى الأبد.

وكذلك وقع لإبراهيم عليه السلام إذ عرف حقيقة لا أُفول لها ولا زوال، ثم نظر بها في أعظم الموجودات حسًّا، إذ قال في عقب كل اعتبار: لا أحب الآفلين، فلو لم يكن عرف حقيقة لا أفول لها ما نفى كلَّ آفل، بل قد صرَّح آخراً بما ضمَّنه أولاً إذ قال: (إني وجهت وجهي) فتأمل ذلك عالماً أن الاستدلال عليه دليل البعد كما قال:

والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه.

قلت: لأنه لا يستدل إلا على الأمر الخفي أو الغائب، ولا خفاء ولا غيبة مع الوصول، قال في (لطائف المنن): (اعلم أن الدليل إنما نُصب لمن يطلب الحق لا لمن يشهده، فإن الشاهد غنيٌّ بوضوح المشهود عن أن يحتاج إلى دليل فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسببة ثم تعود في نهايتها ضرورية.

وإذا كان من الكائنات ما هو غني بوضوحه عن الدليل فالحق تعالى أولى بغناه عن الدليل منها) اهـ.

ثم ذكر وجه الدليل في أن الاستدلال عليه من البعد فقال:

وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي الموصلة إليه.

قلت: وإن لم يكن الاستدلال من عدم الوصول فليس إلا من البعد والغيبة، والحق تعالى ليس بغائب ولا بعيد، فتبين أن الاستدلال عليه دليل الغيبة والبعد قال في (لطائف المنن): «ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصّلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصِّل إليه؟! أم هل لها من الظهور ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له، وإن كانت الكائنات موصّلة إليه فليس لها ذلك من حيثُ ذاتها، لكن هو الذي ولّاها رتبة التوصيل فوصَّلت؛ فما وصَّل إليه غير إلاهيته، ولكن الحكيم هو واضع للأسباب، وهي لمن وقف معها ولم ينفذ إلى قدرته: عين الحجاب»اهـ.

ثم يتبين على كلٍّ من المستدل به أو عليه أن ينتهج ما فتح عليه؛ إذ لا يمكنه انتقال عنه، بل كما نبَّه عليه بالآية التي فرَّع بها إذ قال:

لينفق ذو سعة من سعته: الواصلون إليه، ومن قدر عليه رزقه: السائرون إليه.

قلت: يقول العارفون وُسِّعت عليهم أرزاق العلوم والمعارف فأنفقوا على مقدار (ما وصل إليهم إذ استدلوا به وذلك حكم وقتهم، والسالكون ضيقت عليهم أرزاق العلوم فأنفقوا على قدر ما عندهم) ولذلك استدلوا عليه. وذلك حكمهم؛ إذ لا يكلف اللَّه نفساً إلا ما أتاها، وفضل اللَّه مرجوّ للجميع ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وإنما صحّ توقيع الآية في الواصل والسائر لاحتمالها ما هو أعم، ثم ذلك لا يرفع حكم الأصل الذي هو كونها في نفقات الزوجات ولا يدفعه بل يؤكده، لدخوله في النفقة الواقعة على ما هو أعم من المال. واللَّه أعلم.

ثم ذكر توجّه كلٍّ من الواصل والسائر فقال:

اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه. والواصلون لهم أنوار المواجهة.

قلت: فأنوار التوجه أنوار: العمل والمعاملة. وأنوار المواجهة: ما يَرِد من حقائق المواصلة.

فمظاهر الأولى ثلاثة: الاستدلال للتوصّل، والعمل للتوسّل، والتعلق للتقرّب.

ومظاهر الأخرى: التوفيق للهداية، والإلهام للعناية، والتحقق للولاية: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ومعنى الرحلة من هؤلاء انتقالهم من عوالم الحسّ والخيال بمفارقة الوهم والضلال، والوصلة في حق الآخرين تحقق العلم واليقين، والتمكن في منازل العارفين.

ثم لكل حال: حقيقة، وحكم، ومرتبة تخصُّه أشار إليها بأن قال:

والأولون للأنوار وهؤلاء الأنوار لهم.

قلت: فالأولون للأنوار عبيد ومِلك؛ إذ جعلوها من أعظم عُددهم وأقوى معتمدهم فلا يقدرون على مفارقتها، وإن فارقوها حزنوا وأيسوا من مرادهم لمفارقة المعتمد في تحصيل المقصود، وهؤلاء الواصلون الأنوارُ لهم مملوكة؛ لأنها عندهم تابعة وإن كانت غير متروكة.

قال شارح «محاسن المجالس»: «العارفون قائمون باللَّه، قد تولَّى اللَّه أمرهم، فإن ظهرت منهم طاعة لم يرجوا عليها ثواباً، لأنهم لا يرون أنفسهم عمالاً لها، وإن صدرت منهم زلة، فالدية على القاتل. لم يشهدوا غيره في الشدة والرخاء. قيامهم باللَّه ونظرهم إليه، وخوفهم رهبتهم، ورجاؤهم هيبتهم» انتهى.

ومعنى قوله: (الدية على القاتل) معناه: أن المقدّر لها هو المجازي عليها إن شاء عاقب، وإن شاء غفر؛ إذ لا حجر عليه آخراً، كما لا حجر عليه أولاً، فافهم.

ثم ذكر علّة حال الواصلين فقال:

لأنهم للَّه لا لشيء دونه.

قلت: يعني: وباللَّه لا بشيء سواه، فلا التفات لهم لغيره في فقدان ولا وُجدان ولا طاعة ولا عصيان، إذ كان لهم فكانوا له بلا علَّة من نفوسهم، فهم هم رضي اللَّه عنهم، كما قيل:

هـم الـرجـال وغـبـنٌ أن يـقـال لـمـن لـم يتصف بـمعاني وصْفهم رجل

ثم ذكر الآية التي تجمع حقائقهم على وجه الاستدلال لمقامهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، قلت: توقيع هذه الآية على هذا الموضع لا يتم بالقول، إنها ليست بجواب لما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ . . .﴾ [الأنعام: ٩١] الآية، ثم عند الاستدلال بها، فالتقدير: حسبي اللّه، أي: اكتفيت به عن كل شيء سواه. وهو صريح في غير هذه الآية، ومعنى: ذرهم: اتركهم، في خوضهم يلعبون: يتشاغلون بكل شيء لا حقيقة له، لأن اللعب التشاغلُ بما لا حقيقة له، والوجود كلُّه كذلك من حيث التحقيق. أصدق كلمة قالها الشاعر «لبيد»[1]:

ألا كـلُّ شـيء مـا خـلا الـلَّـه بـاطـل

وسيأتي هذا المعنى في كلام المؤلف متعدداً وباللّه التوفيق.

تنبيه:

بساط المعرفة تزكية النفس وتطهيرها من العيوب، فمن أرادها فعليه بذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فلا تشغل نفسك بطلب العرفان وغيره من الغيوب، ولكن بما فيك من القبائح والعيوب. وهذا ما افتتح به.

---

(١) لبيد بن ربيعة العامري، من فحول الشعراء، وفد على رسول اللّه ﷺ سنة وفد قومه بنو جعفر فأسلم وحسن إسلامه، توفي سنة (٤١هـ) قيل: إنه عاش ١٥٧ سنة، انظر أسد الغابة (٤/ ٢١٤) رقم (٤٥٢١).

الباب الثالث

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه:

تشوّفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير لك من تشوّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب.

قلت: العيوب جمع عيب، وهو ما أوجب نقصاً فيمن نسب إليه معصية أو غيرها، جارياً كان في الأفعال أو في الأخلاق أو في الآداب، متعلِّقاً باللّه أو بعباده. ثم هي على قسمين ظاهرة جلية، وباطنة خفية.

فالنظر في الجلية وإزالتها سهل قريب. وإزالة الخفية والنظر فيها مشكل صعب، وقد مرّ منها جملة؛ كالاعتماد على العمل، وإرادة غير ما أقيم فيه العبد، والتدبير مع اللّه، والاستعجال في الدعاء، والتشكك في الوعد، والاعتراض عند فوت المراد، وفقد الإخلاص، وحب الشهوات وإيثار الخلطة وانطباع الأكوان في مرآة القلب، وتعلقه بالشهوات واسترساله مع الغفلة، وقلة المبالاة بالهفوة، والاحتجاب عن الحق برؤية الأكوان، وإرادة غير حكم الوقت، وإحالة العمل على الفراغ، وطلب حالة غير التي أنت فيها، والوقوف عندما يبدو من كشف ونحوه، والطلب منه، وطلبه، والطلب من غيره، ولغيره، وترقب الفراغ ورؤية صفو الدنيا، وطلب الأشياء بالنفس، والرجوع لغير اللّه في البداية... إلى غير ذلك مما دخل في طيّ ما ذكرنا وما يأتي في الكلام بعد مما في معناه، فافهم.

والغيوب: جمع غيب، وهو ما استتر عن الخلق.

وينقسم إلى حسيٍّ، ومعنوي.

وشأن النفس إهمال العيوب وطلب الغيوب.

والمطلوب العكس، لوجوه ثلاثة:

أحدها: أن الاشتغال بالعيوب حق الأدب وطلب الغيوب قد يجر إلى العطب.

الثاني: أن الاشتغال بالعيوب يجر إلى الكمال وطلب العيوب ربما وصَّل للضلال.

الثالث: أن الاشتغال بالعيوب أداء حقِّ الربوبية وطلب الغيوب تفويت لحق العبودية، وقد قالوا: «كن طالب الاستقامة ولا تكن طالب الكرامة؛ فإن نفسك تهزُّك بطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة، ولأن تكون بحق ربِّك أولى من أن تكون بحظّ نفسك» انتهى.

ثم حجاب الغيوب إنما هو وجود العيوب، كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

الحق ليس بمحجوب؛ وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه.

قلت: أما أن الحق ليس بمحجوب فقد تقدَّم من براهينه ما لا مزيد عليه، وأما أنك المحجوب عن النظر إليه فلا يحتاج إلى دليل، لكن حجابك على وجهين:

حجاب بصر، وحجاب بصيرة.

حجاب البصر عيبك الأصلي الذي هو النقص والفَنَاء؛ ولا زوال لهما إلا في الآخرة؛ فلا رؤية به إلا هناك؛ كما جاء به الخبر عن الصادق ﷺ.

وحجاب البصيرة عيبك العارض، فإذا زال كشفت لك الحقيقة.

قال في «لطائف المنن»: «وإنما حجاب الغيوب وجود العيوب به، فالتطهر من العيب يفتح باب الغيب، ولا تكن ممن يطالب اللَّه لنفسه، ولا يطالب نفسه لربه فذلك حال الجاهلين الذين لم يفقهوا عن اللَّه ولا واجههم المدد من اللَّه، والمؤمن ليس كذلك، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه، ولا يطالب ربه لنفسه، فإن توقف عليه الحال استبطأ أدبه ولا يستبطئ مطلبه» انتهى.

ثم ذكر برهاناً عجيباً في أن الحق ليس بمحجوب فقال:

إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه. ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصراً وكل حاصر لشيء فهو له قاهر. وهو القاهر فوق عباده.

قلت: جملة هذا البرهان: أن الحجاب ساتر، والساتر حاصر، لأنه يحصر المحجوب في جهة منه، وكلُّ حاصر قاهرٌ، والرَّب تعالى قاهر غير مقهور كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، فوقية معنوية، كما يقال: السيد فوق عبده، والسلطان فوق الوزير، والآمر فوق المأمور، يعني أن جلالته ظاهرة ومزيته أعلى من مزيته، فهو العليُّ في المنزلة أو المزية أو المكانة، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم بيَّن أصل العيوب وذكر وجه المخْلص منها فقال:

أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك.

قلت: أوصاف البشرية: ما لا يكون البشر بشراً إلَّا به من العوايد والأسباب والأخلاق، وغيرها.

ثم هي قسمان: أوصاف موافقة للعبودية: كالطاعة والعفة واليقظة.

وأوصاف مناقضة للعبودية: كالمعصية والشهوة والغفلة، فالخروج من المناقضة بالعمل بالموافِقة، وإنما أمرت بذلك لعلَّة ذكرها بأن قال:

لتكون لنداء الحق مجيباً، ومن حضرته قريباً.

قلت: أما نداء الحق فهو خطابه الجاري على لسان نبيّه ﷺ بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ...﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾.

وقد قال جعفر الصادق رضي اللّه عنه:

«إذا سمعته يقول يا أيها الذين آمنوا فاصغ إليه، فإنما هو أمر أو نهي.

وإجابة ذلك على الحقيقة ثلاث: تصديقه، والعمل به، وإرادة وجهه تعالى بالعمل.

وبذلك يكون القرب من حضرته، أي: دائرة ولايته واختصاصه، فقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: إذا أكرم اللّه عبداً في حركاته وسكناته نَصَبَ العبودية للّه بين عينيه، وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب في عبوديته والحظوظ عنه مستورة مع جري ما قدِّر له لا يلتفت إليها كأنه في معزل عنها.

وإذا أهان اللّه عبداً في حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته؛ فهو يتقلّب في شهواته وعبوديةُ اللّه عنه بمعزل وإن كان يجري عليه شيء منها في الظاهر. قال: وهذا باب من الولاية والصيانة. فأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى فالحقوق والحظوظ سواء عند ذوي البصائر لأنه باللّه فيما يأخذ ويترك» انتهى، وهو عجيب. ثم أصَّل العيوب ومقابلها وأصَّل كلَّ أصل منها؛ ليثبت بالأصل وينفي به فيكون أتمّ فقال:

أصل كل معصية وشهوة وغفلة الرضا عن النفس.

قلت: المعصية: مخالفة أمر اللّه الواجب.

والشهوة: الاسترسال مع النفس في طلب الملذات.

والغفلة: إهمال الحقوق المندوبة والواجبة بالاسترسال مع دواعي الهوى.

والرضا عن النفس علاماته ثلاث: رؤية الحق لنفسه، والشفقة عليها، والإغضاءُ عن عيوبها. بتزكيتها من حيث إنه يرى قبيحها حسناً بالتأويل، لا أنه يعلم العيب ثم يغضي عنه، وإن كان نوعاً منه، وأنشدوا في ذلك:

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ولكن عين السخط تُبدي المساويا

وهذا الشطر الثاني يوافق المعنى الثاني الذي ذكره المؤلف إذ قال:

وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضا منك عنها.

قلت: وهو السخط عليها، أو ما هو أعم منه، وله علامات ثلاث:

اتهامها، والحذر من آفاتها، وحملها على المكاره في عموم أوقاتها.

فقد قال أبو حفص الحدَّاد[1] رضي اللّه عنه: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرَّها إلى مكروهها في سائر أيامه فهو مغرور».

ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصحُّ لعاقل الرضا عن نفسه، والكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب يقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] انتهى.

والطاعة: موافقة أمر اللّه، واجباً كان أو مندوباً.

والعفة: ترك الدناءة من كل شيء.

واليقظة: الانتباه لأمر اللّه سبحانه.

ثمّ لا بدَّ للإنسان في تبصُّره عيبه من مُعين: أخ ناصح، أو شيخ صالح لابتلائه بالإغضاء عن نفسه.

وشرط ذلك المعين أن يكون بريئاً عن الرضا عن نفسه فلذلك قال:

ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه.

قلت: سواء كان شيخاً أو قريناً أو تابعاً، لأن الذي لا يرضى عن نفسه قد جمع مناقب ثلاثاً وإن كان جاهلاً، وهي: الإنصاف من نفسه، والتواضع لعباد اللّه، وطلب الحق بالصدق.

---

(١) عمرو بن سلم ويقال ابن سلمة، أبو حفص النيسابوري وهو من قرية يقال لها كوردآباذ على باب مدينة نيسابور صحب عبيداللّه بن مهدي الأبيوردي وأحمد بن خضرويه البلخي، إمام توفي سنة (٢٧٠هـ). انظر طبقات الصوفية ص(١١٥) رقم (١٥) وشذرات الذهب (٢/ ١٥٠).

وقد قال عمار رضي اللّه عنه: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسه، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»[1] اهـ.

فصحبةُ مَن هذه أوصافه تقتضي ثلاثاً: اكتساب هذه المحاسن منه: لأن المرء على دين خليله، وراحة القلب مع البدن من معاناته، وسلامةُ الدنيا والدين من التكلف. والراضي عن نفسه قد باء بثلاث: الكبر، وقلَّة الإنصاف، والتصرف بالرياسة.

فصحبته تورث ثلاثاً: العبودية له، والتكلُّف، والقطيعة آخر الأمر؛ لأنه يرى لنفسه من الحق ما ليس له، فلا يُبْلَغُ رضاه، ثم لا يغفر زلَّة ولا يقيل عثرة ولا يرجع لربه وذلك ما لا يصح معه أُلفة.

ثم إذا كان عالماً فعلمه زيادة في شرِّه، وإن كان جاهلاً فجهله بلاء عليه وعلى صاحبه، وإن كان رئيساً فلا يُنتفع بالدنيا ولا بالدين معه، فلذلك قال سهل بن عبداللّه رضي اللّه عنه: «أحذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: القرّاء المداهنين، والمتصوّفة الجاهلين، والجبابرة الغافلين» اهـ.

ثم الصاحب إنما يراد لثلاثة: النصيحة، والشفقة، والإعانة.

وكلها من الراضي عن نفسه مفقودة؛ لجهله بمقدار نفسه وغفلته بذلك عن حقوق صاحبه، وإن أتى بشيء من ذلك أعجب به حتى يودّ الإنسان أنه لم يره، وذلك من جهله بنفسه، وهو رأس الجهل، كما أن عدم الرضا عنها من العلم بها، ولا علم فوقه، فلذلك انقلبت أحكامها كما قال:

فأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه.

قلت: انقلبت حقائقها لانقلاب الأحكام عندها، لأن من حقائق الجهل ثلاث: الفرار من الحق، واتباع الباطل، والحكم بما لا يصح. وهذا حال الراضي عن نفسه.

ومن حقائق العلم: العملُ بالحق، ومجانبة الباطل، وإعطاء كل شيء ما يليق به.

وهذه لا توجد إلَّا ممن لا يرضى عن نفسه؛ فالعلم بالصورة لا عبرة به إنما هو صناعة، والجهل بالصورة لا ضرر على صاحبه إذ يَحصل ما يحتاج إليه بسؤاله

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (معلقاً) (١/ ١٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٧٢) رقم (٣٠٤٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٤١).

مع سلامته في حاله. والآخر كلما ازداد مساءلة ازداد جهلاً بربِّه وبنفْسه. وقد قال سفيان الثوري[١] رضي اللَّه عنه:

«إنما يتعلم العلم لِيُتَّقى اللَّه، وإنما فضُل العلم غيره لأنه يتقى اللَّه به». وقال سفيان بن عيينة[٢] رضي اللَّه عنه: «إذا كان ليلي ليلَ سفيه، ونهاري نهارَ جاهل فما أصنع بالعلم الذي أكتسب؟».

وقال مسروق[٣] رضي اللَّه عنه: «كفى بخشية اللَّه علماً، وكفى بالاغترار باللَّه جهلاً»[٤]اهـ.

وقد استعاذ رسول اللَّه ﷺ من علم لا ينفع وقال: «أشدُّ الناس عذاباً عالم لم ينفعه اللَّه بعلمه...»[٥]. الحديث.

ثم الذي ينفي كلَّ عيب ويذهب بكل ريبة وريب إنما هو العلم باللَّه، إذ به تتم الخشية للَّه. والناس فيه مراتب بحسب الأشهاد والشهود.

ومرجع ذلك لمراتب ثلاث، ذكر المؤلف أولها بأن قال:

شعاع البصيرة يشهدك قربه منك.

قلت: هو تعالى قريب أبداً وشهود العباد له على قدر أنوار بصائرهم. وشعاع البصيرة: هو نور العقل الهادي إلى الإيمان الذي غايته الإثبات في محله والنفي في محله، فمن اطلع في أفق قلبه شَاهد قرب الحق منه فراقبه في حركاته وسكناته حتى لا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، حتى إذا تمَّ الإيمان، انفتح عين

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبداللَّه الثوري الكوفي، ولد سنة (٩٧هـ)، أخذ عن أبي إسحاق الشيباني، وأخذ عنه الإمام مالك والأوزاعي امتنع عن القضاء، توفي سنة (١٦١هـ). انظر شذرات الذهب (١/ ٢٥٠) وتهذيب التهذيب (١١/ ١٥٤).

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران، أبو محمد الهلالي الكوفي، إمام حجة، ولد سنة (١٠٧هـ). أخذ عن الأسود بن قيس وزياد بن علاقة وأخذ عنه سفيان الثوري وعبدالرزاق، توفي سنة (١٩٨هـ)، ودفن بالحجون. انظر شذرات الذهب (١/ ٣٥٤) وتهذيب التهذيب (٢/ ٣٥٧).

(٣) مسروق بن الأجدع الهمداني أبو عائشة أدرك الجاهلية، تابعي روى عن علي وابن مسعود. انظر أسد الغابة (٤/ ٢٨٠) رقم (٤٨٦٣).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٠٤) رقم (٣٤٥٣٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٨٩) رقم (٨٩٢٧) والقول منسوب عندهما لعبداللَّه.

(٥) أخرجه أبو عبداللَّه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٧١) رقم (١١٢٢)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٠) رقم (٥٩٩).

البصيرة لعين اليقين انطوى القرب في عموم التعريف، فشهدت الحقيقة عدمَ كل شيء لوجود الحق كما قال:

وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده.

قلت: وذلك نفس الحقيقة، لأن كل شيء عدم لوجود الحق؛ إذ لا وجود لشيء إلَّا منه، ولا قيام لشيء إلا به، لأنه الغني عن الكل، والكل مفتقر إليه.

فعين البصيرة: هو نور الإيمان الهادي إلى التحقيق. وثمرته: ترك التدبير والاستسلام لحكم المقادير. ثم إذا حصل التحقق بذلك انتقل الحال فعاد يرى الخلق لا عبرة بهم في وجود ولا عدم؛ لرجوع كلِّ شيء له تعالى، وذلك حق البصيرة كما قال:

وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا جودك.

قلت: نور الحقيقة القاضي بالتحقق بحقائق العلم بقرب الحق هو حق البصيرة، وبه يظهر أن الكون لا نسبة له في عدم ولا في وجود. وأن العبرة إنما هي بوجود الحق سبحانه وحده، لأن الحادث إذا قورن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم، ولهذه المواقف الثلاثة أشار الشيخ محيي الدين[1] حيث قال: (من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم عينُ العدم فقد وصل) انتهى.

ثم استشهد المؤلف للمقام الأخير بحديث ذكر لفظه بأن قال:

كان اللّه ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

قلت: يعني أنه لا شيء معه في أبده، كما لم يكن معه شيء في أزله لأنه الواحد الأحد أزلاً وأبداً.

قيل لبعضهم: أين اللّه؟ قال: حيث كان قبل أن يخلق المكان. قيل: فأين كان؟ قال: حيث هو الآن.

يعني أنه لا يُعرف بالأين ولا بالكون. وشهود ذلك بجريانه في عوالم القلب حتى لا يبقى فيها متسع للغير كما قيل:

فلم يبق إلا الحق لم يبق كائن ... فما ثَمَّ مجموع ولا ثَمَّ باين

(١) محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي ابن العربي، جال في مناطق عدّة في دمشق وبغداد والروم ومكة تصوّف وتزهد وتوحّد، له مؤلفات عدّة، توفي سنة (٦٣٨هـ). انظر سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٨) رقم (٣٤).

بـذا جـاء بـرهـانُ الـعِـيـان فـمـا أرى بـعـيـنـيَّ شـيـئـاً غـيـره إذ أعـايـن

تنبيه :

إذا تحققت المعرفة بقرب الحق، أو بعدم كل شيء لوجوده، أو بانتفاء كلِّ شيء لوجوده فني من لم يكن، وبقي من لم يزل، فعكفت الهمَّة عليه بنسيان غيره، كما أشار إليه في افتتاح :

الباب الرابع

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه: لا تتعد نية همّتك إلى غيره.

قلت: يقول: لا تتجاوز نيَّة همّتك إلى غير مولاك بطلب ذلك الغير، ولا الطلب منه، بل اجعله مكان همّتك اكتفاءً به واقتصاراً على ما عنده، اقتداء بنبيّ اللّه يوسف عليه السلام حيث قال عند خروجه من السجن: «حسبي من دنياكم ديني، وحسبي من ديني ربي»، وبخليل اللّه إبراهيم عليه السلام أنه قال وهو في المنجنيق[(١)]: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»[(٢)].

حتى لقد قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، قال: بمقتضى قوله: «حسبي اللّه».

ثم ذكر المؤلف علّة من يقتصر بهمته على المولى جلّت قدرته فقال:

فالكريم لا تتخطاه الآمال.

قلت: يقول: فالكريم ذاتاً ووصفاً وفعلاً لا تتخطاه آمال المؤمّلين إلى غيره بطلب ذلك الغير ولا بالطلب منه؛ لأن جماله يُغني عن اختيار غيره، وإحسانه يصرف الوجه له دون غيره، لا سيما ولا غير إلّا به وله، فالرجوع إليه أولى بكل حال لمن يعقل، فقد جاء في بعض الآثار، يقول اللّه تعالى: «عبدي اجعلني مكان همِّك أكفِك كلّ همك، ما كنت بي فأنت في محل القرب، وما كنت بك فأنت في محل البعد، فاختر لنفسك» أو كما قال.

ثم ذكر رفع الحوائج لغيره، وأنه لا يصح فقال:

لا ترفعن إلى غيره حاجة وهو موردها عليك.

قلت: يقول إنه هو الذي أورد عليك الاحتياج، وقد عرفت أنه غني قدير قوي ومن سواه لا غنى له ولا قوة ولا قدرة، وإذ كان الأمر كذلك فرفعها للعاجز الفقير الضعيف لا يصحُّ قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ

(١) القذّاف التي ترمى بها الحجارة. انظر لسان العرب (١٠/ ٣٣٨).
(٢) أورده القرطبي في تفسيره (١١/ ٣٠٣).

﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨].

قال بعض العارفين المكاشفين رضي اللّه عنهم: «قيل لي في يقظة كالنوم أو نوم كاليقظة: لا تبدينَّ فاقة إلى غيري فأضاعفها عليك مكافأة بسوء أدبك وخروجك عن حَدِّك في عبوديتك، إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع منها إليّ، وتتفرّغ بها لديَّ، وتتوكل فيها عليَّ، سبكتك بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً فلا تُزيَّف بعد السبك، وسَمْتُك بالفاقة وحكمت لنفسي بالغنى فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى وإنْ وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتي، وحسمت أسبابك من أسبابي طرداً لك عن بابي، فمن وكلته إليّ مَلَك. ومن وكلته إليك هلك»اهـ.

وهو كلام عظيم النفع والموقع لمن تأمله. وباللّه التوفيق.

ثم تعجَّب المؤلف من رفع غيره ما وضعه فقال:

فكيف يرفع غيره ما كان له واضعاً.

قلت: ذلك ما لا يصحُّ بوجه ولا بحال، لاتصافه تعالى بالعزّ، والغنى، والاقتدار، واتصاف الغير بالعجز والذل والافتقار، وهو ما بيّنه إذ قال:

من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً.

قلت: من كان عاجزاً عن الرفع والنفع في حوائجه فهو عن غيره أعجز، ليت الكلّ يوجه نفسه لذلك. قال بعضهم: «استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون».

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي، رضي اللّه عنه: «يئست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع غيري لها، ورجوت اللّه لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي؟

وسئل رضي اللّه عنه، عن «الكيمياء» فقال:

«اقطع طمعك من اللّه أن يعطيك غير ما قسم لك، ومن الخلق أن ينفعوك أو يضرّوك»اهـ.

ثم الاكتفاء باللّه، وأعلى أسبابه: النظر لكمال وصفه، والجميل لا يفعل إلا جميلاً، وأدْناه أن تنظر إلى إحسانه السابق فتسرّ به لإفضاله اللاحق، وقد أتى بهذا المؤلف كما ذكرنا فقال:

إن لم تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه حسن ظنك به لوجود معاملته معك.

قلت: حسن الظن به تعالى لأجل وصفه: أن تنظر لكماله في جلاله وكماله،

فتعلم أنه جميل والجميل لا يفعل إلا جميلاً، فتقطع الآمال عن سوى فضله لما تحققته من كمال وصفه. وحُسْنُ الظن به لمعاملته معك: هو أن تنظر إلى إحسانه السابق وإفضاله اللاحق فتجدك مغموساً في منَّته، مغموراً في إكرامه ورحمته، فيحملك ذلك على حسن الظن به فيما تؤمله منه، وقطع النظر عن: هل يكون أو لا يكون، وتستعين على ذلك بما شاهدته من فعله الجميل، كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

فهل عوّدك إلا حسناً وهل أسدى إليك إلّا مناً.

قلت: يقول تأمل تجد ما منّه إليك إنما هو إحسان من أفضاله، وعطاء من امتنانه أوجدك من العدم، وأمدّك بالنعم وخصّك بالكرم، وجعلك مؤمناً من غير سالفةٍ ولا قِدم، إنما هو جوده وكرمه.

وقد قال أبو حبيب البدوي ـ رحمه اللّه ـ: «لم نر خيراً قطُّ إلا من ربنا فما لنا نكره لقاء مَن لم نر خيراً قط إلّا منه»؟!

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه اللّه: إنّا لا نحبُّ إلا اللّه.

فقال له رجل: قد أبى ذلك جدّك يا سيدي بقوله: جُبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها.

فقال: إنّا لم نر محسناً إلا اللّه ولم نحب سواه.

وقال عليه السلام: «أحبّوا اللّه لما يغدو بكم من نعمه، وأحبوني بحبّ اللّه. . .»[1] الحديث.

والناس ثلاثة أقسام:

قسم حسّن ظنه باللّه تعالى لأجل وصفه، وهو أعلى من الذي بعده.

وقسم أحبَّ اللّه وحسّن الظن به لأجل إحسانه، وهو دون الذي قبله.

وقسم أحبَّ مولاه وحسَّن الظن به لهما. وهو أتمُّ حالاً منهما.

وعليه يدور كلام رابعة العدوية[2] حيث قالت:

أحبّك حُبّين: حبَّ الهوى ... وحبّاً لأنك أهل لذاكا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣١١). والمزي في تهذيب الكمال (١٥/ ٦٤).

(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، ولدت في البصرة، لها أخبار كثيرة من العبادة والنسك، ولها شعر، توفيت في القدس سنة (١٣٥هـ). انظر الأعلام (٣/ ١٠) ووفيات الأعيان (١/ ١٨٢).

فـأَمـا الـذي هـو حـبُّ الـهـوى فـشـغـلـي بـذكـرك عـمـن سـواكـا
وأمـا الـذي أنـت أهـل لـه فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فـلا حـمـد فـي ذا ولا ذاك لـي ولـكـن لـك الـحـمـد فـي ذا وذاكـا

ثم العبد مفتقر إلى مولاه في كل أحواله، فلا بدَّ له منه، ولا غنى له عنه، وفراقه للخلائق لازم، ومع ذا يركن إليهم دون مولاه؟! وهذا عجيب من الأمر كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ويطلب ما لا بقاء له معه.

قلت: ما لا انفكاك له عنه، هو: مولاه، وما كان المرجع إليه بخبر الصادق من الآخرة وما فيها.

وما لا بقاء له معه: هم الخلائق، والدنيا التي إن لم يفارقها بالحياة فارقها بالممات. وإنما عجب منه لثلاث:

تركه المهم مع اشتغاله بالباطل.

وإعراضه عن مولاه بما لا حقيقة له.

وعدوله بما لا يغنيه بدلاً بما لا غنى له عنه.

ثم ذلك إنما هو من عمى البصيرة؛ إذ وضع الشيء في غير محله، وأتى به على غير وجهه: فقدم ما شأنه التأخير وأخّر ما حقّه التقديم. وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

قلت: وقع بهذه الآية هنا ليشعر بأن ما ذكره من عمى البصيرة أنه هو العمى الحقيقي، فالتقدير، فإنها لا تعمى الأبصار عما يعود على صاحبها بالضرر، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، أو فإنها لا تعمى الأبصار على الحقيقة وإنما عماها من القلوب التي في الصدور، أو فإنها لا تعمى الأبصار عن درك الحقائق؛ إذ ليست محل إدراكها، ولكن العمى عمى القلب عن ذلك، لأنه محل إدراكه:

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «عمى البصيرة في ثلاثة أشياء:

إرسال الجوارح في معاصي اللّه، والطمعُ في خلق اللّه، والتصنّع بطاعة اللّه، فمن ادّعى البصيرة مع واحدة من هذه فقلبه هدف لظنون النفس ووساوس الشيطان»اهـ.

ثم ذكر التوجه للمخلوقات بمثال تقبيح في وجه من التحقيق فقال:

لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه.

يقول: لا تنتقل عن نفسك لمِثْلها لا في طلب ذلك المثل ولا في الطلب منه؛ فإن فعلت كنت كحمار الطاحونة في سير دائم وتعب متصل من حيث خرج إلى ثمَّ عاد، لا هو استراح ولا قطع المسافة، وهو يرى أنه في عمل يعود عليه بالنفع، وما هو إلا كما قيل:

فما هو مقتول ففي الموت راحة ولا هو ممنون عليه فيُعتق

من فقير خرج، وإلى فقير توجّه، قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . . .﴾ [الشعراء: ٧٢]: «استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون»اهـ.

ثمّ قال:

ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّن.

قلت: بأن لا تريد سواه، ولا تعرف في الدنيا والآخرة إلَّا إيَّاه، فلا تطلب إلَّا هو ولا تطلب إلَّا منه.

فقد قال ابن السمَّاك[1] رحمه اللَّه: «كتب إليّ أخ لي أن لا تكون لغير اللَّه عبداً ما وجدت من العبودية له بداً».

قال أبو الحسن الشاذلي رضي اللَّه عنه: «قف بباب واحد لا لتفتح لك الأبواب تفتح لك الأبواب، واخضع لمالك واحد لا لتخضع لك الرقاب تخضع لك الرقاب»، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، وهذا معنى ما أشار إليه بالآية إذ قال:

وإن إلى ربك المنتهى.

قلت: يعني منتهى كل شيء بَدْءاً وعَوْداً؛ لأنه المبدئ المعيد الفعّال لما يريد، فالذي ترجوه من الخلق لا يتيسر إلّا بتيسير الحق، فدع كُلاً جانباً واتخذ مولاك صاحباً، رجوعاً لقوله عليه السلام: «أنت الصاحب في السفر والخليفة في

(١) عثمان بن أحمد بن عبداللَّه بن يزيد البغدادي الدقاق ابن السماك أبو عمرو، مسند العراق إمام محدث، ثقة، أخذ عنه الدارقطني توفي سنة (٣٤٤هـ). انظر سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٤٤) رقم (٢٥٥).

الأهل»[١]، ولقوله عليه السلام: «إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية»[٢].

ويرحم اللَّه القائل في معنى ذلك:

أيحسن أنِّي في داركم ونزيلكم أُوَجّهُ يوماً للعباد رجائي؟

لبيك اللهم وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك والرغبة والعمل منك وإليك...

ثم وقع المؤلف بالحديث فيما هو بصدده فقال:

وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله فهجرته إلى اللَّه ورسوله»[٣].

قلت: يعني، واعمل على ذلك بأن تهاجر إلى اللَّه ورسوله، فلا تتوجّه إلى غيره؛ إذ هو اللَّه ورسوله، إذ هو عبداللَّه ورسوله، ومن كان في اللَّه تَلَفه كان على اللَّه خَلَفُه، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللَّه ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على اللَّه، حسب فقير ذليل حقير يقع أجره على غني عزيز كبير.

ويرحم اللَّه سيدي إبراهيم الداراني حيث قال:

كمالُ اللَّه أكبر من كمالي فللّه الكمال ولا مُمَارِ
وحبُّ اللَّه أفضل كل شيء فلا تنس التخلّق بالوقار
وذكر اللَّه مرهم كل جرح وأَروى من زلال للأُوار
ولا موجود إلا اللَّه حقاً فدع عنك التَّعَلُّقَ بالفشار

ثم ذكر المؤلف تمام الحديث فقال:

ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه[٤].

قلت: قيل ذكَر المرأة لأنها بين مراتب الدنيا والدين، وقيل لأنها أعظم فتن

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٦/ ٤١٢) رقم (٢٦٩٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٠٩) رقم (٢٤٨٣)، ومسلم في الصحيح (٢/ ٩٧٨) رقم (١٣٤٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ٤٦٠) رقم (٧٩٣٨).

(٢) أخرجه أبو عبداللَّه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٤٤) رقم (١٤٩٥)، والطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٨) رقم (٦٦٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٣٠) رقم (٥٤)، ومسلم في الصحيح (٣/ ١٥١٥) رقم (١٩٠٧).

(٤) جزء من الحديث السابق انظر تخريجه.

الدنيا، وقيل لأنها المهم في الوقت، لأن الحديث وقع على سبب، وقيل ذكرها لينبِّه على المتصلات وغيرها المنفصلات. ثم اكتفى بالإشارة عن إعادة ما ذكر من الدنيا والمرأة ولم يفعل ذلك في ذكر اللّه ورسوله. ولهذا أشار المؤلف بطلب الفهم والتفهم إذ قال:

فافهم قوله ﷺ: «فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

قلت: يعني مع قوله فهجرته إلى اللّه ورسوله كيف كرر في الأول ولم يكرر في الثاني؟ تجد لذلك وجوهاً منها: أنه كرر ذكر اللّه ورسوله اعتناءً بهما، وأهمل ذكر الدنيا والمرأة احتقاراً لهما، ومنها أنه كرر الأول تحقيقاً للثبوت والعظمة وترك الأخير تنبيهاً للنفي وعدم الجدوى، فإذا فهمت ذلك حق الفهم خرج منه «لا عبرة بشيء سوى اللّه ورسوله وهو الحق المبين والصراط المستقيم» ثم قال:

وتدبر هذا الأمر إن كنت ذا فهم والسلام.

قلت: الإشارة بهذا الأمر لما يقتضي الحق والحقيقة من نفي السِّوى والرجوع إلى المولى.

وإنما خصّ هذا الموضع بالسلام؛ لأن المسألة قد أخذت به حقها أمراً، ونهياً، وخبراً، وبرهاناً، ودليلاً شرعياً، ومثلاً مضروباً، وأصلاً، وفرعاً وقرآناً وسنة، واعتباراً... إلى غير ذلك، واللّه أعلم.

تنبيه:

وكما يتعيَّن أن لا تنظر إلّا إلى اللّه في جميع أحوالك يتعين أن لا تصحب إلا من شأنه ذلك، مِن شأنه لا مَن هو على العكس، وهذا ما افتتح به:

---

(١) جزء من الحديث السابق انظر تخريجه.

الباب الخامس

إذ قال:

وقال رضي اللَّه عنه:

لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على اللَّه مقاله.

قلت: الذي لا ينهضك حاله ولا يدلُّك على اللَّه مقاله هو الذي لم ينازل الحقائق، ولا رفع همته عن الخلائق، بل هو الراضي عن نفسه، المترفع على أبناء جنسه، الذي يعتد بعلومه وأعماله، ويحمد نفسه في إدباره وإقباله وإن كثرت أعماله وعلومه واتسعت أنظاره وفهومه.

والذي ينهض حاله ويدل على اللَّه مقاله: هو الذي رفع همته عن الخلائق، وامتلأ قلبه بمشاهدة الحقائق، فإذا نظرت إليه وجدته مشغولاً باللَّه، وإذا تكلَّم فإنما يدلك على اللَّه.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي، رضي اللَّه عنه: «لا تصحب من يؤثر نفسه عليك، فإنه لئيم، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قَلَّ ما يدوم، وأصحب من إذا ذكر ذكر اللَّه، فاللَّهُ يُغْنِي به إذا شهد وينوب عنه إذا فُقِد، ذِكره نور القلوب ومشاهدته مفاتيح الغيوب».

وقال أيضاً رضي اللَّه عنه: «أوصاني خليلي فقال: لا تنقل قدميك إلَّا حيث ترجو ثواب اللَّه ولا تجلس إلَّا حيث تأمن غالباً من معصية اللَّه، ولا تصحب إلَّا من تستعين به على طاعة اللَّه، ولا تصطفي لنفسك إلَّا من تزداد به يقيناً، وقليل ما هم».

ويروى أن اللَّه تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «يابن عمران كن يقظان، وارتد لنفسك إخواناً، وكلُّ أخ وصديق لا يؤازرك على مسرَّتي فهو لك عدو ويقسّي قلبك ويباعدك مني»[1] اهـ.

ومن آفات صحبة من لا ينهض حاله، ولا يدل على اللَّه مقاله رؤية المرءِ نفسه بعين الكمال، كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٢٢).

وربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك لمن هو أسوأ حالاً منك.

قلت: يقول لك إنك إذا صحبت من هو أسوأ حالاً منك ربما رأيت بذلك الإحسانَ من نفسك لما جبلت عليه النفوس من استشعار فضيلتها عند مشاهدة من هو دونها. والمعتبر في هذا كله الهمة والحال، لا العلوم والأعمال.

قال سيدي أبو عبداللّه بن عباد رضي اللّه عنه، في ترجيز هذا الموضع في أرجوزته ما نصُّه:

إن التواخي فضله لا ينكر ... وإن خَلا من شرطه لا يُشكر
والشرط فيه أن تؤاخي العارفا ... عن الحظوظ واللحوظ الصارفا
مقاله وحاله سيَّان ... ما يدعو إلَّا إلى الرحمن
أنواره دائمة السراية ... فيك وقد حفت بك الرعاية
وقاصد الفاقد هذا الشرطا ... بصحبةٍ يعقدها قد أخطا
لكونه يرى بها محاسنَه ... فنفسه ذات اغترار آمنة

وقال الشيخ أبو الحسن، رضي اللّه عنه: «سألت أستاذي عن قوله عليه السلام: (يَسِّروا ولا تعسروا، وبشِّروا ولا تنفروا)[1]. قال: «يعني دلوهم على اللّه، ولا تدلوهم على غيره، فإن من دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلَّك على العمل فقد أتعبك ومن دلَّك على اللّه فقد نصحك»»اهـ.

ثم من علامة الحالة المنهضة إنما هو الغنى باللّه، والثقة به، وعلامة ذلك إنما هو الزهد في الدنيا، لا كثرة الأعمال والعلوم ونحوها، فلذلك قال:

ما قل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب.

قلت: يقول: العمل القليل من الزاهد ليس بقليل: لفراغ قلبه وسلامة وقته وحضوره في عبادته، والعمل الكثير من غير الزاهد ليس بكثير لمزاحمته بالأضداد؛ لأن حقيقة الزهد برودة الدنيا على القلب، وذلك من أصل الثقة باللّه؛ فقد جاء في الخبر (ليس الزهد بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال، إنما الزهد أن تكون بما في يد اللّه أوثق منك بما في يدك)[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٣٨) رقم (٦٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ٤٤٩) رقم (٥٨٩٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٣) رقم (١٠٩٥١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢/ ١٣٧٣) رقم (٤١٠٠) واللفظ عنده «ليس الزهادة في الدنيا...».

وقال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: «ركعتان من عالم زاهد خيرٌ وأحب إلى اللَّه تعالى من عبادة المتعبِّدين الراغبين أبداً سرمداً».

وقال الشيخ أبو الحسن رضي اللَّه عنه: «رأيت الصِّديق في المنام فقال: أتدري ما علامة خروج الدنيا من القلب؟

قلت: لا، قال: بذلها عند الوجود، ووجود الراحة منها عند الفقد»اهـ. ثم برهن على ما ذكر بأن قال:

حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقيق في مقامات الإنزال.

قلت: حُسن الأعمال: جمالها وكمالها، وكذلك حسن الأحوال.

والأعمال عبارة عن الحركات الجسمانية، والأحوال عبارة عن الحركات القلبية، ومقامات الإنزال عبارة عما نازل القلب من المعارف ونحوها، فمن كانت معرفته أتمَّ كان حاله أحكم، ومن كان حاله أحكم كان عمله أكمل.

وهي ثلاث مراتب، بعضها على بعض يدور دوراناً، كما يقول الإمام أبو حامد[1] رحمه اللَّه: لا بد لكل مقام من علم وعمل وحال، فالمقام يثمر علماً، والعلم يثمر عملاً، والعمل يثمر حالاً؛ لأن حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب، وحركات القلوب جارية بحركات الأجسام.

قال في «التنوير»: (وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على وِرده وإنما يدلُّ على فهمه ونوره غناه بربِّه، ورجوعه إليه بقلبه، وتحرره من رقِّ الطمع، وتحلّيه بحلية الورَع، فبذلك تحسن الأعمال، وتزكو الأحوال، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن اللَّه؛ والفهم هو ما ذكرناه من الاكتفاء باللَّه والغنى به، والاعتماد عليه، ورفع الحوائج إليه، والدوام بين يديه، فكل ذلك ثمرة الفهم عن اللَّه)اهـ.

وهو نتيجة الزهد والحالة المنهضة. واللَّه أعلم.

---

(١) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، أبو حامد الطوسي المشهور بالغزالي، ولد بطوس سنة (٤٥٠هـ). فقيه أصولي فيلسوف متكلم، أخذ عن الجويني والإسماعيلي أبي نصر، انتدبه نظام الملك للتدريس، ثم ارتحل إلى الحجاز ثم دمشق ثم نيسابور وأخذ عنه خلق كثير، له مؤلفات عدّة في جل الفنون، توفي سنة (٥٠٥هـ). انظر شذرات الذهب (٤/ ١٠) وسير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢) رقم (٢٠٤).

ثم مدار الأعمال على الذكر، وحُسنه بالحضور فيه، لكن ربما وُجد وربما فُقد، ثم إذا فقد فلا ينبغي أن يترك الذكر لفقده، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

لا تترك الذكر لعدم حضورك مع اللّه فيه.

قلت: يعني: بل اذكره في حال الحضور وفي حال الغفلة، باذلاً مجهودك في الأمر حسبما أمر اللّه تعالى به إذ قال تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [**البقرة**: ٢٠٠]، ومن المعلوم أنه لا يتقيد بحضور ولا غيبة.

وقال عليه الصلاة والسلام للذي استوصاه: «لا يزال لسانك رطباً بذكر اللّه»[(١)]، فلم يدلّه إلّا على ذكر اللسان؛ وذلك لأنه مقدور العبد ابتداء ودواماً، بخلاف الحضور، فإنما مقدوره فيه السبب الذي هو الفكر والدوام عند الحضور بقدر الاستطاعة. واللّه أعلم.

ثم قال:

فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره.

قلت: وذلك لثلاثة أوجه:

أحدها: أن في وجود ذكره إقبالاً بوجهٍ ما، والغفلة عنه إعراض بالكلية.

الثاني: أن في ذكره تزيين جارحة بالعبادة، والغفلة عنه تفويت لذلك.

الثالث: في وجود ذكره تعرّض لنفحات رحمته أن يرفعك مما هو أدنى لما هو أعلى، وفي الغفلة عن ذكره إهمال لذلك.

ولا يشك عاقل في أن الإقبال، ولو ضعيفاً، خير من الإدبار بالكلية.

قيل لبعضهم: ما لنا نذكر اللّه باللسان والقلبُ غافل!!

فقال: أشكروا اللّه على ما وفّق من ذكر اللسان، ولو أجرى مكانه الغَيبة عنه ماذا كنتم تصنعون؟ ثم قال: واللّه أكرم أن يحضر العبد بلسانه ثم لا يمنُّ عليه بحضور قلبه، وأنشد:

لو علمنا أن الزيارة حق ... لفرشنا الطريق بالمرجان

ثم أشار المؤلف لما ذكرنا من التعرّض لنفحات رحمة اللّه وكرمه فقال:

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٣/ ٩٦) رقم (٨١٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٢) رقم (١٨٢٢)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٢٤٦) رقم (٣٧٩٣)، والترمذي في الجامع الصحيح (٥/ ٤٥٨) رقم (٣٣٧٥).

فعساه أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة. ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور. ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور.

قلت: ولو لم تكن لك مقدمة ذكر: ما كنت ترتجي هذا الترقي، فتعرضك لنفحات رحمته بما في مقدورك هو الذي يرجِّيك بالترقي لغاية ما تعلقتَ به، وعنه قال عليه الصلاة والسلام: «إن للَّه في أيام دهركم نفحات فتعرَّضوا لنفحات رحمة اللَّه»(١).

وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فجعل جزاء ذكرك إيّاه وجود ذكره لك. ومن ذَكر مولاه، وفقه وهداه، ورحمه وآواه، وتولاه وأكرم مثواه.

وكذلك قال اللَّه: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]، أي: يقبل عليكم بإحسانه وإكرامه ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

وقد قيل: «إن الذكر منشور الولاية، فمن أُعطي الذكر فقد أُعطي المنشور»اهـ.

وعلى مقتضى ما ذكره المؤلف: أن كلاً نتيجةُ ما قبله ومقدمة ما بعده. واليقظة هنا: الانتباه لمدلول الذكر ومقتضاه بالتفات القلب لذلك، واستشعاره إياه بعد عدم شعوره به.

والحضور هنا أيضاً: أن يرتسم معنى الذكر في الفؤاد ارتساماً لا يصح انفكاكه عنه ولا ينسى ذكر اللَّه عند أمره ونهيه. وهو أفضل من ذكر اللسان كما قال عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه.

والغيبة عما سوى المذكور: انتصاب القلب له بحيث لا يصح له في فهم: وجودٌ سوى وجوده تعالى بوجه لا ينفك لا في ذكره ولا في غيره وهو موقف الغناء واللَّه أعلم.

فمن غفل عنه ذكر غيره، ومن انتبه له أنس به المرَّة بعد المرَّة، ومن حضر معه خضع له، ومن نسي ما سواه فني به، ومن فني به غاب عن كل شيء سواه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١١) رقم (٣٤٥٩٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٥٠) رقم (٧٢٠)، وأبو عبداللَّه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٠٧) رقم (٧٠١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢١) وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٣٥).
واللفظ عندهم (التمسوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة اللَّه).

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور، أي عن كل شيء سواه، لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل: ٨]. ولكل من المواقف الثلاثة أصل ومادة، وحقيقة وعلامة، وتأويل وتفصيل وتنزيل، ومداره على ثلاث: معرفة الحق، وإجلاله، والعبودية له.

ومراتب ذلك غير متناهية، وباللّه التوفيق.

ثم نبّه المؤلف على أن نقل العبد من أدنى المراتب إلى أعلاها سهل يسير على اللّه تعالى فقال:

وما ذلك على اللّه بعزيز.

قلت: يقول: ليس بممتنع في قدرته، ولا ببعيد عن كرمه، وإنما على العبد الأسباب وعلى اللّه فتح الباب، وإنما ذلك لإثبات الحكمة وظهور العبودية بالتعبد، وإلا فالربُّ يفعل ما يشاء بخلقه ما عُبد إلا بفضله ولا ذُكر إلا برحمته، ولا توجّه إليه إلا بمنّته، فهو الذي أمد العبد بتوفيقه ثم هداه الطريقة، ثم فتح له باب العزم، ثم أعانه على العمل حكمة منه وتصريفاً للأقدار تصرف اقتدار، فسبحان الكريم المتعال.

تنبيه:

الذكر حياة القلب، والغفلة موته. وغايتها تنتهي لاستحسان القبيح، ومبدأ ذلك نسيان قبحه، كما نبّه عليه المؤلف في أول:

الباب السادس

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه: من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من الزلّات.

قلت: الموت: فقد الحياة، وعلاماتها ثلاث هي ضد علامات الحياة، وعلامات الحياة: **الأولى**: الإحساس بما يَرِد من مؤلم أو ملائم حسيّاً كان أو معنوياً. **الثانية**: التأثر بالعوارض القادحة في القيام الباعث على طلب القوام. **الثالثة**: ذوق الأشياء على ما هي عليه، أو على خلافه، حتى تدرك فيها حرارة أو برودة أو مرارة أو حلاوة أو غير ذلك.

فالقلب الحيّ هو الذي يتألم بالمعاصي ويتلذذ بالطاعة، ويطلب هذه، ويفرُّ من هذه، لِما أحسَّ به من ألم أو ملاءمة، ووجده من مرارة وحلاوة، فيحزن لما فاته من الموافقات على حسب همَّته، ويندم على ما فعله من وجود الزلّات، كذلك والميت لا يُحسُّ بشيء من ذلك فلا يقع له حزن ولا ندم، ولذلك قال رسول اللّه ﷺ: «من سرّته حسنتُه وساءته سيئته فهو مؤمن»[(١)].

وقال ابن مسعود رضي اللّه عنه: «المؤمن يرى نفسه من ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا فأطاره»[(٢)]اهـ.

وحقيقة الحزن: انقباض السرّ لما سلف من مخالفة الأمر.

والندم: التلهُّف على ما وقع فيتمنى أنه لم يكن وقع.

ثم هذا الحزن والندم قد ينتهي بصاحبه لليأس والقنوط، وهما قبيحان؛ فلذلك نبّه عليه بأن قال:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٩) رقم (٣٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٣٨٨) رقم (٩٢٢٥)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٤٦٥) رقم (٢١٦٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦١) رقم (٣٠٣٣٧) وأبو يعلى في المسند (١/ ١٣١) رقم (١٤١).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٥/ ٢٣٢٤) رقم (٥٩٤٩)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٦٥٨) رقم (٢٤٩٧)، وأبو يعلى في المسند (٩/ ٣٧) رقم (٥١٠٠)، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٣) رقم (٣٦٢٧).

لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدّك عن حسن الظن باللَّه.

قلت: لما كان الحزن والندم منشأَهما عظمة الذنب وموقعه من القلب وذلك قد يفرّط فينتهي لحدّ اليأس والقنوط، وقد لا يفرط فيوجب الانزعاج دون القنوط واليأس، وأن اليأس والقنوط من الإعراض عن حسن الظن باللَّه وهو من كبائر القلوب، ففي الخبر أنه عليه السلام قال: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن باللَّه، وحسن الظن بعباد اللَّه، وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: سوء الظن باللَّه وسوء الظن بعباد اللَّه»[1].

ويقال: خمسة في الذنب أعظم من الذنب: «تعظيم الذنب أعظم من الذنب، واحتقار الذنب أعظم من الذنب، والإصرار على الذنب أعظم من الذنب، والمجاهرة بالذنب أعظم من الذنب، والجرأة على الذنب أعظم من الذنب».

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللَّه عنه: (قرأت ليلة قل أعوذ بربِّ الناس فقيل لي: شرّ الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك فيذكرك أفعالَه السيئة ويُنسيك أفعاله الحسنة، ويكثِّر عندك ذات الشمال، ويقلل عندك ذات اليمين ليعدل بك عن حسن الظن باللَّه إلى سوء الظن باللَّه، فاحذر هذا البابَ؛ فقد أخذ منه خلق كثير من العبّاد والزهّاد وأهل الطاعة والسداد) انتهى وهو عجيب.

ثم في قوله: عظمة تصدّك... إلخ تنبيه على أن التي لا تصدّ غير منتهية، بل هي مطلوبة؛ لأن بها يقع الحزن والندم المطلوبين، سواء أكان عن خوف أو استشعار فوت مقصد من عبوديّة أو محبة أو نعيم، أو كمال، أو غير ذلك. ثم ذكر معنى يقتضي علة النهي، فقال:

فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه.

قلت: ومن عرف ربه أعظم، لأجل حق إجلاله، ذنبه، فكان معتدلاً بين هذه وهذه بلا ميل، وإلّا فقد نقص له من المعرفة على قدر ميله من الجانب الذي مال عنه إلى الجانب الذي مال إليه.

ثم إنْ أدّاه ذكرُ الكرم للاغترار فالهوى غالب عليه، أو ذكر مقابله للقنوط فظلمة النفس حاكمة لديه.

ففي الحديث الصحيح: (إن العبد إذا أذنب الذنب فقال: يا رب اغفر لي، قال اللَّه تعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم

---

(١) قال عنه الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٦٣): لا أصل له، وانظر تخريج أحاديث الأحياء (٤/ ٤٧٨).

بأني قد غفرت له. . .)[١] الحديث، فعلمه أنه يغفر الذنب من مشاهدة كرمه وجماله، وعلمه أنه يؤاخذ به من مشاهدة جلاله، ولولا اجتماعهما له في موضع واحد ما اندفع باستغفاره. فافهم». وقد نبَّه المؤلف على ذلك بأن قال:

لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله.

قلت: فانظر لعدله وفضله، لا لذنوبك وعيوبك، سواء كانت صغائر أو كبائر، وبحسب هذا فلا ميل؛ إذ لا علم لنا بما يواجه، ولا بما يقابل. وقد قال يحيى بن معاذ[٢] رضي اللّه عنه: «إنْ أنالَهم فضله لم تبق لهم سيئة، وإن أقام عليهم عدله لم تبق لهم حسنة». وفيما أوحى اللّه إلى بعض أنبيائه: (قل لعبادي الصدّيقين لا يغترّوا، فإني إن أقم عليهم عدلي وقسطي أعذّبهم غير ظالم لهم، وقل لعبادي المذنبين لا يقنطوا، فإني لا يتعاظمني ذنب أغفره لهم. وقال تعالى في كتابه الكريم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال عزّ وجل: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، فجعل دعوة الرسل وخطابهم بها على حدّ سواء، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، أي أنه أهل لأن يُتقى، وأهل لأن يغفر، وكل ذلك على حدّ السواء في حقّه. فذهب الميل والترجيح، وبقي الوقوف على حدّ سواء). واللّه أعلم.

وللناس في حدّ حقيقة الصغيرة والكبيرة اختلاف كثير، ومرجعه أن الكبيرة ما عظم أمره عند اللّه، والصغيرة ما خفّ أمره عند اللّه، والعدل ما للمالك أن يفعله من غير منازع، وكل تصرّفٍ للّه كذلك؛ إذ الكل منه وإليه، والفضل: المواجهة بالإحسان لا لعلّة ولا لسبب، وباللّه التوفيق.

وكما وجب أن ينظر في الذنوب للعدل والفضل فكذلك في الأعمال؛ لأنها من نسبتها في ذلك، وذلك يفضي إلى عدم الاعتداد بها، وهذا ما ذكره المؤلف بأن قال:

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٢/ ٣٩٢) رقم (٦٢٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠) رقم (٧٦٠٨)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢١١٢) رقم (٢٧٥٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ١١١) رقم (١٠٢٥٢)، وأبو يعلى في المسند (١١/ ٤٠٩) رقم (٦٥٣٤).

(٢) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا، واعظ زاهد، أقام ببلخ، توفي بنيسابور سنة (٢٥٨هـ). انظر الأعلام (٨/ ١٧٢)، وطبقات الصوفية ص(١٠٧) رقم (١٤).

لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده.

قلت: تقدير الكلام: لا عمل أرجى للقلوب قبوله وحصول النفع به في إفادة ما يترتب عليه من تنوير وتعريف وكمال وثواب وغير ذلك من عملٍ يغيب عنك شهوده بشهود مدبِّره، حتى لا ترى لنفسك نسبةً فيه، بل لا تدري له وجوداً في ذاته، ويُحتقر عندك وجوده، لما هو عليه من نقص وعيب ظاهر أو خفيّ منه.

فحاصله أن يرى نفسه مقَصِّراً فيه، ويراه مع تقصيره منّة من اللّه عليه؛ إذ لا يليق به من حيث ذاته، ومن هو حتى وُفّق له يوماً ما وإلّا لكان ممن هم مُطّرحون في الخسائس، بل في أرذل الكفر والنفاق، نسأل اللّه العافية.

وقد يكوم كلام المؤلف على التفكيك، والواو في «ويُحتقر» للتنويع، فالمقصود يغيبُ عنك أو تحتقر عندك.

وبحسب هذا، فالناس ثلاث:

غائب عن شهود عمله، ومحتقر له، وجامع بينهما.

والأخير أكمل، والأول دونه، والأوسط دونهما.

وقد أشار المؤلف لترجيح الأول على الثاني بأن قال:

إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً.

قلت: الوارد هنا: ما ينزل بالقلب فيزعجُه عن معتاده ويرفعه عن مراده من موارد الحق ومعارفه. ومقصوده إرجاع العبد لمولاه، وانقطاعه لما به تولّاه، فيكون العبد به، أي: بالوارد وارداً على مولاه، أي: بمولاه وارداً على مولاه. وعلى الوجهين فهو يقتضي عدم نظره إلى كسبه في الإقبال والإدبار، فإن تمَّ له ذلك بأن غاب عن شهود عمله بشهود مولاه فذاك، وإلّا فنظره لتقصيره، وورود بوادر الحق على نفسه وليس هناك إذ قيل لا يخلو شهود التقصير من وجود الشرك في التقدير.

وقال الواسطي رضي اللّه عنه لأصحاب أبي جعفر: بِم يأمركم شيخكم؟

قالوا: يأمرنا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير فيها.

فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلّا أمركم بالغيبة عنها بشهود مُجْريها ومنشيها؟

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي اللّه عنه: «إنما أراد بهذا صيانتهم عن

الإعجاب، لا تعريجاً في ميدان التقصير، أو تجويزاً للإخلال بأَدب من آداب الشريعة»اهـ.

فإذن فائدة الوارد ثلاثة:

الورود على المولى بلا علّة، والخروج من عبودية والأكوان في الجملة، والخروج من سجن النفس بلا توقف.

قد مضى الأول من كلام المؤلف، وذكر الثاني بأَن قال:

أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رقّ الآثار.

قلت: معنى يتسلمك: يأخذك مما تسلمك منه على وجه لا يبقى له تعلّق فيك، وهي هنا «الأغيار» أي: المخلوقات بحيث لا يبقى لك إليها استناد، ولا عليها اعتماد، ولا منها استمداد، ولا فيها شهود ولا أشهاد، بل تكون لمولاك وحدَه بلا علَّة منك ولا تشوّف لغيره، وذلك عين التحرر من رقّ العبودية لها؛ إذ تصير تابعة لا متبوعة، ومحكومة لا حاكمة، وبذلك تقع الراحة الأبدية.

كما قال النصرآباذي[1] رضي اللّه عنه: «سجْنُك نفسك؛ إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد» انتهى.

وذلك لأنه يصير الحال للرضا وعدم التقييد بالأغراض، بل كما قيل:

أصبحت لا أملاً أبغي ولا أمنية أرجو، ولا نائبة أخشى، ولا موعدة أترقب».

ثم ذكر المؤلف الوجه الثالث من فوائد الوارد إذ قال:

أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك.

قلت: وذلك أنك مسجون بمحيطاتك، ومحصور في هيكل ذاتك ما لم تفتح لك ميادين الغيوب، ومتى طلع عليك نور الوارد لاح لك من حقائق الوجود ما تعرف به الدنيا والآخرة وغيرهما.

وهذا ما أشار إليه التستري حيث يقول: (عند نور إلهامي لاح الحقّ لي، ودنوتُ من قرب مذ (عَرَفْتَ بي)).

ثم نبّه على ما ذكرناه من أن جملة الأمر في الوارد أنه حاملٌ إلى الحق فلا يصح التوجه به لغيره، فقال:

---

(١) إبراهيم بن محمد بن محمويه، أبو القاسم النصرآباذي، ولد ونشأ في نيسابور، صحب أبا بكر الشبلي، أقام بالحرم مجاوراً، توفي سنة (٣٦٧هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٤٨٤) رقم (١٤).

الأنوار مطايا القلوب والأسرار.

قلت: الأنوار، هي: الظلال الواقعة في الصدور من المعاني التي أتت بها الواردات، وهي مطايا القلوب بإيضاح الفهم إلى حضرة علّام الغيوب.

ومطايا الأسرار ببيان العلم إلى حضرة الملك الجبَّار، فمن طلع النور في قلبه سار على مطيّة فهمه. ومن طلع في أفق سرّه سار بمطية علمه، ومن لم يجعل اللّه له نوراً فما له من نور.

وإذا كانت الأنوار مطايا الحق فلا تَحملْ عليها شيئاً من الباطل.

ومن الباطل: رؤية النفس في نقصها وكمالها. فافهم.

ثم ذكر أن الأنوار مقوية للقلوب مضعفة للنفوس فقال:

النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس.

قلت: وذلك لأن النور يحصل به ثلاث: الكشف، والعلم، والتحقيق.

والظلمة يحصل بها ثلاث: الجهل، والتلف، والتخبيط.

وإذا كانت هذه غَلَب الهوى وذهب الحق، وإذا كانت الأولى ذهب الهوى وثبت الحق.

ولكلّ مقويات وموارد أشار إليها المؤلف بأن قال:

فإذا أراد اللّه أن ينصر عبده أيّده بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار.

قلت: يقول إذا أراد نَصْر عبده على نفسه وهواه مدّه بالجنود التي هي الأنوار؛ فيحصل له العلم والتحقيق والإلهام الذي هو الكشف، فيباشر قلبه بما يعلمه من خير أو شر حتى يقبل على الحق ويدبر عمَّا سواه إقباله على الخبز عند الحاجة، وإدباره عن الحيَّة عند المعاينة، ولا يتم ذلك إلّا بحسم موارد الظلم، وهي ثلاثة:

هوى يخالطه علم بتأويل، ووهم يعينه ضعف اليقين، وشهوة غالبة لا يملك معها أمراً.

ولا تنقطع هذه الأمور إلا بإثبات أضدادها: يقين لا يداخله شك، وعلم لا يخالطه هوى، وإلهام لا يفسده وهم.

وقد تقدّم من كلام الشيخ أبي الحسن رضي اللّه عنه: «إذا أكرم اللّه عبداً في حركاته وسكناته نَصَب له العبودية للّه نصب عينيه». فانظره.

ثم ذكر ترتيب إمداد القلب وتوارد جنوده. وعيّنها بأن قال:

النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإدبار والإقبال.

قلت: إذا كان النور تاماً كشف الشيء على ما هو عليه، وإذا كانت البصيرة مستقيمةً حكمت به على وجهه، فأقبل القلب في محل الإقبال وأدبر في محل الإدبار. وإذا كان النور مفقوداً أو ناقصاً، والبصيرة غير مستقيمة أقْبَل القلب في محل الإدبار وأدبر في محل الإقبال، فكان شبه حال الأعمى تارة يخطئ وتارة يصيب. وإن أصاب فعلى غير أصل ولا حقيقة.

فإذن نور القلب هو الأصل وما بعده تبع له، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فجعل الهداية فرع الشرح، والشرح فرع النور، فافهم.

ثم من مظاهر ما ذكر وجود الفرح بالطاعة وغيرها، فمن كان فرحه بها من حيث إنها منّة من اللَّه عليه فنوره تام، وبصيرته مستقيمة إذْ أقبل قلبه في محل الإقبال ومن فرح بها من حيث نفسه فعلى العكس، فهذا ما نبّه عليه إذ قال:

لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من اللَّه إليك.

قلت: الطاعة من الفوائد المحبوبة النافعة دنياً وديناً، والفرح بها أمر ضروري لمن حصَّلها، ثم هو على ثلاثة أوجه:

فرح بها من حيث ما يُرجى من ثوابها أو يُخشى من عقاب فوتها.

وفرح بها من حيث وجودها وظهورها على يده لتزكيه بها.

وفرح بها من حيث إن الحق ذكره بالتوفيق لها ومنَّ عليه بوجود تحصيلها مع تحصيل العبودية وامتثال الأمر بها. وهذا الوجه أحسن من الأول، والأول خير من الذي بعده؛ لأن هذا يزيده شكراً وافتقاراً، والذي قبله يزيده عُجباً وافتخاراً، فالأول فيه رائحة الاعتماد على العمل وهو من أصول العِلل.

ثم نزع المؤلف بالآية للدلالة فقال:

قل بفضل اللَّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون.

قلت: يقول: لا يكن فرحكم إلا بفضل اللَّه؛ لأنه تفضَّل عليكم وذكّركم بمنّته فيما به تولاكم، لا بما تجمعون من الفوائد الحاصلة بمنّته من حيث هي، لأن الفرح بها مجردةً عينُ الغفلة عنه، والفرح بمنّته من إجلاله، وقد قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، والشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته؛ فافهم.

ثم ذكر تفصيل ما تقدم له من قوله: «لا عمل أرجى للقبول» فقال:

قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم.

قلت: وإنما قطعهم عن ذلك، لوجوه:

أحدها: ليكونوا له بلا علَّة كما كان لهم ولا علَّة.

الثاني: ليسلموا من آفة الإعجاب ورؤية النفس في جميع الأحوال.

الثالث: ليتم لهم الإنعام بالشكر والافتقار. فافهم.

ثم ذكر ما وقع به انقطاع كل من الفريقين، فقال:

أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع اللّه فيها.

قلت: وإذا لم يتحققوا ذلك فيها فهم متحققون لوجودها، من حيث ما اشتملت عليه من النقائض والدعاوى؛ وبذلك يزيد افتقارهم لمولاهم واضطرارهم له.

وقد قال الجنيد رضي اللّه عنه: (لا يصفو لأحدٍ قدمٌ في العبودية حتى تكون الأفعال كلُّها عنده رياء وأحواله كلها عنده دعاوى).

وقال النهرجوري[1] رضي اللّه عنه: (مِن علامة مَن تولاه اللّه في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهداته، وقلَّة المبالاة في فقره؛ فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية، ويزداد فقره إلى اللّه تعالى في قصده وسيره حتى يفنى عن كل ما دونه) انتهى. ثم قال المؤلف:

وأما الواصلون فلأنهم غيبهم بشهوده عنها.

قلت: فهم لا يرون أنفسهم عمالاً لها، ولا مستحقين للثواب بها، وإنما هي رسم عبودية جرى بتوجه المنَّة، بل جرى بإجراء الحق سبحانه بلا علّة، حتى لقد قال بعضهم: (لا تنظر إلى عملك وإن صحَّ، وانظر لمن وفَّقك إليه).

ومدارهم في ذلك على قول نبي اللّه شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فذكَر الإنابة والتوكل للاستسلام، كما ذكر إرادة الإصلاح للعبودية، وذكر

---

(١) إسحاق بن محمد النهرجوري، أبو يعقوب، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي، أقام بالحرم سنين كثيرة مجاوراً، توفي سنة (٣٣٠هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٣٧٨) رقم (٨).

التوفيق بالتبرِّي من الحول والقوة، وقد تقدَّم من كلام بعض المشايخ رضي اللَّه عنه: (صحِّح عملك بالإخلاص، وصحِّح إخلاصك بالتبرّي من الحول والقوة)اهـ. واللَّه المسؤول أن يمنَّ به علينا بمنِّه.

تنبيه:

من انقطع عن أحواله وأعماله فلينقطع عن حياته وآماله، متوجهاً للحقائق، وتاركاً للطمع في الخلائق، وهذا ما توجه إليه في:

الباب السابع

وهو افتتاح الربع الثاني من الكتاب إذ قال:

وقال رضي اللَّه عنه: ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع.

قلت: بسقت: طالت. ومنه ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠]. والبذر: ما يُسْتَنْبت منه الشيء، والمقصود: من ثبت طمعه طال ذله، فاستعار البذر للطمع، لأنه أصل الذل، والذل غصنه لأنه فرعه وطول ذلك باتصاله واتساعه فالمعنى من طمع ذلَّ على قدر طمعه، فرحم اللَّه القائل:

تـرك الـمـطـامـع لـلـفـتـى شَـرَفٌ لـه ... حـتـى إذا طـمـع الـفـتـى ذلَّ الـشـرف

وذلك لأن الطمع مقرون بثلاث:

التملُّق للمطموع فيه.

واستشعار الخيبة عند الطلب، أو سلطنة المعطِي عند المساعدة.

وبذل ماء الوجه عند المواجهة. هذا مع ما ينضاف لذلك من أصله وفرعه.

فقد قال أبو بكر الوراق[١] رحمه اللَّه: لو قيل للطمع من أبوك؟

لقال: الشك في المقدور.

ولو قيل له: ما حرفتك؟

لقال: اكتساب الذلِّ.

ولو قيل: ما غايتك؟

لقال: الحرمان.

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللَّه عنه: «الطمع ثلاثة أحرف كلّها مجوَّفة، فصاحبه بطن كله فلا يشبع أبداً»اهـ.

وهي أيضاً حروف يابسة خاوية، فالمتعلِّق بها كذلك!!

ثم ذكر المؤلف أصل الطمع: هو غالب الوهم، فقال:

---

(١) محمد بن عمر الحكيم أبو بكر الوراق، أصله من ترمذ وأقام ببلخ، له مؤلفات في المعاملات والآداب. انظر طبقات الصوفية ص(٢٢١) رقم (١٣).

ما قادك شيء مثل الوهم.

قلت: الوهم هنا: التَخيُّل والحسبان، ولا شك أن غالب النفوس في قياده، فإذا تخيلوا شيئاً أو ظنوه عملوا عليه فحصل لهم منه الطمع وغيرُه، فيوقعهم في الذل والحرمان والتعب ظاهراً وباطناً. وقد قيل: (لولا الأطماع الكاذبة ما استعبد الأحرار بكل شيء لا خطر له)اهـ.

فإذن إنما يدعو إلى الطمع توهُّم النفع من المطموع فيه، وبذلك تحصل العبودية له؛ فمن غلب الوهم عليه نسي ما ينتهي إليه الطمع من النقص والدناءة، ومن ضعف لديه الوهم ذكر ذلك فانتفى عنه الطمع، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

أنت حرٌ مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع.

قلت: لأن ما أنت له طامع آخذ بقلبك فأَنت له بكلّك.

وما أنت عنه آيس أنت عنه معرض بقلبك، فليس له شيء من وجودك.

وقد قال: (بنان الحمَّال)[1] رضي اللّه عنه:

العبد حرٌ ما قنع والحر عبد ما طمع

وقيل: «إن العُقاب يطير في مصاف عزِّه بحيث لا يرتقي طرف إلى مطاره، ولا تسمو الهمة إلى الوصول إليه، فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه، فيصيده صبيٌّ يلعب به».

قال في «التنوير»: (وتَفَقَّدْ وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد سواه وتطهَّر من الطمع في الخلق، فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم).

ثم ذكر حكاية عليٍّ كرم اللّه وجهه، وقول الحسن[2] له: (فساد الدِّين الطمع، وصلاح الدين الورع).

---

(١) بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الحمال، أبو الحسن واسطي الأصل سكن مصر، صحب الجنيد، توفي في رمضان سنة (٣١٦هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٢٩١) رقم (٩) وتاريخ بغداد (٧/ ١٠٠).

(٢) الحسن بن يسار البصري أبو سعيد، إمام أهل البصرة، المجمع على جلالته في كل فن، من سادات التابعين وفضلائهم، ولد في المدينة وشبّ في كنف علي بن أبي طالب، وكان له مع الحجاج مواقف، توفي سنة (١١٠هـ)، انظر شذرات الذهب لابن العماد (١/ ١٣٦) والأعلام (٢/ ٢٢٦).

قال: وسمعت شيخنا: يعني أبا العباس المرسي رضي اللَّه عنه: كنت في إبتدائي في ثغر الإسكندرية جئت إلى بعض من يعرفني فاشتريت منه حاجة بنصف درهم، فقلت في نفسي: لعلّه لا يأخذه مني. فهتف بي هاتف: السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين، . . . ثم بعد كلام قال: فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذلّ لهم، فقد سبقت قسمتُه وجودَك، وتقدَّم ثبوتُه ظهورَك، واسمع ما قاله بعض المشايخ: (أيها المريد ما قُدّر لماضغيك أن يمضغاه فلا بد أن يمضغاه، فكله ويحك بعزٍّ، ولا تأكله بِذلٍ) انتهى.

وقد ذكر ابن عبَّاد، رحمه اللَّه، جملة من النقل يحتاج إليها، فلتُنْظر وباللَّه التوفيق.

ثم ذكر المؤلف حكمة اللَّه تعالى في عدم إسعاف الطامع فقال:

من لم يقبل على اللَّه بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان.

قلت: يقول من لم يفرد وجهه لمولاه اعتباراً لإحسانه السابق واللاحق الذي لاطفه به حتى لا يطمع في غيره ولا يرجو سواه سلط عليه البلايا والمحن حتى يقوده إليه به كرهاً إذ لم يرجع إليه طوعاً.

قال الشيخ أبو مدين[1]، رضي اللَّه عنه: «سنّته تعالى استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة، ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون، لأن مراده، عز وجل، رجوع العباد إليه طوعاً أو كرهاً»اهـ.

وشواهد هذه في القرآن كثيرة. وأصله سلب النعم لفقدان الشكر كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها.

شكر النعمة ضامن لثلاثة أشياء:

حفظها عن الزوال، وتغيير الحال بالانتقال، وزيادتها في الحال وبركتها في المآل، واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال.

وعدم الشكر ضامنٌ للسلب، وتشويشِ القلب، ومقت الربّ.

---

(١) شعيب بن حسين الأندلسي أبو مدين، من أهل المغرب، جال وساح في عدّة مناطق من جاية ثم تلمسان، منقطع القرين في العبادة والنسك، توفي بتلمسان ما يقارب سنة (٥٩٠هـ). انظر سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٢٠) رقم (١٠٩).

وقد قال الحكماء: (الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود).

وقالوا أيضاً: (من لم يشكر النعم سلبها من حيث لا يعلم).

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، أي إذا غيّروا ما بهم من الطاعة، وهي شكر النعم، غيّر اللّه تعالى ما بهم، أي: ما منَّ عليهم من الإحسان والكرم، وأنشدوا في ذلك:

إذا كنت في نعمة فارعَها ... فإن المعاصي تُزيل النعم

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصُه ... توقّع زوالاً إذا قيل «تمَّ»

وقد قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: «النعم وَحْشية قيّدوها بالشكر»[1].

والشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر، وتنكفّ عن الزواجر، وقد عبّر الناس عنه تارة بأَصله، وتارة بفرعه، وتارة بمادته.

ثم زوال النعمة قد يكون ظاهراً جليّاً، وهو «السلب».

وقد يكون باطناً خفياً وهو «الاستدراج» وهو الذي يُتّقى أكثر لغموضه؛ فلذلك قال المؤلف:

خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجاً لك.

قلت: خوف الاستدراج في النعمة يبعث على التشمير لشكرها والرجوع إلى اللّه فيها وبها، واستشعارُ ذلك بذكر أفعالك السيئة مع جري إحسانه؛ إذ الاستدراج: كمون المحنة في عين المنّة بغير خوف الفتنة، وهو مأْخوذ من درج الصبيّ أي: أخذ يمشي شيئاً بعد شيء وهو لا يشعر، ومنه «الدرج» الذي يرتقى عليه، أو يوجد به العلوّ. كذلك «المستدرَج» هو الذي تؤخذ منه النعمة شيئاً بعد شيء وهو لا يشعر؛ قال اللّه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

قلت: يقول نأخذهم بالنعم وهم لا يشعرون.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤٠).

وقد قال سهل بن عبداللّه، رضي اللّه عنه، في معنى الآية: «نمدّهم بالنعم وننسيهم الشُّكر عليها حتى إذا ركنوا للنعمة وحُجبوا عن المنعم أُخذوا».

وقيل: «كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية» انتهى. وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ومن قوله عزّ وجل: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. ومن قوله عز وجل: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، إلى غير ذلك من وجوه الاستدراج فتح باب التأويل في مواقف، وذلك ما ذكره المؤلف إذ قال:

من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد أو وجب الإبعاد.

قلت: هذا لا يتصور مع جريان ما له من اللّه من علوم وأحوال وغير ذلك بحيث تخفى عليه المحنة بجريان المنَّة وفي الآداب الخفية لا الجليَّة؛ لأن مثل هذا التأويل لا يجري فيمن بان غيّه وظهر نقصُه، وهذا غاية الاستدراج.

فوجب على المريد التحفظ في مواقف الأدب بالاحتياط أبداً وترك التأويل رأساً، وذلك بأن يجعل الأوْلى نصب عينه، فلا يقتصر على الواجب إلا إذا لم يجد مساغاً للأوْلى، ويقدّم الحقيقة على الأسباب في موضع الإباحة، لا في موقف الطلب الشرعي؛ فيتحفظ على ظاهره بالشريعة وعلى باطنه بالحقيقة، ويفرّ من مواقف النقص بينه وبين مولاه: من رعونة كامنة، أو غفلة ظاهرة، أو دَعوى شيء وإن قلّ.

والآداب كلُّها منحصرة في خمسة:

أولها: حفظ الحرمة مع اللّه، ومع من له نسبة من جانب اللّه؛ من نبي أو وليّ أو عالم أو غيرهم، حتى عوامّ المسلمين على مراتبهم.

الثاني: علوُّ الهمَّة في أمر الدين والدنيا، حتى لا يكون له تعلُّق بشيء من النقائص لا ظاهراً ولا باطناً، وما جرى عليه من ذلك بادره بالتوبة.

الثالث: حُسن الخدمة بلزوم الاتباع وترك الابتداع، والتَّبري من الحول والقوة في كل أمر.

الرابع: نفوذُ العزيمة بحيث لا يسمح للنفس في كل عزيمة، ولا يتراخى في محل تشمير، ولا يركن لموضع تقصير.

الخامس: شُكر النعمة، وأصله: شهود المنَّة، وهو مبنيّ على خالص التوحيد وخالص الإيمان.

ولكلٍ من هذه مُعارض وقادح هو سوءُ الأدب في حق فاعله، وله عقوبة من نوعه على قدر صاحبه، فمن الناس مَن عقوبتُه بالعذاب ومن الناس من يعاقَب بصرفه عن مواقف الأحباب.

وقال أبو حفص الحدَّاد[١]، رضي اللَّه عنه: «التصوُّف كله أدب، لكل وقت أدبٌ، ولكل حالٍ أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيَّع الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول».

وقال بعضهم: «إلزم الأدب ظاهراً وباطناً؛ فما أساء أحدٌ الأدب في الظاهر إلَّا عوقب ظاهراً، وما أساء أحدٌ الأدب باطناً إلا عوقب باطناً».

وقال ذو النون المصري[٢]: «إذا خرج المريد عن حدِّ الأدب فإنه يرجع من حيث جاء»، وسئل الدقاق، رحمه اللَّه تعالى: «بم يقوِّم الرجلُ اعوجاجه؟

قال: بالتأدُّب بإمام، فمن لم يتأدَّب بإمام بقي بطّالاً».

وقال أبو العباس بن عطاء اللَّه[٣] رحمه اللَّه: «النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجرُّه بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردُّها بجهاده عن سوء المطالبة؛ فمن أطلق عَنانها فهو شريكها في فسادها»اهـ.

وجهل المريد في الوجه الذي ذكره المؤلف بثلاثة:

اغترارُه بظاهر ما يجري عليه من أمداده بزعمه وحسن ظنِّه بنفسه في حاله، ونصرة نفسه في غلطها بفتح باب التأويل، وذلك من الرضا عنها والسكون إليها، ونسيانُ خوف المكر في عموم أحواله؛ إذ لا يتوقف أمر اللَّه فيه على علمه. كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

---

(١) عمر بن مسلمة الحداد، أبو حفص، ولد بقرية من قرى نيسابور وهو أول من أظهر التصوف هناك، توفي سنة (٢٦٦هـ).

(٢) ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفياض، مصري، زاهد اتهم بالزندقة فبرّئ منها، توفي سنة (٢٤٥هـ). انظر تاريخ بغداد (٨/ ٣٩٣) والأعلام (٢/ ١٠٢).

(٣) أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي، أبو العباس، صحب إبراهيم المارستاني والجنيد، من علماء ومشايخ الصوفية، توفي سنة (٣٠٩هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٢٦٥) رقم (٢)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٥٧).

فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر.

قلت: ذلك بأحد وجوه ثلاثة:

صَرفه عن التحقق بما علم إلى الاتساع في علمه ومعارفه، وإبقائه في حاله مع عدم الشعور بنقصه؛ حتى لا تسمو همته لغير ما هو فيه، فيكون حجاباً له عما هو أعلى؛ بل يكون موكولاً لحاله في وقته، وبتيسير مراداته من غير تأييد فيها بما يقع به الزيادة في حاله فيشتغل بمراده عن مولاه، ويرى ذلك سعادة في أمر دينه ودنياه، وإنما هو صرفٌ له عن بابه وطَرْد عن مواقف أحبابه، كما قيل:

ومن صدَّ عنا حسبُه البيْن والقِلا ومن فاتنا يكفيه أنَّا نفوته

وقد نبَّه المؤلف على ما قلناه بما ذكره حيث قال:

ولو لم يكن إلا منع المزيد.

قلت: وبذلك يتحقق الاستدراج، حتى يرى الشرَّ في موضع الخير، وبالعكس، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فعليك باللّجإ إلى اللَّه في كل حال، والحذر من نفسك بكل حال، والإعراض عن الانتظار بما تَتعلَّق به الأغراض. والسلام. قال:

ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد.

قلت: يعني يصرفك عن بابه بمرادك، ويطردك عن جنابه بتواتر إمدادك؛ فترى أنك في محلِّ القرب وأنت في محل البعد، وهذا من غاية المكر والاستدراج والعياذ باللَّه، وإليه أشار الجنيد رضي اللَّه عنه حيث قال: «ألطف ما يُخادَع به الأولياء وجودُ الكرامات والمعونات»اهـ.

ووجوه الابتلاء في المقام مع ما تريد ثلاثة:

أحدها: الأنس به والانقطاع إليه، وذلك بُعْدٌ عن مراتب الاختصاص.

الثاني: الاشتغال عن العبودية بسببه فرحاً وترحاً، وإن كنت ترى أنه موجب شكر وشهود منَّة، ففيه من الإقبال والإدبار علّة.

الثالث: الاغترار بظاهر الأفعال عن باطن الأحكام، وهو أصل كبير في الإبعاد والطرد، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل، رضي اللَّه عنه، يُوصي بعض أصحابه:

«خَفْ سطوة العدل، وارج رأفة الفضل، ولا تأمن مكره ولو أدخلك الجنة، ففي الجنَّة وقع لأبيك آدم ما وقع، وقد يقطع بأقوام فيها فيقال لهم: كلوا واشربوا

هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية»، فقطعهم بالأكل والشرب عنه، وأيُّ مكر فوق هذا، وأيُّ خسران أعظم منه»[1] انتهى.

وهو أول كلام حفظته في هذه الطريقة.

[وقوله (ولو أدخلك الجنة) أتى به للمبالغة، واستشهد بواقع آدم عليه السلام للتحقيق في ذلك، وإلَّا فالجنة دار السلام، وآدم على التبرئة من كلِّ نقص وعيب، وموقف الخوف والرجاء هذه الدار. فافهم].

ثم إنَّ من أصول الآداب التي يقع بتركها الطرد والانقلاب حفظ حرمة المسلمين، خصوصاً أهل دائرة الحق، من: العباد والزهاد وأهل الطاعة والسداد، ومفتاحُ إسقاط حرمتهم احتقارُ ما منحهم مولاهم وعدم الاعتبار بما مَنَّ به عليهم وأولاهم، فلذلك قال:

إذا رأيت عبداً أقامه بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الإمداد فلا تستحقرن ما منحه مولاه لأنك لم تر عليه سيماء العارفين ولا بهجة المحبين.

قلت: معنى أقامه: استعمله مع الدوام وحصول الفوائد، والأوراد ما ترتب من العبادات في الأوقات. والإمداد هنا: حصول المنافع والفوائد، وطولها بكثرتها واتصالها. ومنحه: أعطاه عن تفضُّل وإكرام.

ولا شك أن من اتصلت أوراده وتواترت أوراده مخصوصٌ من مولاه بعناية، وملحوظٌ برحمة ورعاية، فيجب تعظيمه واحترامه، ويتعين توقيره وإكرامه، ولا يُتحقَّر ما هو عليه لكونه قاصراً عن درجة أهل الكمال من العارفين والمحبين؛ إذ لم تُر عليه سيماء الأوَّلين، من: الاستسلام والرضاء والسكون عند جريان القضاء، ومن حال أهل المحبَّة وبهجتهم التي مقتضاها، شغفهم بمولاهم، وإعراضهم عن الوجود إذْ تولَّاهم، فإنَّ قصورهم عن ذلك لا يخرجهم عن دائرةِ أهل الاختصاص حتى يحتقروا ويُحتقر ما هم عليه، فقد قال أبو الحسن الشاذلي رضي اللَّه عنه: «لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبَّق ما بين السماء والأرض فما ظنك بالمؤمن المطيع».

وقال أيضاً رضي اللَّه عنه: «أكرِم المؤمنين وإن كانوا عصاةً مذنبين، وأَقم عليهم الحدود واْهجرهم رحمة بهم، لا تقزُّزاً لهم، ولا تقتد بمن يتورّع عما نالته أيدي المؤمنين، ولا يتورع عما نالته أيدي المشركين فقد عُلم ما نال الحجر من أيدي المشركين؛ فاسودّ لذلك»اهـ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٢٢) ونسبه إلى أبي حمزة.

(وأشار بآخره لما روي أنّ الحجر الأسود إنما تدلى إلى الأرض ياقوتة بيضاء وإنما سوّدته أيدي المشركين)[1].

والمقصود أن من ظهر بالنسبة لجناب اللّه تعالى تاماً كان أو ناقصاً، صادقاً كان أو كاذباً تبيَّن تعظيمُه واحترامه، ووجب توقيره وإكرامه على قدر حاله من غير احتقار ولا إهمالٍ، ولا اقتداءٍ، إلَّا بمن صح عمله وورعُه، ونفوذ بصيرته؛ فإن الجناب عظيم، والانتسابُ إليه لا يكون إلا بعناية منه؛ إذ لا يقدر أحد على هداية نفسه، وهذا ما نبّه عليه إذ قال:

فلولا وارد ما كان ورد.

قلت: يقول فلولا وارد من الحق يقتضي تعظيم جنابه ما كان ورد يقتضي الوقوف ببابه؛ إذ ما كان ظاهر ذكر إلَّا عن باطن شهود وفكر؛ بل لولا وارد ما كان انتساب، إنما ينتسب العبد للجناب، بعد تحققه بعظمته على قدر حاله، واعتبر هذا بقول الصحابة رضي اللّه عنهم حين كانوا يرتجزون في الخندق:

واللَّـهِ لـولا اللَّـهُ مـا اهـتـديـنـا ولا تـصـدَّقـنـا ولا صـلَّـيـنـا

وإنما هما اثنان: أهل هداية أو عناية، وكلاهما في منَّة الحق وكرامته كما قال:

قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصّهم بمحبته.

قلت: فالذين أقامهم لخدمته ثلاث:

العباد، والزُّهاد، وأهل الطاعة والسداد.

فالعباد: من يعمل بتحقيق العمل لقصد تحصيل الأمل.

والزاهد: الفار من وجود الخلائق في الظاهر لينفرد همُّه لمولاه على الأوراد بالغدوِّ والآصال.

والذين اختصّهم بمحبته ثلاث:

المحبُّون، والعارفون، والواصلون.

فالمحبُّ من آثره على كل شيءٍ.

والعارف: من شهده في كل شيءٍ.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في الصحيح (٤/ ٢٢٠) رقم (٢٧٣٤)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ١٢٥) رقم (١٧٧٣)، وأحمد في المسند (١/ ٣٠٧) رقم (٢٧٩٦) والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٤٥٣) رقم (١٢٢٨٥).

والواصل: من يَغنى به عن كل شيءٍ.

وهم أهل الاجتباء والاختصاص، كما أن الذين من قبلهم أهل الهداية والإنابة. قال اللَّه تعالى: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فالكلُّ في دائرة الحق مستمدون من إحسانه وفضله، كما أشار إليه المؤلف بالآية إذ قال:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

قلت: أشار بالآية إلى أن الكل من عطائه تعالى؛ فيعطي من يشاء ما يشاء بلا حَجْر، ويمنع من يشاء ما يشاء بلا علَّة، فالكلُّ منه وإليه.

وإذا كان الأمر كذلك فلْتُراع نسبة إحسانه، وظهور فضله وامتنانه فيمن ظهر عليه شيء من شواهد الإحسان، بحيث لا ينقص من حقه شيء وإن كان بعضهم فوق بعض في ذلك.

ثم موقع الآية إنما هو فيمن أراد الآخرة أو الدنيا. لكن آخرها مشير للتفاضل في درجات الآخرة. وعليه يجري التوقيع المذكور هنا إذ قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] فافهم الآية، وتدبَّرها حقَّ التدبُّر تُصب ما أشرنا إليه، وما هو إلا كما قال:

ارحم بنيَّ جميعَ الخلق كلهمُ وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة
وقِّر كبيرهم وارحم صغيرهم وراع في كل خَلق حقَّ من خلقه

ومعنى محظوراً: ممنوعاً. والمقصود: ليس عطاء اللَّه بمحجور حتى يُقصر على من ظهر عليه، بل وربما يفتح منه على من بعُد عنه فضلاً عمن له نسبة فيه، واللَّه أعلم.

تنبيه:

وأصل هذا الأمر كله ورودُ الواردات، وهي منح إلَهيّة لا تتوقف على علة، ولا سبب، ولا زمان، ولا عين، ولا أمد، ولا وقت ولا غيره كما نبَّه عليه المؤلف في افتتاح:

الباب الثامن

إذ قال: وقال رضي اللّه عنه: «قلّما تكون الواردات الإلٰهية إلا بغتة».

قلت: يقول قليلاً ما تكون الواردات التي هي التنزيلات العرفانية على القلوب الموجب لتأثيرها بورودها من حيث قوتها وسطوتها ومعناها إلّا بغتة، أي: فجأة دون رويَّة، ولا استعداد، ولا توقيت، وقد ترِد على استعداد وهو أقلُّ من القليل، بل يكاد يكون معدوماً، نعم قد يُعرف ورودها بمقاماتها ومودتها في بعض الأوقات.

وقد سئل الشيخ أبو محمد عبدالقادر الجيلاني[1]، رضي اللّه عنه، عن صفة الواردات الإلٰهية والطوارق الشيطانية، فقال: «الوارد الإلٰهي لا يأتي باستدعاءٍ، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد، ولا في وقت واحد.

والطارق الشيطانيُّ بخلاف ذلك غالباً» انتهى.

ثم ذكر المؤلف وجهاً من وجوه الحكمة في إتيان الوارد على ما ذكر فقال:

صيانة لها عن أن يدعيها العباد بوجود الاستعداد.

قلت: وإنما صانها عن ذلك لثلاثة أوجه:

أحدها: لأنها من بساط عزيز، وما كان من عزيز لا ينبغي أن يكون إلا عزيزاً.

الثاني: لئلا تكون مبتذلة فيبطل سرُّ الاختصاص، وهو الذي جاء من أجله.

الثالث: لتعظيم المنَّة وتحقيق الشكر على المواجه بها على قدرها؛ فقد قيل: «إذا عمَّت النعم صُغِّرت وكُفرت، وإذا خصَّت عُظِّمت وشُكرت» فتأَمل ذلك وباللّه التوفيق.

وسيأتي من كلام المؤلف «ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تُبتذل بوجود الإظهار، أو ينادى عليها بلسان الاشتهار» فانظره في محله، فإن له تعلقاً بما هنا. واللّه أعلم.

---

(١) عبدالقادر بن أبي صالح عبداللّه بن جنكي دوست الجيلي محيي الدين شيخ بغداد ولد سنة (٤٧١هـ) في جيلان، إمام الحنابلة، قدم بغداد شاباً، أخذ عنه ابن قدامة موفق الدين، له كرامات، توفي سنة (٥٦١هـ). انظر سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩) رقم (٢٨٦).

وإذا كانت حكمة اللّه في الوارد ما ذكر فحقُّ العبد أن يجري على حكم ذلك فيما ألقي إليه اعتبار بحكمة اللّه فيما ألقى إليه. وإن خالف ذلك فهو جاهل كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

من رأيته مجيباً عن كل ما سئل وذاكراً كل ما علم، ومعبراً عن كل ما شهد فاستدل بذلك على وجود جهله.

قلت: وجهله من وجوه ثلاثة:

أحدها: عدم اعتبار المراتب في أنفسها، فليس كلّ سائل يستحق الجواب، ولا كل عِلم يُذكر لكل أحد، ولا كلُّ مشهود يعبّر عنه لكل شاهد؛ فقد سُئل بعضهم عن مسألة فلم يُجب عنها، فقال له السائل:

أما علمتَ أنَّ من كتَم علماً نافعاً أُلجم يوم القيامة بلجام من نار؟! فقال العالم: ضع اللجام واذهب، فإن جاء من يستحقه وكتمتُه عنه فليلجمني.

وقال عليّ كرّم اللّه وجهه: «حدّثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب اللّه ورسوله»[1].

وقال الإمام أبو حامد الغزالي: «وقد يتضرر بالحقائق أقوام كما يتضرر الجُعل بالورد والمسك».

وقيل للجنيد، رحمه اللّه: يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا؟! فقال: الجواب على قدر السائل، لا على قدر المسائل.

وقال بعض الحكماء: «زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل كلما ازداد رِيّاً ازداد مرارة»اهـ.

الثاني: تعذر الإحاطة في الجواب بالعلم، وإضاعة العلم ببذله في غير محله وقصور العبارة عن مدارك الشهود حتى ربما أدَّت العبارة خلاف المقصود ومِن ثمَّ كُفِّر جماعة من المحققين وبُدِّعوا وفُسِّقوا، ولا كَفروا ولا فَسقوا، ولا ابتدعوا. وفي الخبر «إنّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلَّا العلماء باللّه فإذا ذكروه أنكره أهل الغرَّة باللّه، وأنشدوا في ذلك:

يـا رُبَّ جـوهـر عـلـم لـو أبـوح بـه ... لـقـيـل لـي أنـت مـمـن يَـعـبـد الـوَثـنـا
ولاسـتـبـاح رجـالٌ مـسـلـمـون دمـي ... يـرَوْن أقـبـحَ مـا يـأتـونـه حـسـنـا

الثالث: أن المحالّ والأوقات مختلفة، فربّ مسألة يليق ذكرُها في وقت دون

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٥٩) رقم (١٢٧)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٨/ ٢٦٥).

وقت، وربّ علم خُوطب به في محلّ دون آخر، وربّ مشهود صحَّ ذكرُه في زمان دون زمان، ولناسٍ دون آخرين، فالجهل إذن لاختلاف النِسب والوجوه.

وقد اختلف المشايخ في: هل لا يبذل علم إلَّا لأهله؟ وهو قول الثوري، أو يُبذل لأهله ولغير أهله، والعلم أحمى جانباً عن أن يصل إلى غير أهله، وهو مذهب الجنيد؛ إذ قيل: «كم تنادي على اللَّه بين يدي العامة؟ قال: لكنِّي أنادي على العامة بين يدي اللَّه».

وقيل للثوري: ألا تُذكِّر أَصحابك؟

فقال: إنهم في حجاب القطيعة» أو كما قال.

والصواب التفصيل؛ فما كان من الوعظ والتذكير فللخاصة والعامة، وما كان للبيان والتقرير فللخاصِّ من المحبين، فمن بَعدهم.

وما كان من الأحوال والمنازلات فللمريدين والسالكين. فلكل مقامٍ مقالٌ ولكل عمل رجال، وباللَّه التوفيق.

ثم الحامل على التعبير وما معه إنما هو حبُّ الاستظهار، وهو من الميل للدنيا، والميل للدنيا من الجهل بالآخرة، وطلب الدنيا بالآخرة جهل، إذ يقتضي عدم تعظيمها، وذلك من الغفلة عن عظمة ما أعدّ اللَّه فيها كمَّاً وكيْفاً. وهذا أشار إليه المؤلف إذ قال:

إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين؛ لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم، لأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها.

قلت: ذكر هنا حكمتين في تأخير جزاء المؤمنين للدار الآخرة:

إحداهما: اتساع عطائه وذلك في الصفة والمقدار، ودليله قوله عليه السلام، يقول اللَّه تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[(١)]، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ومعناها في كلّ وجه وفي كلّ معنى وفي كل نوع وفي كلّ جزء.

وكونه حاصلاً ببقائه لا يزول ولا يحول؛ لأن الآتي قطعاً كالموجود في الحال. وما كان مآله إلى الزوال فكأنه قد زال. وقد جاء في الخبر: «لو كانت

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١١٨٥) رقم (٣٠٧٢)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢١٧٤) رقم (٢٨٢٤).

الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لاختار العاقل الذي يبقى على الذي يفنى» فيرحم اللَّه القائل:

فما الدنيا وزخرُفها بشيء ولا أيامها إلَّا عَوار
وليس بعاقل من يصطفيها أتشري الفوز، ويلك، بالتبار؟!

ثم للجزاء مقدِّمة وهي وجدان الثمرة، وذلك دليل القبول، والجزاء على قدر القبول، وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول

قلت: ثمرة العمل: ما ينشأ عنه من الفوائد الدينية والدنيوية، وذلك يدور على ثلاثة:

حصول البشارة بزوال الخوف والحزن لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، والحياة الطيبة بالرضا والقناعة لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وظهور سرِّ الخلافة بتسخير الكائنات وانفعالها ظاهراً وباطناً قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا . . .﴾ [النور: ٥٥] الآية.

وفي الحديث الصحيح قول ذلك الصحابي: فمنّا من أينعت له ثمرتُه فهو يهديها، ومنّا من مات لم يستوف من أجره شيئاً[(١)]، منهم مصعب بن عمير[(٢)] رضي اللَّه عنهم أجمعين.

ومن طيب الحياة حلاوةُ الطاعة، فمن ثمَّ يصح كونها ثمرة، لا من حيث ذاتها، فتدبّر ذلك، وباللَّه التوفيق.

وإنما كانت الثمرة دليل القبول، لأن الكريم إذا أعطى ظاهراً كمّل باطناً، وإذا وعَدَ أمراً قوَّى اليقين فيه بمبشراته، ولذلك أشار المصنف إذ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٤٢٩) رقم (١٢١٧)، ومسلم في الصحيح (٢/ ٦٤٩) رقم (٩٤٠).

(٢) مصعب بن عمير بن هاشم القرشي العبدري، أبو عبداللَّه، كان أنعم غلام بمكة من السابقين إلى الإسلام، أسلم ورسول اللَّه ﷺ في دار الأرقم، هاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة ثم هاجر إلى المدينة بعد العقبة الأولى سفيراً أول، شهد بدراً واستشهد يوم أحد، وكان عمره أربعين سنة لم يعقب إلا من ابنته زينب. انظر أسد الغابة (٤/ ٤٠٥) ترجمة (٤٩٢٩).

إن أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر في ماذا يقيمك.

قلت: لأن المنازل على قدر مراتب النازل، فإن وجّهك للدنيا فقد أهانك، وإن أشغلك بالخلق عنه فقد صرفك، وإن وجّهك للعمل فقد أعَانك، وإن فتح لك باب العلم فقد أرادك..

وإن فتح لك باباً إلى مناجاته فقد قرّبك.

وإن واجهك بالبلاءِ فقد هداك.

وإن صرفك عن الأغراض فقد أدّبك.

وإن رضيتَ به ورضيتَ عنه فقد فتح لك باب الرضى عنه، وهو أعظم الأبواب وأتَمُّها وأكملها.

فقد قال عبدالواحد بن زيد[1]، رضي اللَّه عنه:

«الرضا باب اللَّه الأعظم، ومستراح العابدين، وجنّة الدنيا».

وفي الخبر يقول اللَّه تعالى: «أنا اللَّه لا إلٰه إلا أنا خلقت الخير والشر فطوبَى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشرَّ على يديه»[2].

وفي خبر عنه ﷺ أنه قال: «من أراد أن يعلم ما له عند اللَّه فلينظر ما للَّه عِنده فإن اللَّه ينزلُ العبدَ حيث ينزله العبدُ من نفسه»[3].

وقال الفضيل بن عياض، رضي اللَّه عنه: «إنما يطيع العبد ربّه على قدر منزلته منه» انتهى.

وأكبر المنازلِ كلّها التعلُّق بأوصافه مع التحقق بأوصافك، بل أكبر الكرامات أن تكون في الظاهر ممتثلاً لأمره، وفي الباطن مستسلماً لقهره.

وإن شئت قلت: الصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية، وإن شئت قلت: الطاعة والغنى به عنها، فهذه العبارات كلها ترجع لمعنى واحد عبّر عنه بها، وقد نبّه عليه المؤلف بالعبارة الأخيرة إذ قال:

---

(١) عبدالواحد بن زيد، أبو عبيدة البصري، أخذ عنه محمد بن السماك وأبو سليمان الداراني، من كبار العباد، صاحب مواعظ. انظر سير أعلام النبلاء (٧/ ١٦٨) رقم (٥٩).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥/ ١٤٩) رقم (٩٢١٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٧٣) رقم (١٢٧٩٧).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٧١) رقم (١٨٢٠)، وأبو يعلى في المسند (٣/ ٣٩٠) رقم (١٨٦٥)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٦٧) رقم (٢٥٠١).

متى رزقك الطاعة والغنى به فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة.

قلت: وصورة ذلك أن تعمل بأمر اللّه، لا لشيء، وترجو من اللّه خير الدنيا والآخرة لا بشيء، فتكون له به لا لعلّة ولا بسبب.

ومعنى: أسبغ = أكمل وأتمَّ. والظاهرة = الجلية، والباطنة = الخفيّة. والمقصود أن أتمَّ النعم وأكملها وأعلاها وأفضلها القيام بالعبودية في عين مشاهدة الربوبية. وإن شئت قلت: إقامة الشريعة مع موافقة الحقيقة؛ لأن به تقع الراحة والموافقة والكمال والتحقيق والتبرّي مما سواه تعالى، فيزول البؤس والسَّغب، ويتحصّل المراد والطلب، وهي الرحمة الكبرى والنعمة العظمى، والفائدة التامَّة، فقد قيل: النعمة العظمى الخروج من النفس.

وقيل: «النعمة ما وصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق.

النعمة ما أسلاك عن دنياك وأدناك من مولاك.

النعمة ما لا يوجب ندماً ولا يُعقب ألَماً» اهـ.

وصورة ما ذكره أن يعمل للّه لا لشيءٍ ويطلب من اللّه لا بشيء، فهو غني به عن طاعته فيما يريده من ثواب وغيره مع تلبّسه بالطاعة.

رزقنا اللّه ذلك، وحققنا به بمنّه وكرمه.

تنبيه:

نعمة اللّه بالطاعة، والغنى به عنها هي مطلوبه من عباده.

وخير المطالب ما هو مطلوب منه، وهو ما ذكر من الطاعة والغنى به، وهذا ما نبّه عليه المؤلف في افتتاح:

الباب التاسع

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه: خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك.

قلت: وذلك لأنه مختاره لك، وهو العالم بمصالحك، والقادر على توصيلها إليك، وأَوْلى ما نرجع به إلى اللّه ما جاءنا عن اللّه.

والذي هو طالبه منك ثلاث:

التخلّي عن كل شيء إلّا عنه.

والتحلّي بما يرضيه عنك ويردّك إليه.

والدوام على ذلك حتى تلقاه بلا فترة ولا تقصير.

ويعبّر عن ذلك بإحدى عبارات ثلاث:

الطاعة والغنى به عنها، والصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية، والامتثال لأمره، والاستسلام لقهره.

وقد قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه لا يسأل الخلق عن ذاته وصفاته، ولا عن قضائه وقدره، ولكن عن أمره ونهيه»[1]، فاطلب ربّك من حيث يطلبك. انتهى. وذكره في «لطائف المنن». ثم من مقتضيات طلب الطاعةِ، والانبعاث إليها وجود الحزن على فقدانها وذلك غير مفيد ما لم يوجب النهوض إليها حسبما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار.

قلت: الحزن: انقباض القلب لفوت محبوب أو خوف حصول مكروه، فيهيّجه حسرة خوف الفوات، أو وجود الفوات، وهو عذاب حاضر ونكد حاصل، لا فائدة له إلّا التلهف على السالف، والتشمير في المستأنف، فإن أفاد ذلك عملاً أو نهوضاً لاستدراك الممكن منه كان حسناً جميلاً، وإلّا فليس بشيء، بل هو زيادة في الاغترار؛ لاعتماد صاحبه في باب التوجّه والتذكير بالرجعى إلى اللّه تعالى، وقد يزداد صاحبُه جرأة ورؤية لنفسه فيكون سبباً لطرده من حيث يراه سبب قُربه.

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٧٩)، والطبري في تفسيره (١٧/ ١٤) بلفظ مختلف.

وقد سمعت شيخنا أبا عبداللَّه القودري رحمه اللَّه يقول: «رأيت في حديث عنه ﷺ أنه قال: «إذا استكمل الرجُل النفاقَ ملك عينيه يُرسلهما متى شاء»[(١)]».

وقال أبو سليمان الداراني رضي اللَّه عنه: «ليس البكاء بتعصير العيون، إنما البكاء أن تترك الأمر الذي تبكي عليه» انتهى.

وبالجملة، فكل شيءٍ لا حقيقة له فالاعتداد به غرور، والحزن بلا نهوض: من ذلك» واللَّه أعلم.

ثم باعث الحزن: ما يجري في الفؤاد من إشارة القلب لجلال الحق سبحانه حتى يقع فيه خوف أو حياء أو رؤية نقص في العبودية. ونحوها، وذلك كلُّه من ملاحظة أوصاف العبد فهذا وإن كان كمالاً فليس بأكمل.

وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

ما العارف: من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته.

قلت: يقول: ليس العارف الحقيقي أو الكامل، من إذا أشار ضميرُه لمعنًى من الحقيقة، أو اسم من أسماء الحق، أو صفة من صفاته، وجد قلبه وضميره لربّه دون ما أشار إليه في قلبه بحيث لم يحسّ بِعلم ما وقعت به الإشارة ولا بمعناه، بل ذكر اللَّه به من حيث ما أشار إليه في قلبه ذكراً نسي به ذكره ومذكورَه لاستغراقه فيه؛ لأن ذلك إنما سرى له من تعلّق الإشارة بمعنًى إليه مرجعه، فهو باقٍ في إشارته، وغاية معرفته ما أشار إليه ضميره وهو راجع إليه فإشارته عائدة عليه، وإذا كان كذلك، فإنما عرف وصف نفسه، فليس بعارف على الحقيقة وإن كان له حظ من المعرفة؛ ولذلك قيل: «الإشارة نداءٌ على رأس العبد بالعبد، وبوح بعين العلَّة».

وقد قال الشبلي[(٢)] رضي اللَّه عنه: «كل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهي مردودة عليهم، حتى يشيروا بالحقِّ إلى الحق، وليس لهم إلى ذلك سبيل».

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٥٠) واللفظ عنده: «إذا تم فجور العبد ملك عينيه فبكى بهما متى شاء». وأبو نعيم في الحلية ونسبه إلى سفيان (٧/ ٧٢) واللفظ عنده: «إذا استكمل العبد الفجور ملك عينيه يبكي بهما متى شاء».

(٢) اختلف في اسمه قيل دُلَفُ وقيل جعفر بن يونس أبو بكر الشبلي خراساني الأصل، ولد في بغداد ونشأ بها، صحب الجنيد، فقيه مالكي توفي سنة (٣٣٤هـ). في مقبرة الخزران وهو معروف. انظر طبقات الصوفية ص(٣٣٧) رقم (١)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٣٨).

وقال أبو علي الروذباري[١] رضي اللّه عنه: «الإشارة تصحبها العلل، والعلل بعيدة من عين عين الحقائق» انتهى.

ثم بيّن المؤلف شأْن العارف الحقيقي في بساط الإشارة بأن قال:

بل العارف من لا إشارة له.

قلت: يعني لا إشارة له أصلاً لا لجمال ولا لجلال، ولكنه موقوف في موقف الفناء بالحق عن كل ملاحظة وإشارة وتنبيه ومعنًى، كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده.

قلت: فسقوط إشارته في حاله لكمال فنائه بشهود الكمال، لا لنقصه وقصوره عن مدارك الجمال والجلال، فهو فانٍ في وجوده عن وجوده، وفي شهوده عن شهوده [بموجوده بل بمشهوده] ويظهر ذلك في حركات الجميع، فأما الفاني فكما حكي أن بعضهم خرج في بعض غيباته فأخذه الكفار فلم يستفق إلَّا والدَّلالُ يقول: من يزيد؟

فرفع رأسه إلى السماء وقال:

أقامني حُبُّك فيمن يزيد ... في موقف الذل وقهر العبيد

وقد حضر البائع والمشتري ... عبدك موقوف فماذا تريد؟

وكما اتفق في حكاية «حاتم الأصم[٢]» رضي اللّه عنه، إذ أخذه تركيٌّ ليذبحه، فأتى مُسلم، فضرب التركيَّ فقتله، فقيل له: كيف كان قلبك إذ ذاك؟ قال: كنت أنظر ما يحكم اللّه بيني وبينه.

ففي هاتين الحكايتين عدم التمييز عند مواجهة الحكم، ولو أشار الضمير للجمال لقال: كنت أرجو اللّه أن يخلصني من ذلك أو أراه نعمة قابلة في الحال، ولو أشار للجلال لقال: كنت أرى ذلك من ذنوبي أو أنتظر ما هو أعظم منه. واللّه أعلم.

---

(١) أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور، أبو علي الروذباري، من أهل بغداد سكن مصر، صحب الجنيد وأبا الحسين النوري وابن الجلاء توفي بمصر سنة (٣٢٢هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٣٥٤) رقم (٣)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٩٦).

(٢) حاتم بن عنوان، أبو عبدالرحمن المشهور بالأصم، زاهد، اجتمع بأحمد بن حنبل، شهد بعض الفتوح، توفي سنة (٢٣٧هـ). انظر تاريخ بغداد (٨/ ٢٤١)، والأعلام (٢/ ١٥٢).

ثم لما كانت الإشارة واسطة بين الرجاء والخوف إذ تفيد كلاً منهما، جعلها المؤلف واسطة فذكر الخوف قبلها والرجاء بعدها فقال:

الرجاء ما قارنه عمل.

قلت: يعني عملاً في سبب تحصيل المرجوِّ لأجل تحصيله، وقد عبّر عنه بعض الفقهاء بقوله: «تعلّق القلب بمطموع يحصل في المستقبل مع الأخذ في العمل المحصِّل له»، وأقرب منه أن يقال: «طمع يصحبه عمل في سبب المطموع فيه لأجل تحصيله».

والمقصود أن الرجاء بلا عمل لا يصح كونه رجاء بل هو أُمنية كما قال:

وإلا فهو أمنية.

قلت: يعني وإن لم يقارنه عمل فهو أمنية، أي: تمني، لا حقيقة له.

ولقد رأيت ليلةً شيخنا الفقيه أبا عبداللَّه العودي، رضي اللَّه عنه، في المنام وكنت أقرأ عليه هذه الحكمة فكلما قلت أمنيَّة، قال أو مَنِيَّة. فلما انتبهت تأملت فإذا الأمنية عين المنية من حيث إنها توصل إليه، لأن تحصيل المنية إعدام للحياة، والأمنية كذلك، والمنيَّة إعدامٌ حسيٌّ والأمنية إعدام معنوي.

وكذلك قال الحسن رضي اللَّه عنه: «يا أيها الناس اتقوا هذه الأماني فإنها أودية النوكى[١] فيحلُّون فيها، فواللَّه ما أتى اللَّه عبداً بأمنية خيراً في الدنيا ولا في الآخرة».

وقال معروف الكرخي[٢] رضي اللَّه عنه: «طلب الجنة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا عمل نوع من الغرور، وارتجاء اللَّه مع المعاصي حمق وجهل»[٣].

وقال الحسن أيضاً: «إن قوماً ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتى لقوا اللَّه وليست لهم حسنة، يقول أحدهم أُحسن الظنَّ بربّي، وكذب، لو أحسن الظن بربِّه لأحسن العمل له، وتلا قول اللَّه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤] [فصلت: ٢٣] انتهى.

---

(١) الحمقى. انظر المعجم الوسيط ص(٩٦٤).

(٢) معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ، ولد في الكرخ ببغداد، وفيها نشأ، زاهد متصوف، والى الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم. توفي سنة (٢٠٠هـ). انظر تاريخ بغداد (١٣/ ١٩٩) والأعلام (٧/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٦٧).

(٤) أورده القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٥٣).

وفي آخره بحث يطول ذكره.

ثم لما فرغ المؤلف من ذكر بواعث الطلب ذكر عينَ المطلوب مقروناً بخبر الطالبين فقال:

مطلب العارفين من اللّه الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

قلت: لأن ذلك هو المطلوب منهم، فهم طالبون منه ما هو طالبه منهم.

والصدق في العبودية بالتزام أحكامها في كل ورد وصدر هو عين القيام بحقوق الربوبية. ومداره في أمور ثلاثة:

التشمير للحقوق، والإعراض عن كل مخلوق، والاستسلام تحت جريان المقادير والأحكام. وقد يعبّر عنه بامتثال أمره والاستسلام لقهره.

أو يعبَّر عنه بالطاعة والغناء به عنها، فكل صحيح واضح مليح، واللّه أعلم.

ثم مما يعرض للعارف وغيره في طلبه بسبب مطلوبه، أو دونه وجودُ القبض والبسط، وهما حالان للقلب يردان عليه توقّع أو واقع فائدة وورودهما أبقى للعبد بعد فنائه، وفناؤه بعد بقائه، وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

قبضك حيث لا يبقيك مع البسط، وبسطك بحيث لا يتركك مع القبض وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه.

قلت: القبض والبسط وصفان وجوديان يتعاقبان على القلب، فيكون تارة بهذا وتارة بهذا، وتارة في موقف الاعتدال.

وما جعل الحقُّ ذلك إلا ليعرفَ العبدُ أنه في قبضة مولاه، ليس له من الأمر شيء، فينقطع عن نفسه وعن كل شيء سوى ربّه؛ إذ ليس من مراد العبد دخول القبض عليه ولا مفارقة البسط له، فإذا تحقّق عدمَ دوام ما يحبّه وثبوتَ ما لا يريده لم يسكن لشيء من وجوده، ولم يعتدّ بموجوده. وتأثير ذلك بالأمور الملابِسة له أقوى من تأثيره بالأمور البعيدة عنه أو المنفصلة.

وهذا ما أشار إليه الجنيد رضي اللّه عنه، حيث يقول: «الخوف يقبضني والرجاء يبسطني، والحقيقة تجمعني، والحق يفرقني، إذا قبضني بالخوف أفناني عنّي، وإذا بسطني بالرجاء ردّني عليّ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني معه، وإذا فرّقني بالحق أشهدني غيره فغطاني عنه، فهو في كلِّ ذلك محرِّكي غير مسكني، ومُوحشي غير مؤنسي، فحضوري لذوق طعم وجودي، فليته أفناني عني فمتعني أو غيبني عنّي فروَّحني».

وقال فارس رحمه اللَّه: «القبض أولاً، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأنَّ القبض والبسط إنما يتعاقبان في الوُجود، فأما الفناء والبقاء فلا» انتهى.

يريد ـ واللَّه أعلم ـ أن اللَّه يربّي المريدين في بداياتهم بغلبة القبض عليهم حتى يفْنَوا عن أنفسهم، ويذهلوا عن حظوظها، ثُم يردّهم عليه بالبسط حتى يأنسوا به، وبما منّه من مِنّة فيما توجهوا إليه، حتى لا يمكنهم نزوع عنها، ثم ينتفيان عنهم؛ ليتفرغوا لوظائف العبودية دون علَّة نفسانية ولا غيرهما، فيكونون له به، لا لشيء من نفوسهم ولا بشيء منها. وهذا مراد الشيخ أو قريباً منه. وباللَّه التوفيق.

ثم إن أحوال الناس في تلقِّي القبض والبسط مختلفة على قدر قواهم وما واجههم من العرفان والتحقيق، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا.

قلت: حقيقة المعرفة تقتضي العارف قصرَ نظره على مولاه واعتباره بأوصافه مما به تولاه، فإذا واجهه بجمال ذكر جلاله، وإذا واجهه بجلال ذكر كماله، لأنه لا ييأس من اللَّه في شيء ولا يأمن منه في شيء، لأنَّ ظواهر الأخبار لا تقضي على باطن الصفات، فلا يأمن مكر اللَّه إلا القوم الخاسرون، وما يقنط من رحمة ربه إلا الضالون، فهم إذا عاينوا صورةَ أمنٍ خافوا المكروه، وإذا رأوا صورة خوف رجوا الفضل.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللَّه عنه: «العامة إذا خُوِّفوا أخافوا، وإذا رُجوا رَجَوْا، والعارفون إذا خُوّفوا رَجَوا وإذا رُجّوا خافوا» انتهى.

وقد يفهم ذلك من حديث الغار وحديث بدر؛ إذ قال أبو بكر في الأول: يا رسول اللَّه، لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا[١]، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحزن إن اللَّه معنا»[٢].

وكان عليه الصلاة والسلام يوم بدر يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد. فيقول أبو بكر: دع مناشدتك ربَّك؛ فإنه قد وعدنا بالنصر»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٣٣٦) رقم (٣٤٥٣)، وابن حبان في الصحيح (١٥/ ٢٨٧) رقم (٦٨٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٣٣٦) رقم (٣٤٥٢). وابن حبان في الصحيح (١٥/ ٢٨٧) رقم (٦٨٦٩)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٣٠٩) رقم (٢٠٠٩).

(٣) أخرجه ابن حبان في الصحيح (١١/ ١١٤) رقم (٤٧٩٣)، ومسلم في الصحيح (٣/ ١٣٨٤) رقم (١٧٦٣). والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ١٨٧) رقم (٨٦٢٨)، والترمذي في الجامع الصحيح (٥/ ٢٦٩) رقم (٣٠٨١).

فكان أبو بكر في مقام الثقة بوعد اللَّه، ورسول اللَّه ﷺ في موقف النظر؛ لاتساع علم اللَّه، وهو أتمّ، مع أن كلَّ كمال بحسب ما ظهر فيه، فاعرف ذلك. وباللَّه التوفيق.

ومن موجبات الخوف ما يتضمنه البسط من الزلل وعدم الوقوف عند الحدِّ، وهذا ما أشار إليه إذ قال:

ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا القليل.

قلت: وذلك لأن البسط يوجب انتشار الحرارة في البدن فيستدعي استرسال النفس مع ما يلائمها، وذلك يتضمن سوء الأدب في الحركات والتصَرفات؛ إذ لا يمكن معه حفظ الحرمة لوجود الطيش الباعث على الحركة من غير اختيار، فلا يقف على حدِّ الأدب مع ما ذُكر إلَّا ما كان متمكن النفس في الأدب متحققاً بحقائق حفظ الحرمة، قد غُمِس قلبه في بحر الهيبة؛ ولذلك قيل: «قف على البساط وإياك والانبساط».

وقال رجل لأبي محمد الجريري[1] رحمه اللَّه: «كنت على بساط الأنس وفتح عليَّ طريق البسط فزللت زلة، فحُجبت عن مقامي، فكيف السبيل إليه، دلني على الوصول إلى ما كنت عليه؟!.

فبكى أبو محمد وقال: يا أخي الكل في قبضة هذه اللحظة، لكنِّي أنشدك أبياتاً لبعضهم، وأنشد يقول:

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبَّةَ حسرة وتشوُّقا
كم قد وقفت بربعها مستخْبِراً ... أو سائلاً عن أهلها أو مشفِقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقتَ من تهوَى فعز المُلْتَقَى

وسئل بعض المشايخ عن تلك الزَّلة فقال: «انبساط مع الحق من غير أدب». انتهى.

ثم ذكر الشيخ بعض علة كونه موجباً لإساءة الأدب في غالب الأحوال فقال:

البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لا حظ للنفس فيه.

قلت: وموقف الحظوظ مناف للقيام بالحقوق فيما يتضمنه من الورع

(١) أحمد بن محمد بن الحسين، أبو محمد الجريري، صحب الجنيد وسهل بن عبداللَّه التستري، توفي سنة (٣١١هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٢٥٩) رقم (١) وتاريخ بغداد (٤/ ٤٣٠ ـ ٤٣٤).

والاسترسال، بخلاف محل فقدها. قال في «لطائف المنن»: «البسط: مزلَّة أقدام الرجال؛ فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجائهم. والقبض أقرب لوجود السلامة؛ لأنه وطن العبد؛ إذ هو في أسر قبضة اللّه تعالى، وإحاطة الحق محيطة به، ومن أين يكون للعبد البسط وليس هو شأنه.

والبسطُ خروج عن حكم وقته، والقبض هو اللائق بهذه الدار؛ إذ هي وطن التكليف وإبهامِ الخاتمة، وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق اللّه تعالى» انتهى.

وقد قالوا: إن القبض للأرواح، والبسط للارتياح، والقبض حق الحقِّ منك، والبسط حَظُّك منه، ولأن تكون بحق ربّك أوْلى من أن تكون بحظِّ نفسك.

ثم أسباب القبض والبسط راجعة لعطاءٍ أو منع، وهما لا يتحققان في صورهما، فوجب أن تراعى الحقائقُ وينكب عن صور الأمور كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك.

قلت: إذا كان الأمر كذلك فكن خائفاً راجياً في عطائه ومنعه، راجعاً باللجإ والافتقار إليه فيهما، غير مطمئن بشيء منهما، إذ قد يكون في طيّه خلافُ ما ظهرت به صورته، وقد أشار سُبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۞ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧]، أي: ليس الأمر كذلك، بل قد يكون المنع عطاء، والعطاء إهانة، أو على مقتضى صورته، فلا تفرح بشيء ولا تحزن عليه من حيث وجوده. فافهم.

ثم المنع في العطاء بأن يكون صارفاً عن اللّه ومشغِلاً عنه كما قيل: ما شغلك عن اللّه من أهل، ومال، وولد، فهو عليك مشؤوم.

فأمَّا صورة العطاء في المنع فتأولها المؤلف بأن قال:

متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع وهو عين العطاء.

قلت: لأنه يردُّك إلى مولاك، ويصلك به من جهة ما به تولّاك، والنعمة ما وصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق. وسيأتي مزيد بيان عند قوله بعد ذلك: متى أعطاك أشهدك برَّه، ومتى مَنَعك أشهدك قهره.

ومن مقتضيات الفهم عن اللّه وجود الرضا عنه سبحانه وتعالى؛ لأن الرضا عن اللّه جنَّة معجلة وحالة حسنة، ومفتاحُ كل خيرٍ وبر.

قال عبدالواحد بن زيد رضي اللَّه عنه: «الرضا باب اللَّه الأعظم، ومستراح العابدين، وجنة الدنيا».

وقال رسول اللَّه ﷺ: «المؤمن بكل خير على كل حال؛ إذ نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد اللَّه...»[١] الحديث.

وقد عدّ المؤلف في «التنوير» وجوه الفهم، وأنهاها إلى عشرة، ثم بيّن جميعها بما هو متأكد على كل مُريد صادق. وباللَّه التوفيق.

ومن وجوه المنع في العطاء والعطاء في المنع ما ذكر المؤلف بأن قال:

الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة.

قلت: فمن نظر إلى ظاهرها أسرّته ومن نظر إلى باطنها هَدته، وإن اشتغل بها صرفته، وإن اطمأن إليها صرعته، وإن أعرض عنها فاتحته بما فيها، فالعاقل ينبسط بإدبارها أكثر من إقبالها، ويتحرز من إقبالها أشدَّ من إدبارها، وكذلك كان السلفُ رضي اللَّه عنهم إذا أقبلت الدنيا عليهم قالوا: ذنبٌ عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. وهذا رسول اللَّه ﷺ المعصوم من كل آفة وهفوةٍ قد عُرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض فَأَبى إلَّا أن يجوع يوماً ويشبع يوماً. ولما سألته ابنته وقرّة عينه فاطمة، رضي اللَّه عنها، خادماً لِما وجدته من الألم عند طحن الرَّحى دَلَّها على ذكر اللَّه مولاها عند نومها قائلاً:

(ألَّا أَدُلك على ما هو خير لك من خادم؛ إذا آويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، وكبِّرا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا أربعاً وثلاثين، وذلك خير لكما من الخادم[٢]....) الحديث.

كلُّ ذلك فراراً من زينة الدنيا وغِرَّتها، ورجوعاً إلى ما دلَّ عليه وجود عِبْرتها، أليست بدار فناء وزوال ومحل نقص وارتحال؟!! لكن العبد مبتلًى بنفسه، معلقاً بأسباب معاشه ورياشِه، فوجب أن يتناول على قدر حاجته، والنظر إلى ما وراء ذلك إنما هو من نفسه الخبيثة وإن لم ينظر فلغلبة وارد الحقيقة عليه كما قال:

فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها.

قلت: فإذا نَظرتْ إليها النفس وقع البسط والقبض بإقبالها وإدبارها، وإذا نظر

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٧/ ١٧٦) رقم (٢٩١٤)، وأحمد في المسند (١/ ٢٧٣) رقم (٢٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (٤/ ٢٠٩٢) رقم (٢٧٢٨)، وأبو داود في السنن (٣/ ١٥٠) رقم (٢٩٨٨).

إليها القلب وقع البسط والقبض على حسب ما كوشف من حالها، ومن أجل ذلك قال بعضهم: «تركت الدنيا لسرعة فنائها، وقلَّة غنائها، وكثرة عنائها وَخِسَّة شركائها».

وقال بعض العلماء: «ما سطع لي زينةٌ من زخرف الدنيا إلا كُشِف لي باطنه، فظهر عندي عزوف عنها».

قال الشيخ أبو طالب المكِّي رضي اللَّه عنه: «فهذه عناية من اللَّه لمن والاه من أوليائه المقرَّبين؛ فمن شهد الدنيا بأوَّل أوصافها لم يعتبر بآخره، ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها، ومن كوشف بعاقبتها لم يستهوه زخرفها».

وكان عيسى عليه السلام يقول: «ويلكم علماءَ السوء، مثلكم مثل قناةِ خَبَث، ظَاهرها جِصّ، وباطنها نَتَنٌ».

وقد أمر اللَّه تعالى نبيّه عليه السلام بترك النظر إلى الدنيا؛ فقال عز وعلا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ . . .﴾ [طه: ١٣١] الآية.

ففي هذه الآية: أن الدنيا فتنة والنظر إليها مذموم، وإن لم يكن حراماً علينا، لأن فيه عليه السلام أسوة لنا، كما لنا أسوة به ﷺ. ومن وجوه العِبرة رؤيةُ الفناء، كما أن من الغِرَّة رؤية النظر لما يحصل بها من الغِرِّ والغنى، وعلى ذلك نبَّه المؤلف إذ قال:

إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى.

قلت: وكلُّ عزٍّ في الدنيا فانٍ؛ لأنه إنما يكون بأسبابها وهي فانية، وما ترتب على الفاني زال بزواله، قال في «التنوير»: فإن اعتززت باللَّه دام عزك، وإن اعتززت بغير اللَّه فلا بقاء لعزك، إذ لا بقاء لمن أنتَ به متعزز».

قال وأنشد بعض الفضلاء لنفسه:

اجعل بربك شأن عز ... زك يستقر ويثبتُ
فإن اعتززت بمن يمو ... ت، فإن عزَّك ميِّتُ

قال: ودخل إنسان من العارفين على رجل يبكي. فقال: ما شأنك؟

قال: مات أستاذي!!

فقال ذلك العارف: ولمَ جعلت أستاذك من يموت؟! ويقال لك إذا اعتززت بغير اللَّه فقدته، أو استندت إلى غيره عدمته، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا

﴿لَنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٧، ٩٨] انتهى.

وكلام المؤلف هنا مثل قوله بعدُ [إن أردت أن لا يعزلك فلا تتول ولاية لا تدوم لك] ـ مشربهما واحد، ومدارهما على أن القبض والبسط بإدبار الدنيا وإقبالها ليس بشيء، ومن وجوه ما يقع به العزُّ ويحصل به البسط بوجوده والقبض بزواله الخوارقُ والكراماتُ التي من أكبرها طيُّ الأرض؛ فلذلك خصَّها المؤلف بالتنبيه فقال:

الطي الحقيقي أن تطوى مسافة الدنيا عنك حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك.

قلت: يقول ظاهر الطيِّ من الفعل والكرامة كطيّ الأيام بلا طعام ولا شراب، أو طيِّ الأرض بحيث يقطعها دون مشي ولا تعب في أقرب مدة، كلاهما لا عبرة به إنما هو رسمي خارج.

وإنما الطيُّ الحقيقي طيُّ الدنيا بالزهد، كما قال بعضهم في قوله عليه السلام: «الدنيا خطوة مؤمن»[(١)]، أي: أنه يتخطاها بالزهد.

وكقول بشر[(٢)] رضي اللَّه عنه: «من دخل طريقتنا يومين فقد حَاز ملك الدارين»، قيل: لأنه يترك في الأول الدنيا، وفي الثاني التعلق بالآخرة، وفي الثالث يكون لربّه بلا علَّة».

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللَّه عنه: «ليس الشأن من تُطْوى له الأرض فإذا هو بمكة أو حيث شاء من البلاد، إنما الشأن من تُطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربِّه».

وقال بعض المشايخ: «لا تعجبوا ممن لم يضع في جيبه شيئاً فيخرج منه ما يريد، ولكن تعجَّبوا ممن يضع في جيبه شيئاً فيدخل يده فلم يجده فلا يتغير».

وقيل لأبي محمد المرتعش[(٣)] رضي اللَّه عنه: «إن فلاناً يمشي على الماء، فقال:

---

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢٣): هذا لا يعرف من النبي ﷺ ولا غيره من سلف الأمة ولا أئمتها.

(٢) بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبداللَّه الحافي، أبو نصر، أصله من مرو، سكن بغداد، ومات بها، صحب الفضيل بن عياض، كان عالماً ورعاً، توفي سنة (٢٢٧هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٣٩) رقم (٤) وتاريخ بغداد (٧/ ٦٧).

(٣) عبداللَّه بن محمد المرتعش أبو محمد النيسابوري، من مشايخ العراق في التصوف صحب أبا حفص الحداد والجنيد، أقام ببغداد وفيها توفي سنة (٣٢٨هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٣٤٩) رقم (٢) وتاريخ بغداد (٧/ ٢٢١).

عندي من مكّنه اللّه من مخالفة هواه فهو أعظم من المشي على الماء والهوى».

فرؤية الدنيا بعين الفناء والزوال يوجب طيَّها عن نظر العبد وزهده فيها، لاستشعاره أنها أقرب من أن يرحل إليها وأدنى من أن يستعيد شأْنها. ودليل ذلك ما جرى مع الأيام من التغيُّر والانتقال: ألَا ترى أن الليالي والأيام يبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود (وسيأتي إن شاء اللّه في قول المؤلف: لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها) واللّه الموفق للصواب.

ومما يأتي بالقبض والبسط عطاء الخلق ومنعهم، وعطاء اللّه ومنعه، وإليهما يرجع جميع ما ذكر.

والأصل: أن كل ما يأتي من اللّه بلا واسطة فهو رحمة ونعمة، وكل ما يأتي بواسطة الخلق عكسه، إلَّا أن يَتأيّد بأمر من اللّه؛ وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

العطاء من الخلق حرمان والمنع من اللّه عز وجل إحسان.

قلت: وذلك لأن المنع منه تعالى يقتضي اللجأَ إليه والدوام بين يديه، وحسن الاختيار فيما وجَّه به إليك؛ إذ لا يمنعك من بخل ولا عُدْم ولا افتقار ولا احتياج، وإنما يمنعك رحمةً بك، فالعطاء منه هو العطاء والمنع منه هو عينُ العطاء لمن فهم مراده به. ولكن لا يفهم العطاء في المنع إلّا صدّيق وقال أبو حبيب البدوي، رضي اللّه عنه، لسفيان الثوري رحمه اللّه:

«ما لي أطلب الشيء من اللّه تعالى فيمنعني؟

قال: منْع اللّه إياك عطاء؛ لأنه لم يمنعك من بخل ولا عدم».

وقال الشيخ محيي الدين بن عربي: «إذا منعك فذلك عطاؤه، وإذا أعطاك فذلك منعه، فاختر الترك على الأخذ» انتهى.

ولكن آخره مقيَّد بما إذا كان العطاء صارفاً لك عنه، وهو أمر لا يتحقق، فلزم الحذر في الترك. واللّه أعلم.

فأما العطاء من الخلق فهو حرمان من وجوهٍ ثلاثة:

أحدها: تقلُّد المنَّة. وقد قال الحكماء: الصبر على العُدم أيسر من تقلد المنن.

الثاني: صرف الوجه إليهم والأنس بهم، وربَّما أدَّى إلى الاعتماد عليهم فكان سبب الطرف والإبعاد والعياذ باللّه.

الثالث: شغل الوقت بهم مكافأة وغيرها طلباً للسلامة من الذل معهم، وإلّا

كنت ذليلاً فيهم، وقد قيل: «عزّ النزاهة أشرف من سرور الفائدة». وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه: «اهْرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرِّهم؛ لأن خيرهم يصيبك في قلبك وشرَّهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدوٌّ ترجع به إلى اللّه تعالى خير من صديق يصدُّك عن اللّه».

وفي وصية عليٍّ كرم اللّه وجهه: لا تجعل بينك وبين اللّه مُنعماً، واعدُد نعمة غير اللّه عليك مغرماً، فلذلك قال القائل:

فلا ألبس النُعْمى وغيرك مُلْبسي ولا أقبل الدنيا وغيرُك واهب

جبر اللّه صدع قلوبنا بالإقبال عليه، ومنَّ علينا في كل حال بالدوام بين يديه، وحال بيننا وبين كل ما يحول بينا وبينه، إنه منعم كريم.

تنبيه:

إذا كان منع اللّه عطاء، وعطاء الخلق منعاً وحرماناً وجب الإعراض عنهم بوجود الإقبال عليه، وذلك يقتضي وجود إكرامه وإفضاله بلا مُهلة ولا تراخ، كما نبَّه عليه في افتتاح:

الباب العاشر

الذي يلي هذا، وهو أول الثلث الثاني من الكتاب، قال:

وقال رضي اللّه عنه: جل ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازيه نسيئة.

قلت: بل جزاؤه كلّه معجّل وإن كان ما في الآخرة مؤجلاً، فإن المأتيَّ قطعاً كالموجود في الحال، والتنعُّم بانتظار الفائدة زيادة في الإحسان بها، وإنما كان الأمر كذلك لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه تعالى كريم، والكريم إذا أعطى كمّل، وإذا خوّل نوّل، وإذا تفضّل وصَّل.

الثاني: أن العبد فقير محتاج في الحال والمآل فيقدِّم له ما يحتاج إليه من معارف وأحوال وغيرها، ويدَّخر له ما يستغني عنه من ثواب وحسن مآب.

الثالث: أن مراده تعالى من عباده المخلصين إفراد قلوبهم له فيعينُهم على ذلك بما يوجهُه لهم ولو لم يكن من جزائه على الطاعة إلا وجود التخصيص بالتوفيق لكان كافياً، وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً.

قلت: وذلك أنك من حيث أنت لا يليق بك إلَّا النقص، بل هو وصفُك اللازم، ونقصك الملازم، وما جرى عليك من وجوه الكمال فمنَّة ورحمة واجهتك منه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال عز وعلا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، إلى غير ذلك. وبيان ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الطاعة كمالٌ لك، فالمنَّة عليك فيها بتوفيقك لما فيه كمالُك.

الثاني: أنها أمان لك في الدنيا والآخرة فالمنَّة فيها بتأمينك أو تسخيرك بسبب حصول تأمينك.

الثالث: عزٌّ لك وغنى في الدارين بما أُودع فيها من الخواص وما وعد عليها من الثواب ومن أكبر خواصِّها وجود الحلاوة الواقعة بها والأنس المتوجِّه بسببها، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته.

قلت: يعني حال التلبُّس بها من حلاوة المناجاة، ولذَّات المصافاة، وسنيِّ الحالات، حتى قال بعضهم: «في الدنيا جنَّة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة، ولا إلى شيء، وهي طاعة اللَّه عزَّ وجلَّ».

وقال غيره: «ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التعلُّق في قلوبهم بالليل من لذَّات المناجاة».

وفي الحديث: إن رجلين من الصحابة كانا في حرس المسلمين من الكفار، فقام أحدهما يصلِّي، ونام الآخر، فكبَّد كافر قوسه وضرب المصلِّي فأصابه السهمُ فلم يحفل به، ومضى في صلاته، فعاوده بثانٍ كذلك، ثم ثالث، فلما رأى ذلك أيقظ صاحبَه وقال: إني لولا خفت على المسلمين ما أيقظتك، ولكان ما أنا فيه شاغلاً لي عما أصابني[(١)]... [أو كلاماً هذا معناه].

وقُطعت رجل عروة بن الزبير[(٢)] رضي اللَّه عنه لأَكِلَة كانت بها وهو في صلاته فلم يحسّ بها[(٣)].

والنقول في هذا الباب كثيرة وقد استدل بها ابن أبي جمرة[(٤)] على أنها لذة حسيّة وجدانية، خلافاً لبعض الفقهاء واستدلاله صحيح، وباللَّه التوفيق، ثم قال المؤلف:

وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته.

قلت: وكفى العاملين ما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته، أي في طاعته بطاعته وما يجري منها لهم في حال التلبس بها وبعد ذلك من تآنسهم به وبما منه وإليه وما يصلهم به من الإمدادات العرفانية والمواريد العلمية والإيمانية.

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾

---

(١) ورد بلفظ مختلف «كان في غزوة ذات الرقاع فرمي رجل بسهم فنزفه الدم فركع وسجد ومضى في صلاته»، انظر صحيح البخاري (١/ ٧٦) باب رقم (٣٣) والحديث معلقاً.

(٢) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو عبداللَّه المدني ولد سنة (٢٩هـ) أحد الفقهاء السبعة، وأحد علماء التابعين، ثقة توفي سنة (٩٢هـ). انظر تهذيب الكمال للمزي (٢٠/ ١١) رقم (٣٩٠٥).

(٣) انظر تهذيب الكمال للمزي (٢٠/ ٢١).

(٤) عبداللَّه بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، أبو محمد من علماء الحديث، مالكي أصله من الأندلس، توفي بمصر سنة (٦٩٥هـ)، انظر البداية والنهاية (١٣/ ٣٤٦)، والأعلام (٤/ ٨٩).

[مريم: ٩٦]، قيل: يعني فيما بينهم وبينه، وقيل: فيما بينهم وبين عباده. وقد يريد الجميع، وهو صحيح مليح يؤيده حديث: إذا أحبَّ اللّه عبداً نادى جبريلَ أنِّي أحب فلاناً، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريلُ في أهل السماء: إنَّ اللّه يحب فلاناً فأحبوه[١]، ثم يوضع له القبول في الأرض. وهو صحيح مشهور.

وإلى معناه أشار عطاء[٢] رحمه اللّه تعالى حين أوصى مالك بن أنس[٣] رضي اللّهُ عنه إذ قال: أطع اللّه يحبك الناسُ وإن كرهوا.

وقال علي كرَّم اللّه وجهه: من أراد الغنى بغير مال والعزّ بغير عشيرة فلينتقل من ذل المعصية إلى عزِّ الطاعة.

وأنشدوا في ذلك:

إنَّ عرفان ذي الجلال لعزٌّ ... وبهاء، وبهجة، وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء ... وعليهم من المحبة نور
فهنيئاً لعارفٍ بك ربّي ... هو واللّه دهره مسرور

فإذن جزاء العمل على ثلاثة أوجه:

جزاء قبله وهو التوفيق، فيكون العمل شكراً له.

وجزاء بعد العمل، ويكون قبوله والفرح بالمنَّة شكرُه، ومن تمام ذلك التوجُّه لتحصيل مثله في المستقبل بمحض المحبَّة، والعبودية، وشكر المنَّة، لا لجلب ولا لدفع إذْ كان مستشعراً به شكر النعمة والاستغراق في المنّة، وعلى هذا نبّه المؤلف إذ قال:

من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أوصافه.

قلت: وذلك أنها تقضي بأن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، لا لعلّة ولا لسبب بل لحق الربوبية وواجب العبودية له، وسابق إحسانه وكرمه؛ إذ حقه واجبٌ وإحسانه سابق، فعلى العبد أن يعمل له تعالى لا لشيء ويطلب منه لا

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٤/ ٢٠٣٠) رقم (٢٦٣٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ٤١٦) رقم (٧٧٤٧)، والترمذي في الجامع الصحيح (٥/ ٣١٧) رقم (٣١٦١).

(٢) عطاء بن أبي رباح واسم أبيه أسلم، أبو محمد مولى آل أبي ميسرة الفهري، ولد ونشأ في مكة، فقيه زاهد، كان المسجد الحرام فراشه، حج سبعين مرة، توفي في مكة سنة (١١٥هـ). انظر صفوة الصفوة (٢/ ١١٩ ـ ١٢١).

(٣) صاحب المذهب.

لشيء، لأنَّ الكل منه وإليه فالعمل على الأغراض والأعواض إساءة أدب، والطلب له بغير العمل قيام بحق الحرمة، وعدم الطلب رأساً فيه رائحة الاستغناء وغير ذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ [الإنسان: ٩]، فجعل الإطعامَ لا لعلّة، ومحل الخوف غيرُ محل العطاء، فافهم.

وفيما نقل وهبٌ[١] من الزبور يقول اللّه تعالى: (ومن أظلم ممن عبدني لجنَّة أو نار...!! لو لم أخلق جنة ولا ناراً لم أكن أهلاً لأن أطاع!!).

وفي الخبر: «لا يكن أحدكم كالعبد السُّوء إن لم يخف لم يعمل، ولا كالأجير السوء إن لم يُعط الأجرة لم يعمل».

وإنما كان هذا أجير سوء لأنه قد أساء الظن بمستعمله ولا يليق به ذلك، ولم يعط الحرمة حقُّها ولا توجّه بالمروءة في محلها. فافهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «نعم العبد صُهيب[٢] لو لم يخف اللّه لم يعصه»[٣]. ثم العطاء والمنع للمتوجهين إنما هما رسائل تحمل هدايا التعريف، فالاشتغال في الجلب فيهما تضييع لحكم الوقت، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك.

قلت: فالتقلبات للتعريف، والعبادات للتصريف، والكل رحمة ولطف إذ أقبل عليك بما وجه إليك أو وجَّه عليك مما أقرّ به أو فيه عينك، فوجب عليك الإقبال عليه بمعرفة منّته، والتعرّف لما واجهك به من قهره أو رحمته، والإقبال على عبادته شكراً له على ما أوْلى وأسدى في عطائه ومنعه، فالمؤمن شَغَله الثناءُ على اللّه عن أن يكون لنفسه شاكراً، وتشغله حقوق اللّه عن أن يكون لحظوظه ذاكراً، لكن غلبة الهوى وعدم الفهم هو الداعي للإعراض في محل الإقبال. وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

---

(١) وهب بن منبه اليماني، تابعي جليل له معرفة بكتب الأوائل، له صلاح وعبادة، يروى عنه حكم ومواعظ توفي بصنعاء سنة (١١٠هـ). انظر البداية والنهاية (٩/ ٢٧٦).

(٢) صهيب بن سنان بن مالك الربعي النمري، قيل له الرومي لأنّ الروم سبوه صغيراً، كان من السابقين في الإسلام، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد، توفي بالمدينة سنة (٣٨هـ). انظر أسد الغابة (٢/ ٤١٨) رقم (٢٥٣٦).

(٣) قال العراقي وغيره: لا أصل له، ولا يوجد بهذا اللفظ في شيء من كتب الحديث. انظر تدريب الراوي (٢/ ١٧٥).

إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن اللَّه فيه.

قلت: لأنك لو فهمت عنه تسلّيت بما فهمته من لطفه وإبراره في منعه وعطائه؛ إذ الكل رحمة وكرامة ولطف [كما يأتي من قوله: مَن ظنّ انفكاكَ لطفه عن قَدره فذلك لقصور نظره، وقد مرَّ قوله: متى فتح لك باب الفهم عاد المنع هو عين العطاء، وعن قريب يأتي قوله: ليخفف ألم البلاء عنك عِلمك بأن اللَّه سبحانه وتعالى هو المبْلي لك].

وبالجملة: فمن علم أن اللَّه تعالى رحيم به ومتفضّل عليه ولطيف به لم يتألَّم بما يواجهه منه. وقد ذكر في أول «التنوير» وجوهاً من الفهم يتعيّن النظر فيها على كل لبيب عاقل. وباللَّه التوفيق.

ثم من وجوه المنع في العطاء ما ذكره بأن قال:

ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول.

قلت: والطاعة عطاء، وعدم القبول منع مصحوب بعطاء، بل عطاء مصحوب بمنع فعاد منعاً، إذ لا عِبْرةَ بعمل لا قبول فيه!!.

وباب القبول ثلاثة أمور:

أحدها: التقوى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]؛ فكل عملٍ لا تقوى معه تعب لا فائدة له، إلَّا ما يُرجى من أُنس النفس به ليسهل عليها عند تلبّس التقوى.

الثاني: الإخلاص: إذ لا يُقبل إلَّا ما أريد به وجهه، لحديث: يقول اللَّه تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشريكَه...)[(١)].

الثالث: إتقانُه بالسنّة واتباع الحق؛ إذ لا يقبل اللَّه عمل عامل إلَّا بالصدق واتباع الحق.

فمن وجد هذه الثلاثة فلْيسرُّ بعمله؛ لأنه دليل قبوله، وإلَّا فليبك على تعبه؛ فإنه دون حاصل ولا تحصيل. ثم قال:

وقضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول.

قلت: يقول: وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول بما يفتح به

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في الصحيح (٢/ ٦٧) رقم (٩٣٨)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٢٨٩) رقم (٢٩٨٥)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٤٠٥) رقم (٤٢٠٢)، وأبو يعلى في المسند (١١/ ٤٣٠) رقم (٦٥٥٢).

عليك من أبواب الهداية والخير التي أصولها ثلاثة:

الانكسار: إذ قال اللّه تعالى في الحديث: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أَجلي).

والتوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والتشمير: مع الحذر الموجبيْن للجدِّ والإخلاص المخلّصيْن من العيوب والذنوب، فقد ورد في الحديث: «ربّ ذنب أدخل صاحبه الجنَّة»(١). وقال الشيخ أبو العباس المرسي، رضي اللّه عنه: «في إشارة قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]: يولج الطاعة في المعصية ويولج المعصية في الطاعة، فيطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يعملها، ويطلب من اللّه العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيِّئات.

ويذنب الذنبَ فيلجأ إلى اللّه ويعتذر منه، ويستصغر نفسه، ويعظّم من لم يعمله فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأيّتهما الطاعة، وأيتهما المعْصية؟!» وهو معنى ما ذكره المؤلف إذ قال:

معصية أورثت ذلاً واحتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

قلت: الخير في الطاعة بالذات والشر فيها بالعَرَض، والشرُّ في المعصية بالذات والخير فيها بالعَرَض، وخير الطاعة من حيث إنها عبودية له وخضوع بين يديه ورجوع إليه وطلب لما عنده، وشر المعصية في ضد ذلك، فإذا أوجبت الطاعة ما هو بالمعصية في الذات كانت شراً، وإذا أوجبت المعصية ما هو في الطاعة بالذات كانت خيراً، ولذلك أشار رسول اللّه ﷺ بقوله: «لولا أن الذنب خير من العُجب ما خلّ اللّه بين مؤمن وبين ذنبه أبداً»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشدُّ من ذلك: العجب»(٣).

وقال الشيخ أبو مدين، رضي اللّه عنه: «إنكسار العاصي خير من صَوْلة المطيع»اهـ.

---

(١) ذكر ابن الجوزي في كتاب اللطائف في باب ترك الشهوات (١/ ١٤) وقال الحكمة منه أي الذنب يدل الرجل على طريق التوبة والخوف من اللّه.

(٢) لا أصل له في كتب الحديث.

(٣) أخرجه أبو عبداللّه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٢٠) رقم (١٤٤٧)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥٨) رقم (٤٤٣١). وابن حبان في المجروحين (١/ ٣٤٠) رقم (٤٢٩).

وإنما ينسيك أفعالك رؤيةُ تقصيرها، أو شهودُ منَّته تعالى المستغرق لها وهو أَولى، فلذلك أتبع المسألة بكلام جامع للمنن فقال:

نعمتان ما خرج موجود عنهما ولا بد لكل مكون منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد.

قلت: إذ لا بد من وجودٍ ومَدد، وإلَّا كان المخلوق معدوماً بأوّله، وراجعاً إلى العدم بآخره كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، وهذا: الإيجاد.

وقال عزّ من قائل إخباراً عن قول بعض أهل التوفيق: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]، وهذا: الإمداد.

فالأمر إذن كما ذكر المؤلف إذ قال:

أنعم عليك أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالي الإمداد.

قلت: يقول: وإنما كان الإيجاد نعمة؛ لأنه تعالى غني عنك وأنت مفتقر إليه في وجودك، إذ لو لم يوجدك لكنت صرف النفي ومَحْضَ العدم.

وقد قال الشيخ أبو مدين؛ رضي اللَّه عنه: «الحق تعالى مستبدأ، والوجودُ مستَمدّ، والمادة من عين الجود، فلو انقطعت المادة لانهدَّ الوجود»اهـ.

ثم نعمة الإمداد تجري بثلاث:

دفع المضرَّات، وجلب الفوائد، وتوجيه الخطاب.

فالكلُّ منه تعالى عناية ورحمة وتفضيل، فمن أين يكون للعبد نسبة حتى يضيفها لنفسه فيتعزز أو يتكبَّر؟

وقد أشار المؤلف إليه لأن أصل ما ذكر ما قلناه من الافتقار فقال:

فاقتك لك ذاتية وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها.

قلت: الفاقة: شدة الاحتياج. والفقر الذاتي: ما يلازم الذات فلا ينعدم إلَّا بانعدامها، ولا شك أن الفاقة لازمة للعبد أبداً، ولا ترتفع عنه أبداً، لكنه قد يغفل عنها فيذكَّر بالأسباب الواردة عليه من الغنى والفقر والعزِّ والذلِّ والقوة والضعف وجميع مختلفات الأحوال التي يستشعر بها فاقته فيرجع إلى حدِّه بملاحظة أوصافه.

والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض.

بل تؤكدها، وإنما ينظر ذلك من وفِّق له فيكون في النعمة متلبساً بالشكر،

وفي البليَّة متلبِّساً بإظهار الفاقة والفقر، ومن هنا كان كما قال:

خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك.

ترجع فيه إلى مولاك على حكم ما أولاك من رخاء أو شدّة بما يقتضيه كل منهما من غير تعريج على غيره أو تحقق بحالك.

وترد فيه إلى وجود زلّتك.

فتسكن النفس عن الدعوى، ويدوم وقوفها بباب المولى، ومن هنا كان أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياءُ، ثم الأمثل فالأمثل.

وقال بعضهم: «إنّ ما حمل فرعون على أن يقول: (أنا ربكم الأعلى) طول العوافي والغنى، لبث أربعمئة سنة ولم يتصدّع رأسه ولم يُحَمَّ جسمه، ولم يَضرب عليه عرق، فادّعى الربوبية»اهـ.

فإذا علمت أنَّ كلَّ ما سوى الحق موسوم بالفاقة استوحشت منه.

ومتى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به.

إذ القلب لا يخلو عن شيء أو مقابله، فإذا نفر من الخلق تعلّق بالحق، وإذا شهد فقرهم وجد الأنس بغنى مولاه فأقبل عليه بكلّه، كما أعرض عن الخلائق بكلِّه؛ ولذلك قيل:

الأنس باللَّه لا يحويه بطّال ولا يحوزنَّه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم فخُمُوا وكلهم صفوة للَّه عمَّال

وقال القاضي عبدالرحيم بن القشيري[1] رحمه اللَّه: «الأنس سرورُ السرِّ من غير ملاحظة للبرّ. الأنس حياة القلب بتنسُّم القُرب. الأنس بَرَد الحياةِ بوجد المدانات. الأنس وجد الحبيب بفقد الرقيب. الأنس دون الوصول وفوقَ المأمول»اهـ.

ومتى أنس العبدُ بِهِ لم يحتشم من طلبه.

ومتى أطلق لسانك بالطلب.

على وجه العبودية أو غيرها انطلاقاً ضرورياً.

---

(١) أبو نصر عبدالرحيم بن الإمام شيخ الصوفية أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، الولد الرابع من أولاد الشيخ، أشعري برع في العربية والنظم والنثر، عظم قدره، وعظ في بغداد، توفي سنة (٥١٤هـ). انظر سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٢٦) رقم (٢٤٧).

فاعلم أنه لا يريد أن يعطيك.

ما تريد كما تريد، فقد روي عن عبداللَّه بن عمر، رضي اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من أذن له في الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سُئل اللَّه شيئاً قط أحب إلى اللَّه من أن يسأل العفو والعافية»[1]. وفي معنى ذلك قيل:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من فيض جودك ما علمتني الطلبا

فَثَمَّ العارف لا يزول اضطراره.

لتحققه بفقره وفاقته.

ولا يكون مع غير اللَّه قراره.

لاستيحاشه مما سواه، فهو مستأنس الجنان بقربه، منطلق اللسان بذكره؛ لذلك قيل: «من عرف اللَّه أطلق لسانه».

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللَّه عنه في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ﴾ [النمل: ٦٢]، العارف لا يزال مضطراً، وفي معناه:

إنِّي إليك مع الأنفاس محتاج لو كان في مَفْرقي الإكليلُ والتَّاجُ

وإذا كان العبد فقيراً بكل وجه، فالحق تعالى هو الذي:

أنار الظواهر بأنوار آثاره.

التي هي الإحساس المستفادُ من آثار الأفعال.

وأنار السرائر بأنوار أوصافه.

التي هي المعارف الإيمانية والحقائق اليقينية، فأعظم المنَّة ظاهراً وباطناً إلَّا أنَّ الظواهرَ موقوف وجودُها على الأفعال، وهي حادثة، والسرائر مستفاد نورها من تجلِّي الأوصاف وهي قديمة.

فلأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر.

بالفناء والزوال، وانقضت بانقضاءِ الوقت، والنظر الحاضر.

ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر.

هي ثابتة في دار الآخرة الأبدية، لا انقضاء لها أبد الآبدين، فكان ثباتُ كلٍّ وزواله بحسب متعلقه وأصله، ولذلك قيل:

---

(١) ورد بلفظ مختلف قال عنه البخاري منكر الحديث. انظر فيض القدير للمناوي (٥/ ٥٣٢).

إن شمس النهار تغرب بالليـ ـل وشمس القلوب ليس تغيب

وهو البيت الذي استشهد به المؤلف قبل بيت آخر وهو قوله:

طلعتْ شمسُ من أُحبُّ بليل واستنارت فما تلاها غُروب

وقال الشيخ أبو العباس، رضي اللّه عنه: «لو كشف عن نور الوليِّ لعُبِد؛ لأن أوصافه من أوصافه، ونعوتَه من نعوته».

قال في «لطائف المنن»: فلو كشف الحقُّ عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نورُ الشمس والقمر في مشرقات أنوارهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم، الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أولياء اللّه لا كسوف لها ولا غروب».

وقال فيه أيضاً: «نور الشمس تشهد به الآثار ونور اليقين شهد به المؤثر»، قال: ولنا في هذا:

هذه الشمس قابلتنا بنورها ولَشمس اليقين أبهر نوراً

فبهذي قد رأينا الأنوار لكن بهاتيك قد رأينا المنيرا

الباب الحادي عشر

وقال رضي اللّه عنه:

مبيِّناً توجُّه الألطاف في أسباب التلف:

يخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه وتعالى هو المبلي لك.

فإنه جميل الوصف، كريم الفعل، لا يقصد ألم عبده إلَّا لمصلحة له فضلاً ومنَناً، لا أنه يجب عليه ذلك.

وقد قال للنبي ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]، وكما عوّدك ما تحبّ فاصبر له على ما يجب.

فالذي واجهتك منه الأقدار.

بما لا تريده من الأمور.

هو الذي عوّدك حسن الاختيار

على ممر الدهور.

إن أَعرضوا فهم الذين تعطَّفوا، كما قد وفوا فاصبر لهم إنْ أخلفوا وقد قال الجنيد رضي اللّه عنه: «كنت ليلة نائماً عند السري السقطي[1] رضي اللّه عنه فنبهني وقال لي: يا جنيد، رأيت كأني وقفت بين يديه، فقال لي: يا سريّ، خلقتُ الخلقَ فكلهم ادّعوا محبتي، فخلقت الدنيا فهرب منهم تسعة أَعشارهم وبقي معي العُشر، فخلقت الجنَّةَ فهرب منّي تسعة أعشار العشر وبقي معي عشر العشر، فسطت عليهم ذرَّة من البلاء فهرب منّي تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقين معي: لا الدنيا أردتم، ولا الجنة أخذتم، ولا من النار هربتم، فماذا تريدون:

فقالوا: إنك تعلم ما نريد، فقلت: إنِّي مسلّط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي... أتصبرون.

قالوا: إذا كنت أنت المُبْتَلِي فافعل ما شئت. فهؤلاء عبادي حقاً»، ثم إن:

---

(١) سري بن المغلس السقطي، أبو الحسن، ولد في بغداد، صوفي خاله الجنيد، توفي سنة (٢٥٣هـ). انظر حلية الأولياء (١٠/ ١١٦) والأعلام (٣/ ٨٢).

من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره.

في العقليَّات والعاديات والشرعيَّات؛ أمَّا العقليات فما من بلاءٍ إلَّا والعقل قاضٍ بإمكان ما فوقه؛ فالاقتصار على ما دون المقدور عليه لطف، وبهذا يتبين أن أهلَ النار ملطوف بهم.

وأما العاديات فما وُجدت قط بليّة لشخص إلّا وُجد ما هو أعظم منها بغيره، ولا اجتمعت البلايا على شخص واحد أبداً، فإن من أعظم المصائب: الفقر في الشيب، والموتُ في الشباب. ولا يمكن اجتماعهما.

وأما الشرعيات، فما من بليّة إلّا وهي مكفرة من ذنوب صاحبها أو موجبة له ثواباً، أو مخففة عنه عقاباً، أو مبشِّرة له بمنفعة دنيوية أو معرفة جلالية، أو حقارة نفْس؛ فقد قال ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نَصب إلَّا كفِّرَ به من خطاياه حتى الشوكة يشاكها»[(١)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «حمّى يوم تكفّر ذنوب سنة»[(٢)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «الحمّى حظُّ كل مؤمن من النار...»[(٣)].

وأحاديث هذا الباب كثيرة، وتفاصيلها غزيرة، وهي كلها مجملة على شكر أو صبر.

ولا يخاف عليك أن تلتبس الطريق عليك.

في ذلك، فلا تدري ما تمسك في ذلك: الشكرُ اعتباراً بلطفه، أو الصبرُ اعتباراً بحكمه.

وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك.

الحامل على وجود الشفقة على النفس والرفق بها حتى يؤدّي إلى الضجر.

وقد قال أحمد بن خضرويه[(٤)] رضي اللّه عنه: «الحق واضح، والطريق

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٤/ ١٩٩٢) رقم (٢٥٧٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٤٤١) رقم (١٠٨٠٦)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٣) رقم (٨٠١٤).

(٢) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (حمى يوم كفارة سنة) (١٠/ ٥٢٤)، وكذا في زاد المعاد (٤/ ٣١) وقال فيه ابن القيم: لا أعرف حاله.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ١٩٧) رقم (٣١٤)، وأبو عبداللّه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٧١) رقم (٦٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٥٤) رقم (٥٢٢٧)، وابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٣٥٨).

(٤) أحمد بن خضرويه البلخي أبو حامد، من مشايخ خراسان صحب حاتم الأصم وأبا تراب =

لائح، والداعي قد أسمع فما التحيّر بعد هذا إلّا من العَمى».

وقال أبو عثمان[١] رضي اللّه عنه: «الخلق كلهم مع اللّه في مقام الشكر وهم يظنون أنهم في مقام الصبر»اهـ.

وإنما كانت البلايا نعماً لعباده، لأنها تردّ العبد إلى حدوده، فيتحقق عرفانه بنفسه، وبحسب ذلك تحصل له المعرفة بربّه.

فسبحان من ستر سر الخصوصية.

التي هي المعرفة والولاية.

بظهور صفات البشرية.

التي هي: الفقر، والذل، والضعف المحقق لغنى المولى وعزّه وقوّته في باطن العبد.

وظهر بعظمة الربوبية.

التي دلائلها وشواهدها مثبوتة.

في إظهار وصف العبودية.

فبقدر ما يظهر على العبد من آثار الأوَصاف الدَّالة على عجزه وفقره، وذلّه وضعفه يتبين وجود غنى الحقِّ وعزّه وقدرته، فبقدر ظهور آثار البشرية يقع سرّ الخصوصية، ومن ظهور البشرية يتحقق وصف العبودية، فتثبت الخصوصيةُ للمختص؛ إذ يتبين عظمة الربوبية؛ لذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية. اهـ.

فإذن تحقق الخصوصية في التحقق في العبودية، والتحقق في العبودية بترك كل ما سوى الحق له وبه.

فلا تطالب الرب بتأخر مطلبك.

وهو: وجود الخصوصية؛ إذْ لا تستحق عليه شيئاً بِطلبك.

= النخشبي، التقى بأبي يزيد البسطامي وأبي حفص النيسابوري. انظر طبقات الصوفية ص(١٠٣) رقم (١٣) وتاريخ بغداد (٤/ ١٣٧).

(١) سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري، أبو عثمان أصله من الري، صحب يحيى بن معاذ الرازي وأبا حفص، نشر التصوف في نيسابور، توفي سنة (٢٩٨هـ) بنيسابور. انظر طبقات الصوفية ص(١٧٠) رقم (٣) وتاريخ بغداد (٩/ ٩٩ ـ ١٠٢).

ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك.

وهو: التحقق بالعبودية بامتثال أمره والاستسلام لقهره.

ومتى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره.

من حيث هو عبودية له أو تصديق لوعده.

ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره.

رضاً بفعله، أو تفويضاً له في حكمه.

فقد أعظم المنّة عليك.

إذْ أراح ظاهرك من مخالفته، وباطنك من الاعتراض عليه ومنازعته. وقد قال وهب رضي اللّه عنه: «قرأت في بعض الكتب يقول اللّه تعالى: عبدي أطعني فيما أمرتك ولا تعلمني بما يصلحك أنا أُكْرِمُ من أَكْرمني، وأهين من هان عليه أمري، ولست بناظر في حق عبد حتى ينظر العبد في حقيّ». وقال الشيخ محمد أبو عبدالعزيز المهدوي رضي اللّه عنه: «من لم يكن في دعائه تاركاً لاختياره راضياً باختيار اللّه تعالى فهو مستدرَج مغرور وهو ممن قيل له: «اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته»، فإن كان مع اختيار الحق تعالى له، لا مع اختياره لنفسه، كان مجاباً وإن لم يعط، والأعمال بخواتيمها»اهـ.

وإنما كان الامتثال والاستسلام أعظم منه لأنه:

ليس كل من ثبت تخصيصه.

بالخصائص من الكرامات والعلوم وغيرها.

كمل تخليصه.

من العلل والآفات ونحوها، ولذلك لمَّا ذكر عند سهل رضي اللّه عنه: «شيء في الكرامات والآيات، فقال: وما الآية، وما الكرامات، هي أشياء تنقضي لوقتها عندي من مكّنه اللّه من أن يبدّل خُلقاً مذموماً بخلق محمود أفضل حالاً من صاحبها».

وقال بعضهم: «ليس العجب ممن يدخل يده في جيبه فينفق، إنما العجب ممن يدخل يده في جيبه لشيء وضعه هناك فلم يجده، فلم يتغيّر».

وقيل لأبي يزيد رضي اللّه عنه: «إن فلاناً يمشي على الماء!!

قال: الحوتُ أعجب من ذلك؛ إذ هو شأنه.

وقيل له: إن فلاناً يطير في الهواء!!

قال: الطير أعجب من ذلك إذ هو حاله.

وقيل له: إن فلاناً يمشي إلى مكة ويرجع من يومه!!

قال: إبليس يطوف الأرض كلّها في لحظة وهو في لعنة اللَّه»اهـ.

وقال يحيى بن معاذ رضي اللَّه عنه: «إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبدال، وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء فطريقه طريق العارفين وهو أعلى درجة من الجميع»اهـ.

ففهم أن الكرامات أدنى المراتب.

وفي «لطائف المنن» فيها كلام طويل واللَّه الموفّق للصواب.

الباب الثاني عشر

وقال رضي اللّه عنه:

مُبيّناً أحكام الأوراد ومنبهاً على المقصود منها والمراد.

لا يستحقر الورد.

الذي هو إقامة الطاعة في الأوقات.

إلا جهول.

بحق ربّه وبحظِّ نفسه لأنه استحقر ما عظَّم مولاهُ ولم يعمل في أسباب نجاته وفوزه.

إذ الوارد.

الذي هو ثواب الورد وثمراته.

يوجد في الدار الآخرة.

حسب ما جاء به الوعد الصدق.

والورد.

الذي به حصول الوارد.

ينطوي بانطواء هذه الدار.

فبحسب انطوائه انطواء ثمرته إذ زيادتها زيادة فيه، ونقصانها نقص فيه وهو لا يخلف.

وأولى ما يعتني به.

ويجهد في تحصيله ما لم.

يخلف وجوده.

لفواته وذلك كل وقت ونفس من أوقات العبد وأنفاسه.

لذلك قال أبو سليمان لابن أبي الحواري[١]:

---

(١) أحمد بن أبي الحواري، أبو الحسن، من أهل دمشق، صحب أبا سليمان الدَّاراني وسفيان بن عيينة، كان من العارفين توفي سنة (٢٣٠هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٩٩) رقم (١٢)، وشذرات الذهب (٢/ ١١٠).

«يا أحمد، جوع قليل، وعري قليل، وصبر قليل وقد انفضت عنك أيام الدنيا»اهـ.

ثم الورد هو طالبه منك.

فهو حقّه عليك.

والوارد أنت تطلبه منه.

فهو حظّك منه.

وأين ما هو طالبه منك.

من حقِّه الواجب وأمره اللازم.

مما هو مطلبك منه.

من حظّك الناقص وغرضك القالص[1]!! قضاء اللّه أحق وشرط اللّه أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق.

وقد قالوا: «كن طالب الاستقامة، ولا تكن طالب الكرامة، فإنَّ نفْسَك تهتز بطلب الكرامة، ومولاك يطالبك بالاستقامة، وَلأَن تكون بحقِّ ربك خير من أن تكون بحظِّ نفسك».

وقال أبو سليمان رضي اللّه عنه: «لو خيّرتُ بين ركعتين ودخول الفردوس لاخترت الركعتين؛ لأني في الركعتين بحق ربّي وفي الفردوس بحظ نفسي» انتهى ـ فبان تفضيل الورد على الوارد.

ورود الإمداد.

من ثواب وغيره.

بحسب الاستعداد.

من إقامة ورد ونحوه، فمن كمل استعداده حصل مراده.

قال رسول اللّه ﷺ: يقول اللّه تعالى يوم القيامة: «ادخلوا الجنة برحمتي وتقاسموها بأعمالكم»[2]، وتلا قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

---

(١) تدانى وانضم. انظر المعجم الوسيط ص(٧٥٥).

(٢) ورد بلفظ «اقتسموها على قدر أعمالكم» ورد في روح المعاني (٣/ ٢٣٥).

وأيضاً شروق الأنوار.

اليقينية الإيمانية.

على حسب صفاء الأسرار.

القلبية، وصفاء الأسرار القلبية على قدر البعد من الأغيار بحسب الأوراد والأذكار.

قال في «لطائف المنن»: «واعلموا أن اللّه تعالى أودع أنوار المكنونات في أصناف الطاعات، فإن من فاته من الطاعات صنف وأعوزه من الموافقات جنس فقد فاته من النور بمقدار ذلك.

فلا تهملوا شيئاً من الطاعات، ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات، ولا ترضوا لأنفسكم بما رضي المدّعون بجري الحقائق على ألسنتهم، وخلوِّها من قلوبهم» انتهى.

والناس قسمان: عاقل، وغير عاقل.

فالغافل إذا أصبح نظر فبما يفعل.

من أمور دينه ودنياه، فإن فاته مقصوده تكدَّرت حاله وتغيَّر مزاجه؛ لاستشعاره فوات المقصود بفوات سببه، وذلك من اعتماده على عمله، فهو في نقص دائم مع ظنه الكمال.

والعاقل ينظر ماذا يفعل اللّه به.

تكليفاً فيطلبه، وتصريفاً فيرضى به ويستسلم له، فهو لا يعامل وقته إلَّا بما اقتضاه أمرُه، لذلك قال أبو أيوب السختياني رضي اللّه عنه: «إذا لم يكن ما تريد فأرِدْ ما يكون».

وقال عمر بن عبدالعزيز[1] رضي اللّه عنه: «أصبحت وما لي سرور إلَّا في مواقع القدر».

وقال الشيخ أبو مدين رضي اللّه عنه: «إحرص على أن تصبح مفوّضاً مستسلماً لعلَّهُ ينظر إليك فيرحمك».

---

(١) عمر بن عبدالعزيز بن مروان أمير المؤمنين وخامس الخلفاء الراشدين أشج بني أمية، حدّث عن سعيد بن المسيب، كان من أئمة الاجتهاد، توفي سنة (١٠١هـ). انظر سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤) رقم (٤٨)، والأعلام (٥/ ٥٠).

وقال عبدالواحد بن أبي زيد رضي اللَّه عنه: «الرضا باب اللَّه الأعظم ومستراح العابدين وجنّة الدنيا».

وكان سيدي رضي اللَّه عنه كلما دخلت عليه أنشدني هذين البيتين، ويقول إنهما لبعض العارفين:

أتبع رياحَ القضا ودُرْ لها حيثُ دارت
وسلّم لها تسلماً وسِرْ بها حيث سارت

والمقصود: أن العبد يعزم على طاعة مولاه بلا تقصير؛ فإن قصَّر به الحال فلا ينبغي أن يرجع إلى عيب نفسه، إلَّا أن يكون ذلك عن سبب منه، وشاهده في قضيته أهل الوادي؛ إذ ناموا عن الصلاة فقال عليه الصلاة والسلام: «لا روع عليكم إن اللَّه قبض أرواحكم...»[1].

وحديث عليّ إذ سأله عن سبب عدم صلاته من الليل فقال: إن اللَّه قبض أرواحنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً»[2]، فافهم ما أشرنا إليه.

إنما استوحش العباد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن اللَّه في كل شيء.

قلت: العبَّاد عاملون على التحصيل فهم مستوحشون من الخلق لاستشعارهم فواته بمخالطتهم لأحد وجوه ثلاثة:

الاشتغال بمعالجة أمرهم، ونظر النفس لما يجري من قِبَلِهم، ونقص العمل بما يقع منهم إقبالاً وإدباراً في جهتهم، إذ يمنعون من العبادة أو يشغلون عن كمالها فيدخل بسببهم النقص عليها.

والزهَّاد عاملون على السلامة فيستوحشون من الخلق لِمَا يخشونه من دخول العلل والآفات عليهم كالتلوُّن في الحال، والتقصير في العمل ودخول ما لا يعني في المعاملات، وكل ذلك من رؤية النفس والخلائق في النفي والإثبات وهو علامة خلوّ القلب من مشاهدة الحق بالخلق كما قال:

فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء.

قلت: بل كانوا يستأنسون بكل شيء لرؤية مطلوبهم في كل شيء ورجوعهم

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٢١٤) رقم (٥٧٠)، والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٢٩٦) رقم (٩١٩)، وأبو داود في السنن (١/ ١٢٠) رقم (٤٣٩)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٠٧) رقم (٢٢٦٦٤).

(٢) سبق تخريجه ص (٣٧).

له بكل شيء؛ إذ غلب على قلوبهم النظر إليه دون كل شيء، فهم مستأْنسون بكل شيء من أجل ظهور نسبته فيه، مستوحشون من كل شيء لعدم تعلقهم بذلك الشيء»اهـ.

سمعت شيخنا أبا العباس الحضرمي، رضي اللّه عنه يقول: «ليس الرجل الذي لا يدخل الظلمة، ولا الذي يدخل الظلمة بالظلمة، إنما الرجل الذي يدخل الظلمة بالنور». وقال أيضاً رضي اللّه عنه: «ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرّقها، إنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها». قلت: وذلك لأنها حيَّة، وليس الشأن في قتل الحيَّة، إنما الشأن في إمساكها.

وفي الحديث: «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[(١)].

ثم من فوائد مشاهدة الخلائق: التحقق في التوحيد، والمعرفة برؤية المختلفات، لأن لها أثراً في النفس بخلاف الأمور المتجَردة من وجه واحد، والرؤية في تلك الدار بالبصر على قدرها في هذه الدار بالبصيرة، فأعظم الناس معرفة أكثرهم في الآخرة رؤيةً، لا أكثرهم عبادة، وأقواهم زهداً، فلزم مراعاة السبب لتحصيل المسبب. وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته. وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته.

قلت: فتراه في تلك الدار بالباصرة كما رأيته في هذه الدار بالبصيرة وذلك بقدر قوة المعرفة، ومقوياتُها مشاهدةُ المختلفات من أفعال الخلق، ولذلك اختار الأكابرُ من العارفين سُكْنَى المدن العظام التي يشاهد فيها الآثار الغريبة والمختلفة كثيراً.

ومن تأمَّل ذلك وجده واضحاً.

وقد سئل بعضهم: «كيف يُرى اللَّهُ في الآخرة؟

فقال: هي رؤية وجود، لا أنه في مكان محدود.

وقال بعضهم: يُرِي نفسَه لمخلوقاته، وليس في جهة من نفسه ولا من مخلوقاته».

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٣) رقم (٥٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٠٥) رقم (٣٤٥٤٤). والطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٦٢) رقم (٦٠٥) وأحمد في المسند (٢/ ٤٠٠) رقم (٩١٨٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ١٣١) رقم (٥٧٤٤).

وقال بعضهم في حديث الساق: إن العلامة التي بينهم وبينه معرفتهم إيَّاه بلا كيف. قلت: وعلم ذلك حاصل من شواهد الصنع؛ إذ لا وصول إليه إلّا بذلك كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه.

قلت: إنما لا تصبر عنه لثلاثة أمور:

إفتقارك إليه، وإحسانه إليك، وكمال جماله الذي لا حسن فوقه ولا مزيد عليه، وإنما أحالك على ما برز منه لأنه لا وصول إليه إلا بذلك، لأن عين الحدَثِ لا تنفتح لشعاع شمس الأزل، فالمخلوق إنما ينتهي إلى مثله، وإنما يعرف ما كان من شكله، فتقدير كلام المؤلف: علم منك أنك لا تصبر عنه لما أنت عليه من الاحتياج وما هو عليه من الكمال فأشهدك ما برز منه إذ لا وصول إليه إلا به. فافهم.

وكما تنوَّعت الموجودات بالاعتبار والتوجّه تنوعت العبادات للاذِّكار والإعانة. وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

لما علم الحق منك وجود الملل لوّن لك الطاعات وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك في الأوقات.

قلت: الملل: ثقل في النفس عن العمل يعرض من الإكثار.

والشره: خفة تدعُو للإكثار والتعجيل، ثم هي داعية الملل التي بسببها يحدث ويجري، فلما كانت الأعمال متلونةً انتفى الملل بالاستراحة من لون إلى لون فيها.

ولما كان لكل عمل وقت انتفى الشره بالحجر.

وفي الشّره آفات ثلاث:

تأديتُه إلى الملل المؤدّي للترك أو النقص، ووقوع الإعجاب برؤية الجملة التي لها أثر في النفس بخلاف ما تفرَّق، وحصولُ الدعوى بالتشمير.

وقد قيل: مثل النفس في شرّها كذبابٍ مرّ برغيف عليه عسل فوقع فيه يطلب لأكله فلزق بين جناحيه فقتله. وآخرَ أتاه من أوله حتى خرج من آخره سليماً. فافهم.

ثم ما وقع من التلوين والحجر، فيه ثلاثة أمور:

إعانة للموفّق، وحُجة على المخذول، وكرامة للمحقق بتيسير أسباب العبودية. واللّه أعلم.

وإذا كان الأمر كذلك فالواجب ما ذكر إذ قال:

لتكون همتك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة.

قلت: لأن ذلك هو المقصود منك، إذ لو كان المقصود الوجودَ ما كان حجر ولا غيره. وإقامة الصلاة: القيام بحقوقها وحدودها الشرطية، والكمالية، بقدر الطاقة، فإن ذلك يختلف باختلاف الناس كما قال:

فما كل مصل مقيم.

قلت: ولا كلُّ مقيم مقيمٌ، ولا كل عامل مستقيم.

قال القاضي أبو بكر بن العربي[١] رضي اللَّه عنه، في قول عمر، رضي اللَّه عنه: «من حفظها وحافظ عليها»، ولقد رأيت من يحافظ عليها آلافاً لا أحصيها، فأما من يحفظها بالخشوع والإقبال فما أَعُدُّ منهم خمسة»[٢]، انتهى بتقريب لمعناه.

ثم في الصلاة ستُّ خصال، هي علامة الإقامة. ذكر المؤلف أوَّلها بأن قال:

الصلاة طهارة للقلوب واستفتاح لباب الغيوب.

قلت: طهارة القلوب من الذنوب، إذ أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتكفِّر السيئات، وتفتح أبواب الغيوب بما فيها من التجليات التي أشار إليها بأن قال:

الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة.

قلت: لأنها محل لقرب العبد من ربِّه، والوقوف بين يدي مولاه بلا واسطة سوى ذكره. والقيام بوظائف العبودية على المواجهة والمعاينة، وتفسير ذلك في حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، يقول اللَّه تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل إذا قال: «الحمد للَّه رب العالمين، يقول اللَّه تعالى: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال: الرحمن الرحيم، قال اللَّه: مجّدني عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال اللَّه تعالى: فوّض إليّ عبدي، فإذا قال: إيّاك نعبد وإياك نستعين، قال اللَّه: هذه لعبدي ولعبدي ما سأل...»[٣] الحديث.

---

(١) محمد بن عبداللَّه بن محمد بن عبداللَّه ابن العربي الأندلسي الأشبيلي المالكي، ولد سنة (٤٦٨هـ)، جال في بغداد ودمشق وبيت المقدس وبمصر أخذ عن الإمام الغزالي والشاشي، عاد إلى الأندلس، له مؤلفات عدة، توفي سنة (٥٤٣هـ). انظر سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٧) رقم (١٢٨).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٦) رقم (٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٩٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٣/ ٥٤) رقم (٧٧٦)، وابن خزيمة في الصحيح (١/ ٢٥٢) رقم =

والمناجاة لغة: المسارَرة، والمصافاة من الصفاء، فالعبد يصافي ربه بقلبه فيصافيه ربّه بما يلقيه إليه من رحمته، ويسارِره بما في نفسه فيلقي إليه من أَسراره ما يليق به ويقابله بما ذكر من خطابه، وإلا فالربُّ تعالى منزَّه عن المسارَرة الحسيَّة المعهودة في قياس البشرية، ثم زاد في شأن الصلاة فقال:

تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار.

قلت: المراد بالأسرار هنا: دقائق العلوم والمعارف، وقد يراد بها قوابل المعلومات: والأول أولى فيجد المصلي في كل سورة معنى، بل من كل آية، بل من كل حرف، ويتجدد ذلك عليه بتجدّد الأيام والأوقات على قدر الفيض والقصد والهمَّة وتشرق فيها شوارق الأنوار كذلك؛ فهي الجامعة للعلوم والمعارف والإشارات والدقائق واللطائف وغيرها مما هو معلوم ويسري حتى إلى الجوارح والقوالب فيظهر عليها سمة الباطن ونورُ العمل وأسراره حتى لقد قيل: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار».

وقال الشيخ أبو عبداللّه محمد بن الترمذي[1] رضي اللّه عنه: «دعا اللّه الموحّدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم، وهيأ لهم ألوان الضيافات لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه، فالأفعال كالأطعمة، والأقوال كالأشربة. فهي عُرُس الموحّدين هيأها ربّ العالمين لأهل رحمته في كل يوم خمس مرات، حتى لا يَبْقَى عليهم دنس ولا غبار» انتهى.

وقد ذكره في «التنبيه» مع نقول وأقوال أخرى يطول ذكرها، فانظر ذلك وباللّه التوفيق. ثم مع هذه الفوائد العظيمة فالحق سبحانه قد أعان عليها بكثرة ثوابها وقلة أَعدادها كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

علم وجود الضعف منك فقلّل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثّر إمدادها.

قلت: وذلك بأن جعل ثواب الخمس خمسين، إذ الحسنة بعشر أمثالها، وكان قد أوجب خمسين ثم حطّها إلى الخمس، وخاطب نبيّه محمداً في ذلك

= (٥٠٢)، ومسلم في الصحيح (١/ ٢٩٧) رقم (٣٩٥)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٢٤٣) رقم (٣٧٨٤). والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٣١٦) رقم (٩٨١).

(١) محمد بن علي بن الحسن الترمذي، أبو عبداللّه، صحب يحيى الجلاء وأحمد بن خضرويه ولقي أبا تراب النشخبي، من كبار مشايخ خراسان. انظر طبقات الصوفية ص(٢١٧) رقم (١٢) وحلية الأولياء (١٠/ ٢٣٣).

بقوله: «هنَّ خمس وهُنّ خمسون، ما يبدّل القول لديَّ الحسنة بعشر أمثالها وأزيد السيئة بمثلها وأغفر...»[1] الحديث.

ثم شأن القوم إنما يذكرون الثواب لاستشعار فضله تعالى وكرمه لا لقصد العوض؛ فلذلك كل ما ذكره المؤلف عقّبه بما ينفي قصده فذكر ذلك هنا بأن قال:

متى طلبت عوضاً عن عمل طولبت بوجود الصدق فيه.

قلت: لأن الجزاء لا يكون إلَّا على كامل في ذاته وقصده، فهو يحتاج إلى التخليص من الشوائب والإخلاص في القصد، وجامع ذلك كلّه حصول الصدق، وهو لا يتم إلَّا بالتبرّي من الحول والقوة، والتبرِّي لا يصح مع رؤية العمل فضلاً عن طلب ثوابه لاستغراقه بشهود المنَّة، هذا وأعمالنا خليَّة عن الإخلاص والتخليص لما نحن عليه من النقص والتخليط، فالأَوْلى بنا الفرار إلى اللَّه تعالى كما قال خير النسَّاج رضي اللَّه عنه: «ميراث أعمالك ما يليق بأفعالك، فاطلب ميراث فضله وكرمه فهو أَوْلى بك»اهـ.

ثم نبّه المؤلف على أنَّ الشرط المذكور مفقود فقال:

ويكفي المريب غنيمته وجدانه السلامة.

قلت: إذا كانت أعمالك مدخولة وأفعالك معلولة فأنت صاحبُ ريبة، وما كان كذلك فرأس غنيمته السلامة من عقوبة ما هو عليه في عمله فضلاً عن غيره، فافهم.

ثم أقام المؤلف الحجة على ما ذكر بأن قال:

لا تطلب عوضاً عن عمل لست له فاعلاً.

قلت: بل الفاعل له مولاك، وبحسب هذا فقصدك فيه بأن لا تطلب العوض عليه، لأنك لا تطلب العوض على فعل غيرك، وذلك قبيح مردود في الجملة وعلى التفصيل.

وبالجملة فلا عوض إلا بعد صدق، ولا صدق إلا بعدم طلب العوض، فلزم الثاني للزوم الأول. واللَّه أعلم. ثم قال:

يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلاً.

قلت: لما هو عليه من العلل والآفات فوجب الرجوع إلى اللَّه بالافتقار

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٠٨)، وابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٣).

المحْض فيما عنده دون وسيلة، ولا سبب، لأن الأعمال كلّها مدخولة ومع اندخالها فهي منّة وإفضال فلا استحقاق بها على كل حال فافهم. ثم جملة الأمر وكماله فيما ذكره إذ قال:

إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق لك العمل ونسبه إليك.

قلت: يعني خلق القدرة لك على العمل ووفّقك إليه، وأعانك فيه، وردّ نسبته إليك، فهو سبحانه خلق الطاعة ونسبها إلينا، وأثابنا عليها ولسنا بأهل لذلك كما نبّه عليه المؤلف بأن قال:

لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك.

قلت: لأنك من حيث أنت محلُّ كل نقص وريبة، ومن حيث فضله مَظْهرُ كلّ خير وإفضال، حدّث عن البحر في الوجهين ولا حرج.

تنبيه:

رأس الورد نسيان وجوده بوجوده، وهذا الذي افتتح به:

الباب الثالث عشر

إذ قال: وقال رضي اللّه عنه:

كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً.

قلت: أوصاف الربوبية أربعة: هي الغنى، والعزُّ، والقدرة، والقوة. والتعلّق بها أن تكون ناظراً إليها، معتمداً عليها، دون نظر لشيء سواها.

وأوصاف العبودية أربعة، هي: الفقر، والذل، والعجز، والضعف. والتحقّق بها أن تراها لازمة لك فلا تنفك عن النظر إليها في حال من أحوالك.

ثم التعلُّق بأوصافه يقتضي التحقق بأوصافك، والتحقق بأوصافك يُفْضي بك إلى التعلق بأوصافه. لكن يختلف البساط، فتارة يغلب عليك الغنى باللّه، وتارة يغلب عليك الفقر إلى اللّه، فإذا غلب عليك الغنى باللّه انبسطت بإحسانه، وإذا غلب عليك الفقر إليه رجعت إليه بمواقف الأدب.

فالأوّل: محل البسط والكرامة.

والثاني: موقف الأدب والتعظيم.

هذا رسول اللّه ﷺ أشبع ألفاً من صاع إظهاراً للغنى باللّه[١]، وشدّ على بطنه حجراً من الجوع إظهاراً للفقر إلى اللّه[٢].

وإنما أظهر الأول في محل احتياج الناس إليه وفقاً لمقصوده، وتنمية لأحواله. وأظهر الثاني لتأديبهم وتعليمهم وهو المقصود.

ولذلك ما كان يظهر شيئاً من الخوارق إلّا في محل الاحتياج وخوفَ تزلزل الضعفاء، ومن تأمَّل السِّيرَ، عرف ذلك. وباللّه التوفيق.

ثم التحقق بأوصافك من التحلّي بأوصافه تحلية توجب عليك التحفُّظ من الدعوى، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٧/ ٢٧٤) وكانت الحادثة يوم الخندق والصاع كان من الشعير.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٧٧) رقم (١/ ٣٦٨)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٠٠) رقم (١٤٢٤٩)، و(٣/ ٣٠١) رقم (١٤٢٥٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/ ١٠٦) رقم (٢٧٥).

منعك من أن تدعي ما ليس لك مما للمخلوقين أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين.

قلت: ظهور وصفه عليك وتحلِّيك به كمالٌ يليق بك، بحيث تصير غنياً به، عزيزاً به، قادراً به، قوياً به، حتى تصير «باسم اللَّه» منك موافقة «يكُنْ» من اللَّه، فلا تريد شيئاً إلَّا كان، ولا تفتقر لشيء ولا تذل له ولا به ولا تضعف عن شيء، ولا تعجز عن شيء، بل تكون قادراً على كل شيء بمولاك غنياً به عن كل شيء، عزيزاً به في كل شيء، قوياً به عند كل شيء، لا يسوغ لك ادّعاء شيء من ذلك، بل يؤكد عليك الرجوعَ إلى وصفك والقيام معه من الفقر والذل والعجز والضعف لأنَّ ما بيدك عارية مجازية، والعارية مؤدّاة، والمجاز مرفوع بالحقيقة فالزم التذلل والافتقار في جميع أحوالك. فافهم.

ثم المنع المذكور واقعٌ شرعاً ومروءة وحكمة، فيحرم ادّعاء ملك الغير ولا يليق من حيث المروءة والنفوس متسلطة على ذلك بمقتضى الغَيْرة التي جُبلت عليها.

وكل ذلك فيما ذكر فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «لا أحد أغيْر من اللَّه...»[1] الحديث.

والغيْرة في حقِّه منع ما هو له من وصفٍ أو حقٍ أن يكون لغيره، لا كما يفهم في حق المخلوقات من العرض والجبلَّة.

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: يقول اللَّه تعالى: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي من نازعني فيهما قذفته في النار...»[2] الحديث.

يريد: أنهما وصفان مختصان به تعالى فمن ادّعاهما كان كمن يدّعي إزار شخص وقميصه لا يمكنه أن يسلم له فيه إلَّا بعجزه، ولا عجز للَّه تعالى، فوجب هلاكه، وللَّه المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم.

ثم ظهور حلية الأوصاف عليك لا يصحّ إلّا بخروجك عنه كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٦٩٩) رقم (٤٣٦١)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢١١٤) رقم (٢٧٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٢٩) رقم (٢٦٥٧٩)، وأبو عبداللَّه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٣١) رقم (١٤٦٤).

كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك من العوائد.

قلت: خروق العوائد لك بظهور ما ليس من شأنك على يديك واتّصافك بما لا يقتضيه وصفك من الكمالات الجارية عليك كما يليق بك.

وعلامة ذلك: جري الكرامات والدلائل على يديك.

وخرق العوائد منك بترك مألوفاتك وعاداتك الرديئة، وذلك كله مجموع في تحققك بأوصافك وتعلقك بأوصافه، فإن قمت بذلك كان لك ما تريد كما تريد، وإلا فأنت بعيد، لأن الجزاء من جنس العمل أبداً.

فمن خرق عوائده خرقت له العوائد على نسبة ذلك، وإلّا بقي حيث كان.

قيل لبعض المختصّين: بِمَ أدركتَ ما أدركتَ؟

قال: «وحّدته بأفضل التوحيد، وخدمته خدمة العبيد، وأطعته فيما أمرني ونهاني، فكلّما سألته أعطاني» انتهى.

وفي الإشارة عن اللّه سبحانه: «عبدي أنا الذي أقول للشيء كن فيكون، فأطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون»[(١)].

وفي الصحيح: يقول اللّه تعالى: (ما تقرّب إليّ المتقرّبون بمثل أداء ما افترضته عليهم، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً فلئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه...)[(٢)]، وهو عبارة عن غاية الإكرام بالتصرف، دون حَجر ولا توقف.

ثم مجموع خرق العوائد من نفسك في التزام الأدب، لا في الجدّ في الطلب وهو ما بيّنه إذ قال:

ما الشأن وجود الطلب إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب.

قلت: يقول: ليس الشأن في هذا الطريق وجود الطلب، لأن ما عند اللّه لا يُنال بالأسباب. وإنما الشأن أن تُرزق حسنَ الأدب؛ لأن به تتحقق العبودية، وقد قال اللّه تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، لم يقل أكثرهم طلباً، ولا أعظمهم جدّاً فيه.

والأدب يختلف باختلاف الأقوال والأحوال، لكنه يرجع لثلاثة:

---

(١) نسبه ابن تيمية أنه جاء في الأثر. انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٥/ ٢٣٨٤) رقم (٦١٣٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٠٦) رقم (٧٨٣٣).

إقامة الفرائض، واتباع السنن، ومجاملة الخلق. كما قال عليه الصلاة والسلام: «اتق اللّه حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[(١)]، وهذه هي الأصول التي من تركها حُرِم الوصول. واللّه أعلم.

ثم رأس الآداب كلها راجع للزوم وصفك مع التعلُّق بوصفه، وذلك بما ذكره بأن قال:

ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار.

قلت: لأن ذلك يقتضي الرجوع إليه بلا علة، والوقوف بين يديه على نعت المسكنة والذلَّة، وخير أوقاتك وقت تشهد فيه ما فاتك وتُردّ فيه إلى وجود ذلَّتك. وأنشدوا في ذلك:

أدب العبيد تذلل والعبد لا يَدَع الأدب
فإذا تكامل ذلَّة نال المودَّة واقترب

والظاهر أن الاضطرار هو فاعل الطلب، فالتقدير: ما طلب لك الحوائجَ من اللّه مثل الاضطرار، ولا أسرع لك بالمواهب منه، لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ . . .﴾ [النمل: ٦٢] الآية.

ويحتمل أن يكون المراد: لا مطلوب منك مثل الاضطرار، وذلك لأنه متيسّر عليك إذ هو وصفك، وبه تصل إلى رضوان اللّه مولاك.

قال أبو يزيد رضي اللّه عنه: «قيل لي جرابك مملوء بالخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار».

ومن فوائد الفاقات ثلاث: الإعراضُ عن الكل، والإقبال على الحق بالكل، ووقوف العبد عند حدِّه دون دعوى، وفي ذلك جملة الخير وكماله.

ومن أسباب ذلك: العلم بما أنت عليه من النقص في حالك حتى أن أعمالك كلها مساوئ وحقائقك كلها دعاوى كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً.

قلت: لأنها لا تتناهى، لكثرتها، وتسلسلها وتواترها وتواردها على كل شيء منك، طاعة كانت أو غيرها، حتى إنك إذا تأملت وجدت أعمالك كلها دعاوى ولو

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٢١) رقم (١٧٨)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٣٥٥) رقم (١٩٨٧)، والدارمي في السنن (٢/ ٤١٥) رقم (٢٧٩١)، والطبراني في المعجم الصغير (١/ ٣٢٠) رقم (٥٣٠).

كنت أصدق الصادقين، وتجد أحوالك كلها دعاوى ولو كنت أخلص المخلصين، وقد نبَّه على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، فافهم وهذا ما قال:

ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه فوصلك إليه بما منّه إليك:

من إحسان، وستر، وإفضال.

لا بما منك إليه.

من أحوال، وعلوم، وأعمال.

تنبيه:

خاتمة هذا الباب مع الذي يليه ظاهرة المناسبة؛ لأنها إذا كانت الدعاوى والمساوئ لا تنقضي فليس إلَّا جميل ستره كما قال:

الباب الرابع عشر

وغطّى نعتك بنعته.

فغمس فقرك في غناه، وضعفك في قوته، وعجزك في قدرته وذلّك في عزّته، فظهر عليك الكمال به لا بنفسك كما قال:

وقال رضي اللّه عنه: لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول.

قلت: بل ولا للوجود؛ لأن النفس مجبولة على ضدّ الخير فلا تعمله إلّا بوقاية تكون بينها وبين وصفها الأصلي، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وبعد الدخول في العمل فهي أصل العلل والآفات، فلا يصدر منها إلّا ناقص وإن صدر كاملاً لحقته العلل من الملاحظات وطلب الأعواض والأغراض، فالعمل يحتاج إلى التخليص والإخلاص، وهما مفقودان، أو في حكم المفقودين، فالقبول من فضل اللّه وكرمه دون واسطة، وقد قال الشيخ أبو عبداللّه القرشي رضي اللّه عنه: «إذا طالبهم بالإخلاص تلاشت أعمالهم، وإذا تلاشت أعمالهم زاد فقرهم وفاقتهم فتبرَّؤوا عن كل شيء لهم ومنهم»اهـ.

ومن بيان ذلك ما ذكره فقال:

أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته.

قلت: لأنك في الطاعة مصحوب بالعلل والدعاوى والآفات من الرياء والعجب والنظر إلى نفسك وعدم التحفظ وقلة الاحترام مع الغفلة عن ذلك كلّه، وفي المعصية مصحوب بالافتقار والاضطرار، مقرون بالذلّة والاحتقار، وقد جاء عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «أوحى اللّه تعالى إلى نبيٍّ من الأنبياء: قل لعبادي الصديقين لا يغترّوا؛ فإني إن أُقم عليهم عدلي وقسطي أعذبهم غير ظالم لهم، وقلْ لعبادي المذنبين لا تقنطوا؛ فإنه لا يكبر عليّ ذنب أغفره لهم»[1].

وقال أبو القاسم النصرآباذي رضي اللّه عنه: «العبادات إلى طلب العفو عن تقصيرها أحوج منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها».

وقال أبو يزيد رضي اللّه عنه: «توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٤٨).

توبة». ولا يختص الستر بالواقع بل يجري في الواقع والمتوقَّع كما بيَّنه المؤلف إذ قال:

الستر على قسمين: ستر عن المعصية، وستر فيها.

قلت: فالستر عنها حجاب بين العبد وبينها حتى لا يراها، وإذا رآها فلا يستحسنها، وإذا استحسنها فلا يقع فيها: عصمة من اللّه لمن عصمه، وحفظ منه لمن حفظه.

والعصمة: الامتناع من الذنب مع استحالة الوقوع فيه، وذلك واجب الأنبياء عليهم السلام.

والحفظ: الامتناع من الذنب مع جواز الوقوع فيه، والكل بستره الجميل وفضله الكامل، وإلَّا فلا عاصم من أمر اللّه إلَّا من رحم.

والستر فيها: حجاب عن الفضيحة بعد الوقوع.

والناس في ذلك نوعان، ذكرهما المؤلف بأَن قال:

العامة يطلبون الستر من اللّه فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق.

قلت: فهم لا يفرُّون منها أولاً وابتداء ولا يرون الفضيحة آخراً وانتهاء، ولذلك صح منهم الرياء والتصنع تستراً وتجملاً، وذلك من قصور همّهم ونقص إيمانهم. وإذا وجدوها دون فضيحة لم يرجعوا عنها.

ثم إذا كان طلبهم للستر فرارهم من ذلك شفقة على عباد اللّه من الوقيعة فهم أولى لافتدائهم ونحو ذلك، فقد يُرجى لهم لا سيما إن اقترن ذلك بالتوبة والإنابة واللّه أعلم.

ثم قال:

والخاصة يطلبون الستر عنها خشية سقوطهم من نظر اللّه الملك الحق.

قلت: فهم يفرُّون منها ابتداء وإن طلبوا سترها انتهاء، فلا يضرهم ذلك، وذلك من تعظيمهم لمولاهم، وتحقق إيمانهم، ثم هم فيه على مراتبهم، فمنهم من يطلب ذلك لخوف العذاب، ومنهم من يطلبه لخوف الحجاب، ومنهم من يطلبه خوفاً من فوات الثواب، ومنهم من يطلبه إشفاقاً من الطرد عن الباب، ومنهم من يطلبه اتقاء للطرد عن الباب والإبعاد عن الجناب... إلى غير ذلك.

وكل ذلك راجع لما ذكر من السقوط من نظر الملك الحق على وجه الإشفاق والرحمة، لأن ذلك يقتضي فوت كل خير وحصول كل شرٍّ. وأكملهم من يطلب

ذلك حياء وهيبة وإجلالاً وتعظيماً حتى لو غفر ذنبه ما سقط خجله كما قال الفضيل بن عياض[١] رحمه اللَّه: «وآسوأتاه منك وإن غفرتَ» انتهى.

وقد يتركب من القسمين قسم ثالث، وهو طلب الستر فيها إذا حصلت وعنها إذا لم تحصل وذلك مقتضى الحقيقة والشريعة، لكن إنْ كان ذلك من حيث ما أمر اللَّه فصحيح مليح، وإلا فالالتفات للخلائق نقص. واللَّه الموفق.

وإذا كان المانع من المعصية وجود الستر عنها، ومن الفضيحة فيها ذلك فإكرام الخلق إذن راجع لستره سواء كنت مطيعاً أو عاصياً. وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره.

قلت: وذلك لأنك من حيث أنت محل كل عيب أصلاً وفضلاً سواء كنت مطيعاً أو عاصياً، منعَّماً كنت أو مُبْتلًى، فاللَّه درُّ القائل: «ما هناك إلَّا فضله، ولا تعيش إلَّا في ستره، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم».

فالعباد إنما يتعاملون بستر اللَّه سبحانه؛ إذ لو كشف البواطن والضمائر ما نظر أحدٌ في أحد، ولقلا الإنسان أحبَّ الناس، فوجب الحمد لربنا على ستره كما قال:

فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك.

قلت: إذ لولا وجود ستره ما جرى لك شكر من غيره، فلا تحمدن أحداً على فضل اللَّه، ولا تذمنَّ أحداً على ما لم يؤتك اللَّه، وإن كان شكر الخلائق واجباً، فمن حيث إنه مأمور به صار من شكر اللَّه، وسرُّ وجوبه التحرُّر من رق إحسانهم والقيام بمجازاة امتنانهم، فمجاز الشكر لمن له مجاز الإحسان، وحقيقة الشكر لمن له حقيقة الفضل والامتنان. فافهم.

ومن برهان ما ذكر من أن المشكور فينا ستره أن علم أن الخلائق بعيوبنا يوجب نفرتهم عنا، وهو تعالى عليم بخفيِّ الخفيِّ من أمرنا، ومع هذا أجرى فضله وإحسانه علينا. وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي الخراساني، أبو علي ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد وقيل أصله من بخارى، توفي سنة (١٨٧هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٦) رقم (١) وحلية الأولياء (٨/ ٨٤).

ما صحبك إلا من صحبك وهو بعيبك عليم وليس ذلك إلا من مولاك الكريم.

قلت: يقول ما صحبك حقَّ الصحبة إلَّا من صحبك مع علمه بعيبك تفصيلاً، واطلع عليه تأصيلاً وتحصيلاً، لأنه لا يتركك بزلة ولا يردُّك بنقص، ويرفق بك في كل حال من أحوالك، ولا يعلم عيبك على التفصيل إلا خالقُك ومولاك، ثم مع ذلك فهو يأمرك وينهاك وتعصي أمره فلا يدعك لأحدٍ من خلقه، بل يرأف بك رأفة تدعوك للانحياش إليه إن غفلتَ، ولو علم الخلائق بعض البعض مما علم اللّه منك ما نظروا إليك، بل كانوا يرجمُونك ويؤذونك على فعلك إلَّا من هو ناظر إليك بربك، متخلقاً بالرحمة الإلَهية في حفظك، وقليلٌ ما هم: بل أقل من القليل، وللّه درُّ القائل:

جنّب الناس جانباً ... وارض باللّه صاحبا
وقلّب الناس كيف شئت ... تجدهم عقاربا

ثم ذكر المؤلف برهاناً آخر يدعو إلى الانحياش إلى اللّه، وتركِ ما سواه، كالذي قبله والذي قبلهما فقال:

خير من تصحبه من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه.

قلت: وليس ذاك إلَّا مولاك، لأن صحبة الخلائق كلها مقرونة بالعلل فلا يصحبك أحد إلَّا لما يعود إليه من نفع أو دفع ضرّ، حتى أن من صحبك لذاتك فإنما أجاب فيك داعية نفسه، وعاد عليه منك تبريدُ حرقة الشوق والمحبَّة من قلبه، واستلذاذه بالاتصال والوصلة بما يريده من صحبته، والربّ تعالى غنيّ منزَّه عن الأغراض والأعواض؛ فهو يعطيك ولا يأخذ منك، ويُريحك ولا يستريح إليك، فاعطِ الأدبَ حقَّه بأن لا تعرّج على غيره أبداً. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر المؤلف هنا من إطلاق الصحبة ما قد وقع في حديث: «اللهم أنت الصاحب في السفر...»[1]، فعمم قوم جواز إطلاقه حيث لا إيهام، ومنعه آخرون إلَّا حيث ورد، فلعل الشيخَ ممن يرى جوازه.

وكذلك وقع للإمام أبي حامد وجماعة من أئمة هذه الطريقة. واللّه أعلم.

وإذن قد بان لك أن صحبة الخلائق لا عِبرة بها من حيث هم، فالدنيا أيضاً

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٦/ ٤١٢) رقم (٢٦٩٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٠٩) رقم (٢٤٨٣)، ومسلم في الصحيح (٢/ ٩٧٨) رقم (١٣٤٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ٤٦٠) رقم (٧٩٣٨)، والترمذي في الجامع الصحيح (٥/ ٥٠١) رقم (٣٤٤٧).

كذلك، لأنها فانية زائلة، لكن حجاب الوهم وضعف اليقين بَعَّدَ ذلك!! كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها.

قلت: لأن الآتي قطعاً كالموجود في الحال، ولأن بادي النقص شاهد بدخول تلك في هذه فهي عينُها لمن عقل حكمها، وإن كانت أحكامها مختلفة.

وقد قال أحمد بن عاصم الأنطاكي[١]، رضي اللّه عنه: «اليقين نور يجعله اللّه في قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته، ويخرقَ به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهِد لها».

وقال حارثة[٢] رضي اللّه عنه لرسول اللّه ﷺ لمَّا سأله:

كيف أصبحتَ يا حارثة؟

قال: أصبحتُ مؤمناً حقّاً.

فقال رسول اللّه ﷺ: «لكلّ حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: كأنّي بعرش ربِّي قد نُصب، وبأهل الجنة يتنعَّمون، وبأهل النار في النار يتعاوون».

فقال رسول اللّه ﷺ: «عرفت فالزم عبد نوّر اللّه قلبه...»[٣] الحديث، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح، قيل: يا رسول اللّه، وهل لذلك من علامة يُعرف بها؟

قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[٤] انتهى.

ثم قال:

ولرأيت محاسن الدنيا وقد ظهرت كسفة الفناء عليها.

قلت: هو من تتمة الكلام الذي قبله، فاليقين إذا أشرق كشف عن الدنيا

---

(١) أحمد بن عاصم الأنطاكي، أبو علي، من أقران بشر بن الحارث والسّري والحارث المحاسبي. انظر طبقات الصوفية ص(١٣٧) رقم (١٨) وحلية الأولياء (٩/ ٢٨٠).

(٢) حارثة بن شراحيل بن كعب، الكلبي، مولى النبي ﷺ. انظر أسد الغابة (١/ ٤٢٦) رقم (٩٩٥).

(٣) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (١/ ١٦٥) رقم (٤٤٥)، وابن حبان في المجروحين (١/ ١٥٠).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٦) رقم (٧٨٦٣)، وأورده القرطبي في تفسيره (٧/ ٨١) والطبري في تفسيره (٨/ ٢٧)، وابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٦).

والآخرة، إذ شأنه الكشف فيحصل العلم بأن الآخرة خير من الدنيا.

والكسْفَةُ: من الكسوف، وهو: التغيير وظهور كسفة الفناء على هذه الدار بما يَعرض عليها من عوارض النقص والتغيير والانقلاب كضعف القوة وخلق الجدّة، أو غير ذلك، فافهم.

فخرج من جملة ما ذكر أن الدنيا ناقصة زائلة، وأن الخلق لا استقلال لهم ولا كمال، بل ولا وجود على الحقيقة، فالاشتغال بهم تعلُّق بالوهم دون حقيقة كما قال:

ما حجبك عن اللّه وجود موجود معه؛ إذ لا شيء معه وإنما حجبك عنه توهم موجود معه.

قلت: فاشتغالك بثناء الخلق وذمّهم، وتعلُّقك بالسرّ لأجلهم، وانتظار المنافع من قِبَلهم، وتوجّهك للدنيا بالكل حتى حُجبتَ به عن مولاك، من تعلُّقك بالوهم القاضي باعتبار ذلك كلِّه مع الحق سبحانه، وذلك باطل ووهم؛ لما قضى به من التحقيق من أنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير والمتوحِّدُ بالحكم والتقدير، فالكلُّ به وإليه فهو الموجود وحده لا غيره.

قال في «لطائف المنن»: «وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلّ. والظِلُّ لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا أثبتت ظِليَتَهُ الآثارُ لم تنسخ أحدية المؤثر، لأن الشيء إنما يشبّه بمثله ويضم إلى شكله كذلك أيضاً من شهد ظلِّية الآثار لم تعقه عن اللّه تعالى، كما أن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفنَ عن التسيار.

ومن هنا يتبيّن لك أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين اللّه تعالى، ولو كان الحجاب وجودياً بينك وبين اللّه تعالى للزم أن يكون أقرب إليك منه، ولا شيء أقرب من اللّه، فرجعتْ حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب» انتهى. وهو كالبيان لما هنا. فافهم.

وبحسب هذا فالنظر إلى صفاته يقضي باضمحلال مخلوقاته كما قال:

لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته.

قلت: إذ لا ثبات للخلق مع ظهور آثار الحق «يا عجباً!! كيف يظهر الوجود في العدم؟! أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم» لا يكون ذلك أبداً، وليس إلَّا هو وحده. بيان ذلك فيما أتبع هذه الجملة به إذ قال:

لولا ظهوره في المكونات.

أي بآثار أوصافه القدسية التي هي إتقانها بالعلم وتخصيصها بالإرادة وإبرازها بالقدرة.

ما وقع عليها وجود أبصار.

قلت: يريد لا بالبصائر ولا بالأبصار، لأنها كانت تكون عدماً محضاً ونفياً صرفاً، فما ظهر في الكون سوى آثار أوصافه: فالظاهر إذن أوصافه ورؤية غيرها بلا هي من الوقوف مع الوهم المقيّد بالصور دون رجوع للحقيقة الرافعة للوهم، فافهم.

ثم ظهورُ الأكوان إنما هو للدلالة عليه؛ فإذا ظهر لم يكن لشيء وجودٌ معه، لثبوت أحديته وظهورها بما ظهر من فعله الموصّل إليه. وهذا ما ذكره بأن قال:

أظهر كل شيء لأنه الباطن.

يعني الذي لا وصول إلى معرفته إلَّا بما ظهر منه لدلالته عليه من حيث ولّاه ذلك.

وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر.

يعني لا يصحُّ ظهور شيء مع ظهوره لاستتاره في وجوده وعدم استقلاله بوجوده؛ فحكمة ظهور الخلق لوجود التعريف وحصول المعرفة ينفي وجودهم فسبحانه الظاهر الباطن العليم.

ثم دلالة المخلوقات إنما هو بما فيها عن حُكْمه وحكمته، لا بأعيانها لعدم جدوى ذلك ونفي إفادته. وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

أباح لك أن تنظر في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات.

قلت: عبّر بأباح، ليشعر بأن النظر والاستدلال غير واجب، أو إشعاراً بأن المطلوب أولاً تحصيل العيان لا إقامة الدليل والبرهان؛ لأنه يؤذن بالغيبة، وهي نقص عند ذوي الأبصار، حتى لقد قال مريد لشيخه: إن فلاناً يستدل على وحدانية اللَّه بأَلف دليل.

فقال الشيخ: يا بُنَيَّ، لو عرف اللَّه ما استدل عليه، فبلغ ذلك العالمُ فقال: صَدَق، هم يشاهدون على العِيان ونحن ننظر من وراء الستر، وقال مريد لشيخه: يا أستاذ، أين اللَّه؟

قال: أسحقك اللَّه!! أتطلب مع العين أَيْنٌ؟!

والذي في المكنونات ما دلت عليه من عجائب القدرة والإرادة والعلم إتقاناً وتخصيصاً وإبرازاً على اتساع ذلك، وإنما لم يأذن في الوقوف مع ذواتها، لأنها حجاب صارف مانع عمَّا وراءه، كما تقدم في غير ما موضع، واللّه أعلم.

ثم نزع المؤلف بالآية الكريمة وبَسط المعنى فيها بأن قال:

قل انظروا ماذا في السموات، ولم يقل انظروا السموات.

قلت: فأشار بفي؛ لأن موقع النظر ما احتوت عليه، فهي ظرف لما يقع النظر عليه، لا أنها هي المقصودة به، ثم زاد ذلك بياناً فقال:

فتح لك باب الإفهام.

قلت: يعني بما أتى به من ذكر الظرفية الدالَّة على معنى زائد على أعيانها، وأنه هو الذي يتعلَّق النظر به، فإن تأوّله متأوّل بما يرده لأعيانها لم يبعد، ولكن الوقوف مع النظر أولى من التأويل، وإخراجُ اللفظ عن معنى يهدي إليه ولا يقدح في حقيقة ما دل عليه ليس بصواب فافهم ثم قال:

ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام.

قلت: وذلك لأن الدلالة عليها لا فائدة فيها، بل هي صارفة بالاشتغال بها عن عين الحقيقة وتحقيقها وذلك أكبر المصائب وأعظم الآفات والنوائب، وللّه درّ القائل:

ما الغد؟ ما الطرف الكحيل، وما اللَّما لـولاك تـشـهـد فـي حـلاه وتُـرمَـقُ

وجملة الأمر وكليته، ومداره، وحقيقته، ومبناه، ووجهه، ومعناه راجع لِما ختم به الباب إذ قال:

الأكوان ثابتة بإثباته، وممحوة بأحدية ذاته.

قلت: يقول: إنك إذا نظرت الخلق من حيث إثبات الحق لهم رأيتهم وجوداً، وإذا نظرت إليهم من حيث ما هم عليه من الفقر والنقص وعدم الاستقلال رأيتهم محواً، قال في «التنوير» عند كلامه على الأسباب وحكم النظر إليها ما نصّه: «والقول الفصل في ذلك أنه لا بدَّ من الأسباب وجوداً، ومن الغيبة عنها شهوداً، فاثبِتْها من حيث أثْبَتَها بحكمته، ولا تستند إليها لعلمك بأحديته» انتهى، وهو عين المراد ومخ المعرفة في مراعاة الأسباب. وباللّه التوفيق.

تنبيه :

إذا كانت الأكوان معتبرة من حيث هو تعالى الذي أوجدها وجب أن لا ينظر في إقبالها وإدبارها إلا إليه، فإذا أثنى عليك الخلائق فانظر لنفسك بحكم الحقيقة ترها مذمومة ضرورة. وهذا ما افتتح به الباب الخامس عشر:

الباب الخامس عشر

إذ قال رضي اللَّه عنه: الناس يمدحونك بما يظنون فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها.

قلت: مدح الناس للعبد على حسب ظنّهم فيه من الخير والصلاح الذي اقتضاه ظاهر حاله لا يدفع ما هو عليه من النقص في جميع أحواله، فوجب ألا يقف في مدحهم ولا يلتفت إليهم، بل يذمُّ نفسه بما يعلمه منها، وذلك على وجوه ثلاثة:

أحدها: أن ينظر لما جبلت عليه من النقص والإساءة فلا يراها أصلاً لما ذُكرتْ به، وأن ذلك من فضله تعالى ومنّته، إذ لا يليق به من حيث ذاته، وذلك رأسُ الذمِّ لها.

الثاني: أن ينظر لما تضمنه ما مدحت به من التقصير والإساءة فيذكّرها به، كالرياء في العمل، والتزيين ونحوه.

الثالث: أن يثبت لها ما جهلته أو غفلت عنه من سيئات أُخر بأعمال خفيَّة؛ إذ لكل إنسان خبيئة من عمله ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

هذا كلّه إن كان ما مدح به موجوداً فيه؛ وإلّا فيذمّها بالتقصير والنقص عما ذُكرت به إن لم يثبت لها، والمتشبِّعُ بما لم يُعطَ كلابس ثَوبي زور، فافهم.

ثم نظر العبد لمولاه يذكّر بحقارة نفسه، وهذا ما ذكره المؤلف بأن قال:

المؤمن إذا مدح استحيا من اللَّه أن يثني عليه بوصف لا يشهده من نفسه.

قلت: مرادُه المؤمن الكامل، وقوله إذا مدح، يريد بما فيه، أو بما ليس فيه، فإنه إن مُدح بما فيه وليس منه فيستحي من اللَّه أن قد ستره فيما هو فيه، وهو يجري عليه ثناؤه الجميل بما لم يكن من شأنه فهو لا يشهده من نفسه وجوداً وإن كان موجوداً فكيف بشهوده موجوداً ولا وجود، فافهم.

قال رسول اللَّه ﷺ: «المؤمن إذا مُدح ربا الإيمان في قلبه...»[1] الحديث.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٩٠) رقم (٦٥٣٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١/ ١٧٠) رقم (٤٢٤).

فالمدحُ لا يُذمُّ من حيث ذاته، ولا يحمد من حيث ذاته، فلذلك قد يكون موصّلاً للكمال أو موصّلاً للنقص، أو غير موصّل لشيء منهما، كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس.

قلت: يقين ما عنده هو ما عليه من ذنوبه وعيوبه. وظن ما عند الناس هو ما ظهر عليه من خالص أعماله وصالح أحواله، بل يقين ما عنده عجزه ونقصه وتقصيره وإساءته. وظن ما عند الناس كون ذلك منه حقيقة. والخروجُ عن ذلك كلّه إنما هو بالثناء على اللّه لأجل ستره، وهذا ما ذكره إذ قال:

إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فأثن عليه بما هو أهله.

قلت: يقول: إذا أطلق الثناء عليك عموماً أو خصوصاً بأمر عام أو خاص ولم تر نفسَك أهلاً له من حيث نقصُك وقصورُك فارجع لمولاك بالثناء عليه؛ إذ أظهر عليك ما لست بأهل له من حيث ذاتك ذاكراً نعمته فيما واجهك به من ذلك؛ إذْ ستَر القبيحَ وأظهر الجميل ولم يؤاخذ بالجريرة.

والناس ثلاثة:

رجل رأى نفسه مستحقاً للمدح والثناء فهلك.

ورجل رأى نفسه ليس بأهل ولم يشعر بإحسان اللّه إليه فاشتغل بذم نفسه وتوبيخها على ما هي متلبسة به وما فرط منها فسلِم من آفاتها.

ورجل رأى نفسه كعروسٍ افتضت بزنا وأهلها يريدون لها الزفاف فتطلب الستر عند المواجهة وتنظر لنقصها في الحال قائلة: «إذا وصلت إليه فسترني تمَّ لي ولكم ما نريد، وإلَّا فأنتم يتم أمرُكم وأنا كما شاء وحكم. وعلى هذا يتنزّل قول عليّ كرّم اللّه وجهه عندما سمع الثناء عليه: اللّهم اجعلني خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنا بما لا يعلمون، واغفر لنا ما يقولون».

ومن وراء هذا مراتب أهل الحقيقة، وهم ثلاث:

من لا يبالي بإقبال ولا إدبار.

ومن يعتبر بإدبار الخلق دون إقبالهم لشعوره بالانفراد للحق.

ومن يرى الخلق أقلام الحق وهم العارفون الذين ذكرهم المؤلف بأن قال:

الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق.

والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق.

قلت: شهودُ أفعال الخلق من حيث هم من نقص المعرفة بالحق، وشهودها من حيث إجرائها عليهم من المعرفة به، وبحسب هذا فالعارف يرى الخلقَ أقلام الحق، إذا أثنوا عليه فرح بذلك من حيث مولاهم لا من حيث هم؛ فيزيده ذلك شكراً لمولاه، وسكوناً إليه وفراراً مما سواه، وغيره من يرى أفعالهم من حيث هم فيقبل ويدبر بحسب ما يواجهه منهم، فإن كان راغباً فرح بالمدح من حيث ثبوت منزلته عندهم وظهورها بينهم فيكون المدح في حقّه ذبحاً لكونه يدعوه لمراءاتهم والتصنّع والتزيّن لهم، وإن كان زاهداً لم يقبل ذلك منهم، بل يسكن لذمّهم أكثر من مَدحهم، ولإدبارهم أكثر من إقبالهم رجوعاً لقوله عليه السلام: «أحثوا التراب في وجه المادحين»[(١)]، ولقوله عليه السلام: «المدح هو الذبح»[(٢)]. ولقوله عليه السلام لمن مُدح عنده: «قطعتم عُنق صاحبكم»[(٣)].

وعمل العارفين في ذلك على الحديث الصحيح: «إن اللّه إذا أحبّ عبداً نادى جبريلَ أنّي أحبّ فلاناً فأحبّه، فيحبّه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء إن اللّه يحب فلاناً فأحبّوه فيحبه أهل السموات، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض»[(٤)]، ولا يتصوّر تأويله كما تؤولت الأحاديث الأُخر، فلزم حمله على وجهه والعمل به للخاص لا لعموم الخلق. وباللّه التوفيق.

ثم حال العارف والعاميّ في الصورة واحدٌ؛ افترقا بالحقيقة التي بيّنها المؤلف إذ قال:

متى أعطيت بسطك العطاء، وإذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك في عبوديتك.

قلت: هذه علامة يعرف بها المريد حاله في العطاء والمنع والمدح والذم؛

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (١٣/ ٨٢) رقم (٥٧٦٩)، وأحمد في المسند (٦/ ٥) رقم (٢٣٨٧٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٢٣٩) رقم (٥٦٥).

(٢) أورده ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٤٧٧) ونسبه إلى عمر. وفي لفظ آخر: «إياكم والتمادح فإنه الذبح نسبه للنبي ﷺ فتح الباري (١٠/ ٤٧٨). وانظر تخريجه في سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٣٢) رقم (٣٧٤٣) وفي مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٢٩٧) رقم (٢٦٢٦١).

(٣) اللفظ: «قطعت عنق صاحبك». انظر ما أخرجه البخاري في الصحيح (٢/ ٩٤٦) رقم (٢٥١٩)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٢٩٦) رقم (٣٠٠٠).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ٢٧٢١) رقم (٧٠٤٧)، وابن حبان في الصحيح (٢/ ٨٥) رقم (٣٦٤)، والترمذي في الجامع الصحيح (٥/ ٣١٧) رقم (٣١٦١).

فإذا كان يقبل ذلك ويردّه من حيث الطبع والعادة، ومن حيث هو إقبال وإدبار فذلك دليل نقصه؛ إذ هو كالطفل في إقباله وإدباره لا يشعر بما وراء العطاء والمنع، ولا يفرح ولا يحزن إلا لهما، وهو من مراعاته للخلق في حاله فيحتاج لمقابلتهم بالقبض من الفرار من المدح والفرح بالذم حتى يستوي عنده الحالان، أو يكون الذمُّ أشهى إليه، أو تغلب عليه الحقيقة فيفرح بمولاه ويحزن لمولاه، وعلامة صدقه في ذلك وجود العدل في الرضا والغضب فلا يتجاوز الحدَّ في مدح محسن وإكرامه، ولا في ذمّ مسيءٍ وإهماله.

وقد قال أبو عثمان الحيري[1] رضي اللّه عنه: «لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع، والعطاء، والعز، والذل».

تنبيه:

توقّف المدح والذم داع لوجود العصيان بمقابلة الذامّ والمادح، بخلاف الحقّ واغترار النفس به وسكونها إليه، وحبّه بالباطل، وذلك يوجب التوبة والرجوع إلى الاستقامة، فلذلك افتتح:

(١) سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري، أبو عثمان، أصله من الري صحب يحيى بن معاذ الرازي وصحب أبا حفص، نشر التصوف في خراسان، توفي سنة (٢٩٨هـ). انظر طبقات الصوفية ص(١٧٠) رقم (٣) وتاريخ بغداد (٩/ ٩٩).

الباب السادس عشر

به بأن قال:

وقال رضي اللّه عنه: إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك.

بل اجعله مفتاح الرجوع إليه بالتوبة والإنابة رجاءً في اللّه وخوفاً منه؛ لأن اليأس من رحمة اللّه كوجود الاغترار باللّه، ولا يعظِّم الشيطان عندك الأمرَ بما عسى أن يكون تقدَّم لك من كسر التوبة، ولا بما تعلمه من نفسك من قلة الوقار والخشية، ولا بما تراه من عظم الذنب وكبر السيئة؛ فإن اللّه لا يتعاظمه ذنب يغفره.

قال الإمام أبو حامد رضي اللّه عنه: وكما اتخذت الذنب والعودَ إليه حرفة فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة، فما أصرَّ من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة». وقد ذكر ذلك في حال من استقام بعد عظم الذنب وقبائح الأمور، فلا أعظم ذنباً من فرعون وقد قال اللّه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ . . .﴾ [طه: ٤٤] الآية.

ثم الذنب الواقع منك قد يكون آخر ذنبٍ قُدّر عليك كما قال:

فقد يكون ذلك آخر ذنب قدّر عليك.

قلت: وذلك بأن يصرفك الحق عنه، أو يصرفه عنك بأحد وجوه ثلاثة: أن تستقيم على التوبة فلا تراجعه أبداً لوجود صدقك، أو تعاجلك المنيَّة قبل العود إلى مثله، أو تصرفك الموانع عن فعله، فمن العصمة أن لا تجد، ومن العصمة أن لا تقدر، وإن لم يكن شيءٌ من ذلك فالذنب الماضي قد مُحِي عنك بوجود التوبة فلم يكن عليك غيرُ هذا الأخير. وكنت في غيبة عن الذنب وغروب عن العزم إلى وقوع الثاني فبرئت من الإصرار وهو من العظائم. وهذا رأس الغنيمة. وباللّه التوفيق.

ثم الحامل على التوبة إنما هو رجاء أو ما في معناه، أو خوف أو ما في معناه، ولكل منهما باعث يخصّه أو سبب يتوصّل به إليه، ذكره المؤلف بأن قال:

إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك. وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن فاشهد ما منك إليه.

قلت: وإن أردت أن ينْفتِح لك كلٌّ منهما فاشهد كلَّ واحد في عين الآخر، وعند ذلك يستوي رجاك وخوفك فتكون على كمال في حالك، والذي منه إليك ثلاث:

نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإبعاد: إبعاد البليات والمحن وهي: الوزرُ، ونسيان الذكر.

وإنما يتحقق شهود كلٍ بثلاث:

ذكر النعم أو ضدها تفصيلاً، وإلزامها دليلاً، وتكراره الذكر بكرة وأصيلاً. وينتفي بثلاث:

الاشتغال بوجه الحكم والحكمة في الواقع، والقناعةُ بالجملة قبل التفصيل فإنه يزيد في الجرأة ولا يشفي غلة، فاعتبار ذلك بالحفظ والذكر حتى كأنه نصب عينيه حتى يشكر النعمة ويتبرأ من وجود النقمة. وباللّه التوفيق.

ثم الحزن أعمّ من أن يكون مع خوف أم لا، والرجاء أعمُّ من أن يكون في الجنة أو غيرها يَعُمُّ، والقبض حال الحزن، والبسط حال الرجاء، وتختلف نفعاً بحسب القوَّة والضعف في الحال الوارد عليهما فوجب الوقوف مع ما يظهر من ذلك للجهل بمحل الفائدة كما قال:

ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط.

وربما كان العكس، فاقبل ما واجهك منهما من غير مبالاة بغيره، وأقبل في ذلك ما قال اللّه تعالى في حق الأبناء والآباء: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

أشار بالآية إلى أن البسط من بساط الجمال، وهو أصل وجودنا؛ فهو بمثابة الأب. والقبض نتيجة أفعالنا فهو بمثابة الابن وعدم تحصيل الثاني فلذلك قال:

مطالع الأنوار القلوب والأسرار.

قلت: لأن أصلها فهمٌ أو علم، فالفهوم للقلوب، والعلوم للأسرار.

وقد قال شيخنا أبو العباس الحضرمي، رضي اللّه عنه، بعد كلام ذكره في كتب له:

«والفهم في ذلك بحسب واردات القلوب وبحسب النور الموضوع في باطن القلب، ثم قال: وأيُّ نور هو؛ فإن الأنوار مختلفة: نور الطبع، ونور العقل، ونور

الروح، ونور القلب، ونور سويداء القلب، ونور السرّ، وهو أعظم الأنوار وأجَلُّها وأكملها قال: ولكل نور من هذه الأنوار تأويل وتنزيل وتحويل وتنقيل، ولكل مقام منها شرح ما تسعه الصدور فضلاً عن السطور، وما يعلم جنود ربك إلا هو» انتهى.

وقد بيَّنا هذه الأنوار في مواضعها وباللَّه التوفيق.

ثم مرجع الأنوار، وإن تعددت، لأصلين ذكرهما المؤلف بأن قال:

نور مستودع في القلوب مدده النور الوارد من خزائن الغيوب.

قلت: فالنور المستودع في القلوب هو المطبوع في باطن القلب الفائض من نور مشاهدة يوم الميثاق يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فهو للقلب بمثابة نور العين به تُبْصر، لكن بعد ورود نور الإلهام الوارد من خزائن الغيوب، الذي هو بمثابة الشمس المنبسطة على المنظور فيه، ولا يحصل الإبصار إلَّا باجتماعهما كما قيل:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوعٌ ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع العين ... وضوء الشمس ممنوع

ثم هذا النور باعتبار انبساطه نوعان ذكرهما المؤلف بأن قال:

نور ينكشف لك به عن آثاره، ونور ينكشف لك به عن أوصافه.

قلت: وكلاهما باطنان؛ فإذا كشف لك به عن آثاره رأيتها على ما يليق بها من النقص والزوال في هذه الدار، وعلى ما هي عليه من البقاء والدوام والكمال في تلك الدار، فترجو وتخاف وتطلب النجاة والثواب لعلمك بالدنيا وانقراضها، وعلمك بالآخرة ودوامها، وما أعدَّه اللَّه لمن أطاعه وما توعَّد به لمن عصاه، وإذا كشف لك عن أوصافه تعالى، رأيت النقص في كل شيء بكماله، بل فناء كل شيء في وجوده؛ إذ لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوِّناته، فلم يبق لك مع غيره قرار، ولا عما سواه خيار.

ثم هذه الأنوار إنما توجب ما قلناه مع تَمكنها من القلب لا مع ظهورها في عوالمه فقط، ولذلك قال بعضهم: «إذا كان الإيمان في ظاهر القلب، يعني على الفؤاد، كان المؤمن يحب اللَّه حبّاً متوسطاً، فإذا دخل الإيمان باطن القلب وكان في سويدائه أحبه الحب البالِغ»اهـ.

ثم الأنوار قد تكون حجاباً كما تكون الأَغيار حجاباً؛ وهذا ما نبَّه عليه المؤلف بأن قال:

ربما وقفت القلوب مع الأنوار. كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار.

قلت: يقول: قد تقف القلوب مع الأَنوار فتحجب عن المنوِّر بوقوفها، كما تقف النفوس مع الأَغيار فتحجب بوجودها عن الأنوار.

ثم وجوه الوقوف مع الأنوار ثلاثة:

أحدها: الأُنس بها، والتعشُّق بوجودها استحلاءً لها وحبّاً فيها.

الثاني: القنوعُ بها والنظر إليها مع عدم الالتفات لما بعدها.

الثالث: رؤية أنها الغاية التي ليس شيء وراءها.

وقد تقدَّم من كلام «ابن الجلاء»: «من وقف بهمَّته على ما دون الحق فاته الحق، لأنه أعزُّ من أن يرضى معه بشريك».

وللَّه درُّ ابن الفارض حيث يقول:

وإن اكتفى غيري بطيف خياله ... فأَنا الذي بوصاله لا أكتفي

وكثائف الأَغيار، معناه: الأَغيار الكثيفة، فهو من إضافة الشيء إلى نفسه. والأَغيار جمع غَيْر بالفتحة والسكون، وهو: يطلق على كل شيء سوى الحق سبحانه وتعالى. وتقدّم معنى هذه الحكمة عند قوله: (ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها) فانظره.

وفي معناه للشيخ أبي الحسن التستُري رضي اللَّه عنه، ورحمه، ورحمنا بهم جميعاً:

تقيّدتَ بالأوهام حتَّى تداخلت ... عليك ونورُ العقل أورثك السجنا

وهِمْتَ بأنوار فهمنا أصولَها ... ومنبعها من أين كانت فما هِمْنا

وقد تحجب الأنوار للعبْدِ مثلما ... تُبعده أوصاف نفس حَوَت ضِغْنا

وأيُّ وصالٍ في القضية يُدّعَى ... وأكملُ من في الناس لم يدّع الأَمْنا

ثم ذكر المؤلف حكمة ستر أسرار الأولياء عن عوام الخلق وعدم اطلاعهم عليها فقال:

ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الأظهار وينادى عليها بلسان الأشهار.

يقول: ستر اللَّه تعالى أنوار السرائر التي هي ما يتحقّق به الأولياءُ والعارفون

من أحوال المنازلات، ومنازلات الأحوال، وحقائق المعارف ومعارف الحقائق، بكثائف الظواهر وظواهر الكثائف التي هي أوصاف البشرية؛ إذ جعلها مظهراً لها وموقفاً فيها، وغير منفكّة عنها، حتى أنَّ الجاهل ليندفع عن الوليِّ من أجلها كما اندفع الكافر عن الأنبياءِ بذلك؛ إذ قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] إلى غير ذلك.

وما سترها الحق تعالى بذلك إلَّا غيْرة عليها، وصيانة لها عن المدَّعين كما تقدّم في قوله: (صيانة لها عن أن يدَّعيها العباد بوجود الاستعداد؛ وإجلالاً لها عن الابتذال والاشتهار) كما بيَّنا؛ لأن ما كان من العزيز لا يكون إلا عزيزاً، وما يحصل به الإكرام والتخصيص إذا صار مبتذلاً بطل سرّ الاختصاصِ به، قال في «لطائف المنن» فأولياء اللَّه تعالى: أهل كهف الإيواءِ، فقليل من يعرفهم». قال، وقد سمعته (يعني شيخه أبا العباس المرسي) يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة اللَّه؛ لأن اللَّه تعالى ظاهر بكماله وجماله، وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب قال فيه: «وإذا أراد اللَّه أن يعرّفك وليَّاً من أوليائه طوى عنك وجود بشريّته وأشهدك وجود خصوصيته» انتهى، وبحسبه فلا وصول للوليّ إلا باللَّه؛ لأنه في حجاب الغيْرة، وباللَّه التوفيق.

تنبيه:

لما كان الوليُّ مستوراً عن الأغيار، ولا يُعرف إلَّا بكشف الحجب والأستار كانت الدلالة عليه من حيثُ الدلالةُ على مولاه؛ إذ لا يُعرف إلَّا به ولا يُطلب إلَّا له، ولا يُوصل إلا به لا بسواه كما نبّه عليه المؤلف إذ قال في أول:

الباب السابع عشر

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه.

قلت: صدّر بالتسبيح لوجوه ثلاثة:

الإشعار بعظمة الأمر وكبره، وإنه لكذلك، والتنبيه على أن أولياء اللّه منزّهون بتنزيهه كما أشارت إليه الآية في تنزيه المؤمنين، إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ . . .﴾ [النور: ١٦] الآية.

والإشارة لعدم المساواة في الدلالة التي أشعر بها كلامه. ومقصود الكلام: كما أن اللّه تعالى لا يُعرف إلّا بما أظهر من أفعاله كذلك الوليّ لا يُعرف إلّا بما بدا من أوصافه.

وكما أن اللّه لا يُعرف إلّا بتوفيقه كذلك لا يُعرف الوليّ إلّا (بتوصيل الحق له. وأيضاً لا تتصور معرفة الولي إلا بعد معرفة اللّه لأنه لا يطلب الوليّ إلّا) من عرف الولاية، ولا يعرفها إلّا من صدّق بالاختصاص، وذلك من اتساع الإيمان بالقدرة، وهو فتح من اللّه تعالى؛ لذلك قال بعضهم:

«الإيمان بطريقتنا هذه ولاية». قال في «التنوير»: «وذلك لأن الإيمان بالفتح لا يكون إلّا بفتح» انتهى.

ثم الوليّ يعرف بثلاث:

إيثارُ الحق، والإعراضُ عن الخلق، والتزام السنَّة بالصدقِ، فقد قال أبو علي الجرجاني[1] رضي اللّه عنه: «الوليّ: هو الفاني في حاله، والباقي في مشاهدة الحقّ، تولّى اللّه تعالى سياسته فتوالت عليه أنوار التولّي، ثم لم يكن له عن نفسه إخبار، ولا مع غير اللّه تعالى قرار، وفي «الإشارة» عن اللّه تعالى: إنما سمَّيتُ الأولياءَ أولياءَ، لأنهم يلوني دون مَن سواي من خلقي» انتهى. وحاصله أن الوليّ هو من تولّاه اللّه فلم

(١) الحسن بن علي، أبو علي الجرجاني من كبار مشايخ خراسان، له مؤلفات شتى، صحب محمد بن علي الترمذي. انظر طبقات الصوفية ص(٢٤٦) رقم (١٨)، وحلية الأولياء (١٠/ ٣٥٠).

يدْعه لغيره ظاهراً ولا باطناً، وتولّي اللَّهَ فلم يُعرجْ على غيره بحال، وبحسب هذا فكل من والاهم محفوظ بحفظه، وواصل إليه على قدر نصيبه وحظِّه، كما قال:

ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

قلت: المراد بالوصول هنا معرفة الولي على وجه يقتضي القيام بحق حرمته، والوقوف عند أمره أو نهيه، والتعلُّق بحاله وهمتِه.

ولا شك أن ذلك مفتاح الوصول؛ لأنه يوجب الاهتمام من الوليّ بمن يقع له ذلك فيشتغل قلبُه به فيكرمه مولاه بنظره لمن تعلَّق ذلك فيتولَّاه بإحسانه إكراماً لعبده، وإراحةً له من شغل قلبه بغيره؛ فإنه يغار على قلوب أوليائه أن يَظهر فيها غيرُه، ولهذا يقول الناس لأهل الخير «خاطرك» أي: ليكن لك بي اهتمام، لعل اللَّه أن يكرمك بقضاء حاجتي لمكان اهتمامك.

وأيضاً فإن من شأن أولياء اللَّه تعالى الاهتمام، وحُسن الإخاء، والفتوة واللَّه تعالى يغني بهم إذا شهدوا، وينوب عنهم إذا فُقدوا، فلذلك قيل: «الوليّ إذا أراد أغنى» وإذا استقر صحيحاً أنه ما خالط أحدٌ وليّاً معتقداً به إلَّا نفعه اللَّه تعالى منه بنيّته على قدر همّته، كما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وقد قال شيخنا أبو العباس الحضْرميُّ رضي اللَّه عنه في كتابه «صدور المراتب»: «فهنيئاً لمن ذاق أو ذاق من بعض ما ذاق، أو رأى من ذاق؛ فقد قيل: المطر قريب عهد بربّه فيستحب البروزُ فيه والتبرّك به عند نزول المطر، هكذا ذكره الشارع ﷺ، وهو مطر من السحاب فما ظنُّك بالمؤمن العارف باللَّه، فمِن الأحْرى والأَوْلى النظر إلى العارف باللَّه والصادق باللَّه والساير للَّه باللَّه النظر إليه أقوى بالتأثير، وفيه سعادة الدنيا والآخرة عند مصادفة المحل والتوفيق.

وقد تقدّم من كلام الشيخ أبي محمد بن عبدالسلام يُوصي الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي اللَّه عنهما: «واُصحب من إذا ذَكر ذكر اللَّه؛ فإن اللَّه يُغْنى به إذا شهد وينوب عنه إذا فقد، ذِكره نور القلوب، ومشاهدته مفاتيح الغيوب» انتهى.

ومما يدل على أن رؤية العارف تزيد في نور المعرفة وغيرها قول أنس رضي اللَّه عنه: «ما نفضنا التراب من أيدينا من دفن رسول اللَّه ﷺ حتى وجدنا النقصَ في قلوبنا...»[1] الحديث.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٣٣) رقم (٣٤٧٥٥)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٦٨) رقم (١٣٨٥٧)، وابن عبدالبر في التمهيد (١٩/ ٣٢٣).

وبالجملة، فأولياء اللّه تعالى أبوابُ اللّه، ومعرفتُهم مفاتيح تلك الأبواب، وأسنان ذلك المفتاح حِفظ الحرمة، وحُسنُ الخدمة، ودوام الحشمة، واتساع الرحمة. فمن عاملهم بذلك فُتحَ له، وإلّا فهو على خطر، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد.

قلت: يقول: ربما أكرمك الحقّ سبحانه وتعالى بالاطلاع على غيب الملكوت. الذي هو الاطلاع على مكنون العلم ودقائق المعارف، حتى يكون الأمرُ عندك في ذلك كأنه رأيُ عيْن، بل يحصل لك منه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومع ذلك لم يطلعْك على شيء من أسرار العباد، أي خفيّ أمورهم، رحمة بك وبهم، وإبقاءً عليك وعليهم، وإلّا فما فُتح لك خيرٌ مما حجب عنك، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

من اطّلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلٰهية كان اطلاعه فتنة وسبباً لجرّ الوبال إليه.

قلت: المتخلّق بالرحمة الإلٰهية هو أن يكون واسع الرحمة لعباد اللّه، قد وَسع الناسَ بسطُه وخُلقه فكان لهم أباً، وكانوا عنده في الحق سواء كما جاء في وصفه عليه السلام: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، يرحم المذنبين ويعطف على المساكين ويصفح عن الجاهلين ويُحسن للمسيئين، إذْ كان خلقه القرآن؛ كما قالت أم المؤمنين وتَلَتْ قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فمن كان متخلّقاً بهذا الخلق كان اطلاعه إكراماً له ورحمةً لعباد اللّه، وإلّا فكما قال المؤلف: فتنة في الحال عليه وسبباً يجُرّ إليه المكروه وسوء العقبى وهو الوبال لأنه يضر نفسه بثلاث:

بتزكية نفسه؛ برؤية الفضل لها، وتضييق رحمة اللّه على عباده، وإيذائه عباد اللّه بهتك أستارهم، وهو أصل كل بلاء، فيرحم اللّه القائل:

ارحم بنيَّ جميعَ الخلق كلِّهم ... وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة

وقِّرْ كبيرهم وارحم صغيرهم ... وراع في كل خَلق حقَّ من خَلَقَهْ

ثم الاطِّلاع إما أن يكون على معصية أو على طاعة، وذلك يجري لحظ

النفس فيها كما يجري في العمل بهما، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفي.

قلت: يقول: حظ النفس في المعصية فعلاً واطِّلاعاً ظاهر جليّ، لأنها من بساط الحظوظ ومواقف النقص والريبة، ففعلها بحظّ نفساني ولولاه ما تصوَّر وجودها؛ لأن أصلها إحدى ثلاث:

خوف الخلق، وهَمُّ الرزق، والرضا عن النفس.

والاطلاع عليها مصحوب بحظ النفس، وهو ما يستشعر معه من التزكية، وما يجده من لذة الاطلاع على نقص الغير موجب لارتفاعه عليه وتمكنه منه، ونحو ذلك.

وحظها في الطاعة باطن خفيّ فعلاً واطلاعاً؛ فإن فعلها قربةً ربما احتوت على رياءٍ أو تصنع أو تَزَيّد، أو قصد غرض أو عوض، والاطلاع عليها حسن، لكن ربما جرّ لتزكية النفس وإظهار سرّ المطّلع عليه، وتعظيمه لأجله وتعظيمُ حاله بأن يرى الصالحين، ويقف على أهل الفضل والدِّين إلى غير ذلك من الدسائس التي لا يطّلع عليها إلَّا أولو البصائر.

والمقصود هنا أن الطاعة قد تحتوي على حظّ كما تحتوي عليه المعصية ولكنه خفيّ لا يُنظر إلا بتوفيق ومساعدة من التوفيق لأنه كما ذكر إذْ قال:

ومداواة ما يخفى صعب علاجه.

قلت: يقول وصعوبةُ علاجه على قدر خفائه، لأن المداواة تابعة للمعرفة بأصل العلَّة وسببها وعرضها، فإذا كانت خفيَّة وبَعُد الوصول إليها، فلا يمكن مداواتها إلَّا بمشقَّة.

ومن العلل الخفية في الأعمال دخول الرياء في الخلق كما قال:

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك.

قلت: وذلك لأن الرياء راجع لرؤية العامل للخلق، لا لرؤيتهم إيّاه، فكل من نظر للخلق في عمله فهو مرائي، ولو كان في جوف بيت، بل في صخرة مطبقة في قعْر البحر.

ومن لم يداخله نظر إليهم في أعمالهم بكلّ حال، فهو مخلص ولو كان في وسط أهل الأرض بأجمعهم، وسواء كان يعمل لأجلهم، أو يترك لأجلهم، وغير ذلك، فقد قال الفضيل بن عياض، رضي اللّه عنه: «العمل لأجل الناس جوابه كما

نقله النووي في «الأذكار» عن الفضيل بن عياض: العمل لأجل أناس شركةٌ، وترك العمل لأجلهم رياء، وترك العمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك اللَّه تعالى منهما» انتهى.

ثم إن للرياء الداخل في الخلوة وجوهاً، منها: الاستشرافُ لعلم الخلق بحاله من حيث هداية عبادِه، فلذلك قال:

استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك.

قلت: لأنك لو كنت صادقاً مع مولاك ما أحببت أن يرى عملَك غيرُه، فقد قال بعضهم: ما صَدَقَ اللَّهَ أحدٌ قط إلَّا أحبّ أن يكون في جُبٍّ لا يُعرف، وقال أحمد بن أبي الحواري؛ رضي اللَّه عنه: «من أحبّ أن يُعرف بشيء من الخير أو يذكر به فقد أشرك في عبادته؛ لأن من خدم على المحبة لا يُحبُّ أن يرى خدمتَه غيرُ مخدومه».

وقال سهل بن عبداللَّه رضي اللَّه عنه: «من أحبّ أن يطلع الناس على عمله فهو مُرائي، ومن أحبّ أن يطَّلع الناسُ على حاله فهو كذَّاب».

وقال إبراهيم بن أدهم[1]، رضي اللَّه عنه: «ما صدق اللَّهَ من أحبّ الشهرة».

وإنما الخلاص من الرياء وغيره بالنظر إلى الحق ورفض ما سواه بكل حال، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

غيب نظر الخلق إليك بنظر اللَّه إليك.

قلت: يقول لا تنظر لنظر الخلق إليك، وانظر لنظر اللَّه إليك؛ فإنه يراك في كل حال، ويطَّلع على خفيّ الخفيّ من حالك، والخلقُ لا يعلمون منك إلَّا الظاهر، ثم إذا نظر إليك بالرحمة لم يضرّك نظرهم بنقضها، وإن نظرك بالنقمة لم ينفعك نظرهم بالرحمة، قال اللَّه سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] الآية.

وقد كان بعض الصالحين يقول: يا مرائي، قلب مَن تُرائي، بِيد مَنْ تعصيه».

وقيل لبعضهم: بِمَ يستعين العبد على حفظ بصره؟

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي، أبو إسحاق، زاهد مجاهد مشهور فقيه، رحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز توفي سنة (١٦١هـ). انظر البداية والنهاية (١٠/ ١٣٥) والأعلام(١/ ٣١).

قال: بعلمه أن اللَّه تعالى سائق نظره إلى ما يريد أن ينظر إليه، ثم قال:

وغب عن وجود إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك.

قلت: يقول: انظر لإقباله تعالى عليك بنسيان إقبال الخلق عليك؛ حتى لا تبالي بهم في إقبال ولا إدبار اكتفاءً بربِّك.

قال في «لطائف المنن»: اعلم أن مبنى أَمْر الوليّ على الاكتفاء باللَّه والقناعة بعلمه والاغتناء بجوده، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرارِ من الخلق، والانفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال؛ تحقيقاً لغنائهم وتثبيتاً لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحبّاً في إخلاص أعمالهم لسيّدهم، حتى إذا تمكَّن اليقين وأُيّدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفَنَاءِ، وردُّوا إلى وجود البقاء، فهناك: إن شاء اللَّه تعالى سترهم، وإن شاءَ أظهرهم هادين لعباده، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه.

وظهر الوليّ ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة اللَّه تعالى له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاءُ لا الجلاءُ كما قدّمنا.

فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد سبحانه إظهارَهم فأظهرهم تَولَّاهم في ذلك بتأييده وإرادة مزيده؛ لقوله ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة[1]: «لا تطلب الإمارة، فإنك إنْ أُعطِيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها، وإن أُعطِيتها عن مسألة وكلت إليها»[2].

ومن تحقَّق بالعبودية للَّه لم يطلب ظهوراً ولا خفاءً، بل إرادته وقْفٌ على اختيار سيّده له، قال الشيخ أبو العبَّاس رضي اللَّه عنه: «من أحبّ الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبداً للَّه فسواء عليه أظهره أو أخفاه».

---

(١) عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصي بن كلاب، أبو سعيد القرشي، أسلم يوم الفتح، نزل البصرة وغزا سجستان أميراً على الجيش، توفي بالبصرة سنة (٥٠هـ). انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧١) رقم (١٢١).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ٢٤٤٣) رقم (٦٢٤٨)، ومسلم في الصحيح (٣/ ١٢٧٣) رقم (١٦٥٢) واللفظ عندهما «لا تسأل».

ثم أساس هذا الأمر كله وجود المعرفة والمحبّة والفناء، كما قال:

من عرف الحق شهده في كل شيء.

قلت: فكان كُلُّ شيء عنده، وله، وبحسب ذلك فهو لا ينظر لشيء سواه؛ إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه، بل كما قيل:

مذ عرفت الإلٰه لم أر غيراً وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمّعت ما خشيت افتراقاً فأنا اليوم واصلٌ مجموع

والمعرفة: تحقق العارف بما يقتضيه جلال معروفه حتى يصيرَ ذلك التحقّق كأنه صفة له لا يتحوّل ولا يتزحزح، ولا تجري أحواله إلا على مقتضاها، وبحسب ذلك فيكون نُصب قلبه في كل وقت وعلى كل حالة.

ثم شهود الحق يهدي إلى الفناء فيه رجوعاً بالكلِّ إليه، وذلك يوصّل إليه، كما قيل:

ومن فني به غاب عن كل شيء.

قلت: الفناء: شهود حقّ بلا خلق، لاندراج حكم الفعل في الصفة من حيث إنه أثرها، وبذلك لا يبقى خبر عن الفعل من حيث هو. والصفة مضافة لموصوفها فليس إلّا هو وحده، وذلك عين الغيبة عن كل شيء به؛ لرجوع كل شيء إليه.

ثم المعرفة كما توجب الفناء والغيبة تقتضي الإيثار والمحبَّة يلازمها الإيثار، كما قال:

ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً.

قلت: وذلك لأن حقيقة المحبَّة أَخْذ جمال المحبوب بحبّة القلب حتى لا يدعه لغيره في حال من أحواله؛ ولذلك قيل: «المحبة الإيثارُ بدوام المحبّين». وادّعى بعض المريدين شيئاً من المحبة فقال له أستاذه: يا بني هل ابتلاك بغيره فآثرته عليه؟!

وقد قال بعضهم: أَبتِ المحبةُ أن تستعمل مُحبّاً بغير محبوبه، فصاحت الغَيْرَة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [**المجادلة**: ٢٢] انتهى.

وقد ذكر المؤلف في هذه المقامات الثلاث، التي هي: المعرفة، والفناء، والمحبَّة عُمد أبواب الولاية فكأنه يقول: الولي الذي ذكرتُ أوَّلاً هو العارف باللَّه

والفاني فيه والمحبُّ له. ومن لا يكون له نصيب من هذه كلّها فليس له في الولاية من نصيب، جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم من لازم المحبّة وجودُ الشوق إلى الرؤية، وطلبُ الوصلة والقُربة، وهو أمر موجود لمن عرف كمال وصف مولاه؛ إذ لا مسافة ولا علّة ولا غيبة، وإنما هو حجاب العزّة بوجود القرب كما قال:

إنما حجب الحق عنك لشدة قربه منك.

قلت: قرب الحق سبحانه وتعالى ليس بالمداناة، ولا بالمسافات، ولا في المناسبة؛ لأن كلَّها محال عليه تعالى، فهو إذنْ قربُ إحاطة بالعلم والقدرة والإرادة، كما يليق بجماله وكماله، وقد تحقق أن قدرته وإرادته عامتا التصرّف، في وجود العبد والعِلم محيطٌ به في عموم أوقاته وأحواله. والمتصرف في الشيء بما هو به وجوده أو تمام وجوده أو انتظام وجوده أقرب إليه من وجوده، والحجب للخلق إنما وقع بوجودهم أو موجودهم.

ثمّ كلما اتَّسع موجودهم واتَّسع مظاهر التصريف اشتد احتجابُهم باشتغالهم، وذلك عين مظهر قرب الإحاطة؛ فشدّة القُرب هي الحجاب عن القرب وعن المقرّب ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي اللّه عنه في بعض مناجاته: «يا قريب أنت القريب وأنا البعيد، قُربك منِّي أيأسني مِن غيرك، وبُعدي عنك ردّني للطلب منك، فكن لي بفضلك حتى تمحو إرادتي بإرادتك يا قويّ يا عزيز».

وإذا كان الأمر كما ذُكر، فهو أيضاً كما قال المؤلف:

استتر لشدة ظهوره، وخفي عن الأبصار لعظيم نوره.

قلت: يقول: ظهور الحق سبحانه بأفعاله هو الذي يستر الخلائق عن رؤيته، وذلك من ظهور نور أوصافه الذي هو أثرها المظهِر لجميع الكائنات عن الرؤية المعنوية في هذه الدار. وبقدر تعلُّقه بها يكون انصرافه في الآخرة حسب سنة اللّه تعالى، فشدّة الظهور هو المانع من الرؤية.

وقد مثَّلوا ذلك بمحسوس هو: ضوء الشمس مع بصر الخفَّاش، وللّه المثل الأعلى، إذ كلما ازداد نورُها ازداد عمىً، وعلى ذلك قالوا: الناظر في التوحيد كالناظر للشمس كلما ازداد نظراً ازداد عمىً».

وقال بعضهم: عيْن الحدَث لا تنفتح لشعاع شمس الأزل، ونُدرك منها في كمال وجودنا كما يدرك الخفَّاش من باهر الشمس.

حدّ العقول الإثبات والتنزيه، ثم التغلُّب في التنزيه على موقف العجز هو محل ظهور كمال العزّ، ولذلك قال الصدّيق رضي اللّه عنه: «سبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلَّا بالعجز عن معرفته».

والخارج من هذا كلِّه: أن الحقَّ سبحانه ظاهر بجلاله وكماله ظهوراً أوجب قصور الكلّ عن إدراك جلاله، فتجلِّيه عين الحجاب عنه، وربّك الفتَّاحُ العليم.

تنبيه:

وإذا كان هو الظاهر، ومُظهر الظاهر، فما عنده لا يُنال بطلب ولا يُدفع بسبب.

وإنما أمَرنا بالأسباب والطلب لمحض العبودية.

وهذا ما نبّه عليه وبيّنه في:

الباب الثامن عشر

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه:

لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه.

قلت: الطلب على وجه التسبب، هو: أن ترى وقوع ما تريده ملزوماً به، أو لازماً له، بحكم سنَّة اللّه تعالى على وجه لا ينفكّ، لأن السبب ما يلزم من عدمه العدمُ ومن وجوده الوجودُ، وذلك، وإن كان يقتضيه ظاهر النصوص فباطن الحقيقة يدفعه، وهي الأصل. فوجب مراعاتها وتأويل النصوص. بأن ذلك على وجه المقارنة والتوقيف بأن تعتقد بأن الدعاء عبودية اقترنت بسبب الحاجة كاقتران الصلاة بوقتها، ورتبت الإجابة كما رتِّب ثواب الأعمال عليها؛ فالعطاء من وجه الفضل والعمل لمحض العبودية واقترانها لإظهار الحكمة. ولذلك قال بعضهم: «فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلَّا فالربّ يفعل ما يشاء».

ووجه انتفاء الفهم باعتقاد السببية أنه إن أعطى لم يشكر، وإن شكر كان شكره ضعيفاً لملاحظته سبباً في التحصيل، لأن الفرح بالمنَّة دون استشعار سبب أقوى منه مع استشعاره وإن مَنَع لم يرض وإن رضي فلا من حيث رؤية اختيار الحق تعالى، بل من حيث رؤية تقصيره، وهو نقص، والمطلوب في ذلك ما ذكره بأن قال:

وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بحق الربوبية.

قلت: وهما متلازمان، بل كل واحد منهما عين الآخر؛ فالصدق في العبودية عين القيام بحق الربوبية، وبالعكس، لكن يختلف البساط.

وعلامة الصدق على هذا الوجه ثلاث:

التفويض في القصد، والتوكُّل في التوجُّه، والرضا بالواقع من عطاء أو منع؛ فيقوم بشكر العطاء، ويقابل المنع بالقبول دون اعتراض ولا تَردد، وينبني على ذلك التحقق بخالص التوحيد، وعقد القلب بالامتثال في كل وجه.

وكل من كان قصده الظفر بمقصوده فهو بعيد.

ومن كان مقصوده بثَّ شكوى فقره لمولاه فهو في محلّ القرب.

فإن أضاف لذلك قصد المناجاة بدعائه فهو أحسن.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه: «لا يكن حظُّك من الدعاء الفرح بقضاء حاجتك دون الفرح بمناجاة مولاك، فتكون من المحجوبين»اهـ.

ثم ذكر بُرهان ما ذكر وبيّنه بأَن قال:

كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق.

قلت: كيف يكون طلبك اللاحق فيما لا يزال سبباً في عطائه السابق في الأزل؟ ذلك لا يصحّ أبداً!! لاستحالة تقديم المتأخر وتأخير المتقدّم.

وقد جفّ القَلم بما أنت لاقٍ، وفرغَ ربّك من أربع:

خَلقٌ، وخُلق، ورزق، وأَجل.

قال الواسطي[1] رحمه اللّه: «أقسام سبقت، ونعوتٌ أُجريت، كيف تنال بأعمال أو تُكسب بسعايات»اهـ.

ثم زاد المؤلف قوّة في البرهان وإيضاحاً لمعناه بأن قال:

جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العمل.

قلت: وذلك، لأن العلل محدثة مسبوقة، وحكم الأزل سابق غير مسبوق. وقد سئل ذو النون المصري، رضي اللّه عنه عن التوحيد، فقال: «أن تعلم أن قدرة اللّه في الأشياء بلا مزاج، وصُنعه لها بلا علاج، وعلّةُ كل شيء صنَعه، ولا علّة لصنعه، وليس في السموات العلا، ولا في الأرضين السفلى مدبِّر غيرُ اللّه، وكل ما خطر ببالك فاللّه بخلاف ذلك» انتهى.

ومن شواهد نفي العلَّة ما جرى في وجودك إيجاداً أو مراداً؛ إذ لا يصحُّ أن يكون شيء من ذلك عن سبب منك وهذا ما توجّه ببيانه فافتتحه بأن قال:

عنايته لا لشيء منك.

قلت: أراد بعنايته فيك: ما أظهر فيك من اعتنائه بشأنك؛ إذ أوجدك من العدم، وأمدّك بالنعم، وخصّك بالكرم، وعرّفك بانفراده بالوحدانية، واتِّصافه بالصفات العليَّة، مع البقاء والقِدم إلى غير ذلك مما أنت محتاج إليه، وهو غنيّ عنك فيه وفي غيره، وذلك كلُّه جارٍ لك من غير استحقاق

---

(١) محمد بن موسى أبو بكر الواسطي، أصله من فرغانة، صحب الجنيد وأبا الحسين النوري، عالم بالتصوف والأصول، دخل خراسان واستوطن مرو ومات بها ما يقارب سنة (٣٢٠هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٣٠٢) رقم (١٢)، وحلية الأولياء (١٠/ ٣٤٩).

ولا وسيلة سابقة؛ إذْ كنت عدماً محضاً، ونفياً صرفاً كما أشار إليه إذ قال:

وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته.

قلت: لم تكن شيئاً مذكوراً أولاً ولا آخراً ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

قابلتك عنايته بإيجادك وإيجاد ما أنت محتاج إليه، بل ما هو أعم من ذلك. وواجهتك رعايته في ذلك حتى حفظه عليك وحفظ وجودك مع ذلك إن قلت بالأعمال فلا جسم حتى يعمل، وإن قلت بالأحوال فلا قلب حتى ينشأ عنه الحال، وإن قلت لما عسى أن يكون من ذلك فأنت فقير إلى رحمته وهو غني عنك. فلم يبق إلَّا فضله وكرمه، كما بيّنه المؤلف إذ قال:

لم يكن في أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن إلا محض الإفضال وعظيم النوال.

قلت: يقول: الثواب يتعلَّق بالأعمال والأحوال بساط الكرامات، وهما الوسائل عند الطلب، ولم يكونا في محل القسمة الأزلية، ولا في وقتها ولا وقت، فلا يصحُ أن يكون علَّة في شيء، بل علَّة كل شيء إحسانه وكرمه، ولا علَّة، وكيف يَدخل في أفعاله العلل، وهو الفاعل المختار الغني عن الكل، وإذا لم يكن أزلاً إلَّا محض الإفضال، وهو العطاء بلا علَّة، وعظيم النَّوَال وهو التفضل بلا سبب، فلا يكون في الأزل إلَّا ذلك، فيرحم اللَّه القائل:

بلا عمل مني إليه اكتسبته سوى محض فضل لا بِشيء يُعلل

وهذا يستوي فيه العباد، لكن لهم وجوه من الاختصاص قد تتشوّف النفوس لوجهها فيقع الجواب بالنظر إلى المشيئة دون علَّة. وهذا ما ذكره المؤلف بأن قال:

اعلم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية فقال يختص برحمته من يشاء.

قلت: يعني أنه لا حجر عليه في أفعاله، فالتخصيص بحكم منه غير مُعَلَّل وإن كان لحكمة فهو الموجد لها والمبدئ والمنشئ، فلا علَّة لصنعه، وعلَّة كل شيء صنعه.

وإنما يتشوف لما ذكر؛ لوجوه ثلاثة:

معرفة الأشياء بأصولها، وهي شيء جبلت النفوس على طلبه وتعرّف الأسباب الموصّلة ليتوجه بها من أراد ذلك، وما في النفوس من الدعاوى الداعية لفهم أن لها قوَّة تتوصّل بها لما تريده، فردّت لعلمه تعالى ومشيئته حتى لا تبقى لها

دعوى ولا تصح لها أسباب، ولا يجري لها نظر في أفعال الحق تعالى، لكن الربوبية كما اقتضت عموم التصرّف وجب لها عموم التصريف، فالتصريف بحكم التعريف، والتصريف بوجه التكليف، وكلٌّ بحكمه وحكمته كما أشار إليه بأن قال:

وعلم أنه لو خلّاهم وذلك لتركوا العمل اعتماداً على الأزل.

قلت: وذلك لا يصح لهم من حيث الحكمة، وإن صحّ من طريق الحُكم؛ لأن أفعال العباد مظاهرُ لمقتضيات الأسماء وآثار الصفات.

فقال: إن رحمة اللّه قريب من المحسنين.

قلت: فجعل الرحمة بساط الإحسان، لأن الإحسان بسبب الرحمة، فمتى وجِد الإحسان، علمنا أن الرحمة هي الموجبة له، فرحمة اللّه هي الوسيلة إلى رحمته لا غيرها، وقد أشار نص الآية وخطُّها لذلك؛ فإن كتبوها بالتاء: قيل إشارة لما دخل عليها من رائحة الفعل، وهو المقدّر قبلها أعني قولهم:

التقدير: إن وجود رحمة اللّه، والداعي لهذا التقدير وصفُ الرحمة بالتذكير في قوله «قَرِيبٌ» ولم يقل قريبة. فافهم.

فالأعمال إذن علامات لا موجبات، كما أشار إليه من قال في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ إذ قال يُسألون عن فعله فيهم. فتأمل ذلك.

والمراد كلّه على جمع الشريعة بالحقيقة، وهو فيما ذكره المؤلف إذ قال:

إلى المشيئة يستند كل شيء، لأن وقوع ما لم يشأ محال وليست تستند هي إلى شيء.

قلت: يقول: الأمر، والنهي، والأحكام والأسباب والفوائد وغيرها لا يصدر شيءٌ من ذلك إلّا بالمشيئة، وعلى ظهور أثرها تترتب الأحكام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا . . .﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإذن قاعدة التحقيق ليس إلّا سابقة التوفيق، فكلّ شريعة حقيقة، ولا ينعكس. الشريعة مُبيِّنة والحقيقة مُعيِّنة، الشريعة من عين الحكمة، والحقيقة من عين الحكم، وهو تعالى متصف بالقدرة والحكمة فكلاهما وصف الربّ، ولكلٍ منهما متعلَّق في الوجود يتعين اعتباره، ولا يصح نفيه بمقابله، فإثبات أحدهما دونَ الآخر نقصٌ في النظر وخطأ في العرفان، وزلّة في الإدراك، فلزم إثباتُ الجميع

لثبوتهما، وإلا فهو ضلال أو قريب منه. (اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له)[1] فاعرف ذلك. وباللّه التوفيق.

تنبيه:

لئن كان وجه التعبد مطلوباً بالطلب في عين التقرّب فهل التبري دون الطلب قد يكون أتمَّ أو مساوياً، لا سيّما مع إضافته لوجه من الحقيقة؟

وهذا ما توجه إليه المؤلف في:

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٨٩١) رقم (٤٦٦٦) ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٠٤٠) رقم (٢٦٤٧).

الباب التاسع عشر

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه: ربما دلّهم الأدب على ترك الطلب.

قلت: في قوله: «ربما» إثبات للشيء وقسيمه بطريق التجويز، فكما قد يدلّهم الأدب على ترك الطلب قد يدلّهم على وجوده، وقد يدلُّهم على التعريض، وهو بينهما، فهي إذن ثلاثة:

طلب: وموقفه عند جريان الفوائد، وملاحظة الأسباب وظهور أثر الكسب والاكتساب.

وتعريض: وموقفه عند تعذُّر الأسباب ورجحان الحقيقة بلمعان نور المشاهدة الموجب لملاحظة العبودية في عين تعظيم الربوبية.

وسكوتٌ: وهو عند غلبة الحقيقة ونفي شواهد الخليقة.

وقد وقعت هذه كلُّها من أنبيائه عليهم السلام في أحوال مختلفة: هذا «إبراهيم» عليه السلام سأل لسان صدق في الآخرين وغَيْره من مصالح الدنيا والدين وعرّض في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[(١)] [الشعراء: ٨٢].

وقال عندما زجّ في المنجنيق: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»[(٢)]، فلم يسأل ولم يُعَرِّض، اكتفاءً بعلمه تعالى، وذلك عند تعذّر الأسباب وذهاب شواهد الاكتساب.

وإنما يكون السكوت أدباً بشرطٍ ذكره المؤلف إذ قال:

اعتماداً على قسمته واشتغالاً بذكره عن مسألته.

قلت: فالاعتماد على قسمته هو المؤثر لسكون النفس عند الطلب، والاشتغالُ بذكره هي العبادات الواقعةُ بدلاً منه، بل هي أقوى منه لنفس الحظ منها على كل حال. قال رسول اللّه ﷺ: يقول تعالى: «من شغله ذكري عن مسألتي

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٧٥) رقم (٧٥٢٩)، والبغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٣٤٩).

(٢) سبق تخريجه ص (٦٢).

أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين، وما يُسأل اللَّه تعالى شيئاً أحبَّ إليه من أن يُسأل العفو والعافية. . .»[1] الحديث.

ومن أدلَّة أن الدعاء غير مطلوب لذاته، ولا مقصود في ذاته ما ذكره المؤلف إذ قال:

إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال، وإنما ينبّه من يمكن منه الإهمال.

قلت: كما لا يصح أن يكون الطلب سبباً لا يصح أن يكون تذكيراً ولا تنبيهاً، لأنك إن قلت بالسببية فجلّ حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل، وإن قلت تذكيراً فالتذكير للإغفال، ولا إغفال.

وإن قلت تنبيهاً، فالتنبيه للإهمال، ولا إهمال.

وكيف يصحُّ شيء من ذلك وهو غني كريم رحيم عالم بما قلّ وجلَّ من أحوالك لا تعتريه العوارض ولا تطرأ عليه الآفات، إذ ذلك كلُّه عليه تعالى محال.

والقصد بالجميع إنما هو إظهار الفاقة؛ لأنها محطُّ الفوائد والعوائد كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

ورود الفاقات أعياد المريدين.

قلت: الفاقة: شدَّة الحاجة، هي ذاتية للعبد، وإنما يرِد عليه مُذكِّراتها، فإذا وردت أثارت ذكرَها فحصل شهودها.

وخير أوقاتك وقت تشهد فيه فاقتك وتردُّ فيه إلى وجود زلَّتك؛ لأن ذلك يقطعك عن غيره، ويردُّك إليه، وهو رأس الفوائد، وأعياد العمر عند أهل اللَّه تعالى؛ لأن العيد سمي عيداً لأنه يعود على الناس بالأفراح، ويعودون فيه على أهاليهم بالإنفاق، ويتكرر عليهم وجوده وتظهر على كل واحد فيه حلية غناه وكماله بالزينة وغيرها، وكذلك الفاقة هي زينة المريدين وقائدته يُفْطِر فيها على تمر المشاهدة من صوم المجاهدة، وينحر نفسه بسيف التبرّي والمخالفة، وفي معنى ذلك:

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق حُبّه جرعا
فقر وصبرٌ هما ثوباي تحتهما ... قلبٌ يرى الفاقة الأعياد والجمعا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٤) رقم (٢٩٢٧١)، وأبو عبداللَّه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٤٠) رقم (٥٨٤)، وابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٣).

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مَأتمٌ إن غبت يا أَملي والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

ثم أشار لوجوه من فوائد الفاقة وبيان كونها أعياد المريدين فقال:

ربما وجدت من المريد في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة.

قلت: قد يجد في الفاقات من مزيد الإيمان والعلم والمعرفة الحقيقية ما لا يجده في غيرها؛ لأن العبودية فيها أظهر والدعوى فيها أبعد، والنفس فيها أقرب إلى الحق، وأبعد من التكبّر. والصوم والصلاة تعرض لهما عوارض الدعاوى ومناقضةَ الشوائب من الرياء وغيرها، فهما يفتقران إلى التخليص والإخلاص، بخلاف الفاقة فإنها تسلب العبد من هواه وتردّه لمولاه، وتشغله عمّا لا يعنيه بما به تولّاه.

قال في «التنوير»: «في البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلّا أولو البصائر؛ ألم تر أن البلاء يخمد النفس ويُذبلها ويُخرجها عن طلب حظوظها، ويقع مع البلايا وجودُ الذلَّة؛ ومع الذلَّة تكون النصرة، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وفي الحديث ما يؤيده.

وبحسب هذا يتعيَّن الفرح بالفاقات، بل طلبها كما كان حال أهل الهمم العليَّة، وهو عكس ما نحن عليه لضعفنا، وإلَّا فهو كما بيّنه المؤلف إذ قال:

الفاقات بسط المواهب.

قلت: البسط بضم الموحدة والسين جمع بساط، وهو: ما يجري فيه الشيء ويظهر عنده.

والمراد بالمواهب هنا ما هو أعم من الفتوحات العرفانية، ويظهر لما ذكر قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ . . .﴾ [النمل: ٦٢] الآية.

وقد قال أبو يزيد رضي اللَّه عنه: «خزائننا مملوءة بالخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلَّة والافتقار».

وقال الشيخ أبو محمد عبدالقادر الكيلاني، رضي اللَّه عنه: «أتيتُ جميعَ أبواب الحق فوجدت عليها الازدحام حتى إذا أتيتُ باب الذلَّة والافتقار، فوجدته خالياً، فدخلت منه فالتفتُّ فإذا أنا قد سبقت القوم

وتركتُ الناس يزدحمون على الأبواب» انتهى بمعناه. وقد أنشدوا في معنى ذلك:

لا يبعدنك عَتبُنا عن بابنا فالعهد باقٍ والوداد مصان
وبحسبنا وبلطفنا وبجاهنا شاع الحديث وسارت الركبان
فإذا ذَللت لعزّنا ولجاهنا ذلّت لعزتك الملوك وهانوا

وقد تقدّم من نوع هذا الكلام عند قوله: (إذا فتح لك وجهة من التعرّف فلا تبالي معها إن قلّ عملك).

واعلم أن الفاقة لا تكون نافعة لصاحبها إلّا بتحقيق العبودية، وذلك في أربعة أشياء:

الرضا بالواقع من غير تبرّم ولا اعتراض.

والقيام بالحقوق المطلوبة في ذلك من عبادة وغيرها.

والفرار من النفس ودعاويها، بل من دعاوى الخلق كلهم في ذلك بالانحياش إلى اللّه تعالى والإقبال على اللّه باللجوء إليه، وإظهار ما أنت عليه من فاقة وافتقار، لا من حيث ما تحتاج، بل من حيث احتياجك وافتقارك، كما أشار إليه قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] فذكر فقره، لا حاجته، واحتياجه لا مطلبه.

وأصل ذلك كلّه تصحيح الفاقة، لا وجودها، كما نبّه عليه إذ قال:

إذا أردت ورود المواهب عليك صحّح الفقر والفاقة لديك.

قلت: تصحيح الفاقة والفقر بمعنى تأكيدهما في النفس حتى يكون ثبوتهما مستشعَراً في عموم الأوقات والحالات، وإلا فهما ثابتان لوجودك بنفس وجودك؛ إذ فاقتك لك ذاتية، ويتحقق لك ذلك بثلاث:

تقدير عدمك، واستشعاره، وتتبّع ذلك بالتفصيل في شواهد أحوالك؛ إذ ما من حركة ولا سكنة إلّا وهي مشاهَدةٌ بذلك، فمن تتبَّعه وجَده فانتفع، ومن أهمله غَفَل فاندفع. وقد يبعد الإجمال في محل التفصيل، كما يثبت التفصيل في محل الإجمال.

ثم استشهد لما ذكر بآية الصدقة فقال:

إنما الصدقات للفقراء.

قلت: فمن صحَّ فقره استحقَّ الصدقة.

هذا ظاهر الحكم شرعاً وإشارته في محل الحقيقة جارية كذلك.

قال بعضهم: «إلٰهي قد صحَّ إفلاسنا من طاعتك فمن أحقُّ منَّا بصدقات عفوك».

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «وتصحيح العبودية ملازمة الفقر والعجز والذل والضعف للّه تعالى»، وأضدادها أوصاف الربوبية فما لك ولها، فلازمْ أوصافك، وتعلَّق بأوصافه وقُل من بساط الضعف الحقيقي: يا قوي مَن للعاجز سواك، ومن بساط الفقر الحقيقي: يا غني مَن للفقير سواك، [ومن بساط العجز الحقيقي: يا قدير من للعاجز سواك]، ومن بساط الذلّ الحقيقي: «يا عزيز مَن للذليل سواك، تجد الإجابةَ طوع يديك، واستعينوا باللّه واصبروا إن اللّه مع الصابرين» انتهى على تقديم وتأخير في ألفاظه، وهو معنى ما ذكره المؤلف إذ قال:

تحقق بأوصافك يمدّك بأوصافه.

قلت: وذلك أن إقرارك بالعجز والفقر والذل والضعف يُرجِعُك إليه فتصير قادراً به، غنياً به، عزيزاً به، فيعود فقرُك غِنى، وعجزك قدرة، وضعفك قوة، وذُلّك عِزّاً، لأنك في محل الاضطرار وهو يجيب المضطر إذا دعاه، وفي مقام الرضا والصبر وهو مع الصابرين، فافهم. ثم ذكر المؤلف التفصيل فقال:

تحقق بذلك يمدّك بعزّه.

قلت: حتى لا يكون عزٌّ في الوجود إلَّا بك وبمن تعتزُّ به.

تحقق بعجزك يمدّك بقدرته.

قلت: حتى تصير قدرةُ القادرين من الخلق عجزاً في قدرتك.

تحقق بضعفك يمدّك بحوله وقوته.

قلت: حتى يكون كلُّ شيء ضعيفاً في قوّتك بحيث لا يُعازُّك أحدٌ إلَّا أذلَّه اللّه، ولا يُغالبك أحدٌ إلا أعجزه اللّه، ولا يقاويك أحد إلا أوهنه اللّه، فالتحقيق بالأوصاف: بساط الكرامة عاجلاً بظهور التصرّف والخدمة والحرمة، وآجلاً بثبوت الرحمة والنعمة، وذلك لا يدل على كمال الاستقامة، وإن دل على الاختصاص، كما افتتح له الباب الموفى:

الباب العشرون

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه: ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة.

قلت: الكرامة أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدّي، ولا خال عن الاستقامة، ولا مستند للأسباب، يُظهره اللّه تعالى على يد من أراد اختصاصَه من أهل طاعته في البداية، أو في النهاية، أو بينهما.

فهي تدل على اختصاص صاحبها، لا على استقامته؛ فيتعيّن تعظيمه واحترامه، لا تقديمه واتباعه، إلا أن يظهر عليه كمال الاستقامة، وهي: الاستواء في اتِّباع الحق ظاهراً وباطناً على منهج السداد بلا عِلة.

فهي إذن توبة بلا إصرار، وعمل بلا فتور، وإخلاص بلا التفات، ويقين بلا تردد، وتوكُّل بلا وَهَن، مُلازمُهَا واصلٌ قطعاً، فهي الكرامة الحقيقية لا غيرها...

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة؛ فمن أُعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبدٌ مفْتر كذاب مُغْتر ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدّواب وخِلَع الرضى».

وقال: «وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن اللّه فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور» انتهى. وهو عجيب نافع إن شاء اللّه.

والحاصل أن ظهور الكرامة وإن دلّ على الاستقامة فلا يدل على كمالها، فلا يغترر بها إلّا مخدوع، ولا يُهمل فضل اللّه فيها إلّا مغرور، فلزم التحقق والتحقيق كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج.

قلت: فعلامة إقامة العبد في الكرامة إدامةُ جريانها عليه مع حصول نتائجها، وهي ثلاث:

وقوع الهداية بإنهاض النفس، وعلوّ الهمة بالتعلُّق بالمعاني، وكمال المعرفة بتحقق اليقين، والرضا عن اللّه في كل وقت وعلى كلّ حال، فقد قال الشيخ أبو

الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «فائدة الكرامة تعريف اليقين من اللّه تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية بجمع لا يفترق وأمر لا ينفك كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد، يستوي من تعرّف اللّه إليه بنوره، ومن تعرّف إليه بفعله»، فهي إذن تفتح لليقين سبباً، وترِي المريدَ عجباً، وتورث العارفَ أدباً، فإن لم يكن شيء من ذلك خيف على صاحبها السلب والحرمان، لأنه يرى نفسه فيها، وبها، فيهلك.

ثم حكم إخفائها إظهار على حسب بساطها، وذلك ما بيّنه المؤلف إذ قال:

من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة مع ربه، ومن عبر من بساط إحسان اللّه إليه لم يصمت إذا أساء.

قلت: في بعض النسخ «عبّر» بالتشديد من التعبير، وهو المناسب لقوله: «أصمتته». وفي بعضها بالتخفيف من العبور، وهو الدخول، وعليه فكأنه يقول: من دخل حضرة الحقّ ناظراً لنفسه إذا أراد أن يظهر ما جرى له من الكرامات وغيرها ناداه منادي الحقيقة: تذكر كرامتَك، ولا تذكر ذلّتك!!

فيقف عند حدّه، ويفرّ مما بدا له عِوضاً من فرحه به، فيكون حَاله قبضاً في قبض، وكتماناً في كتمان، وستراً في ستر، وهذا حال الزهّاد والعبَّاد وأهل الطاعة والأوراد ممن لم يحظ بالمعرفة، ولا تبرّأ من نفسه.

فأمّا من دخل ناظراً لإحسان مولاه، عاملاً على ما به يتولَّاه، راجعاً إليه فيما منّ به عليه وأولاه، فذلك الذي ينطلق لسانه، ويسترسل بالإظهار بيانه، فلا يحتشم عند التعبير، ولا يبالي بما هو فيه من جليل وحقير؛ إذ يرى نفسه منعدماً من البين، ويشاهد تعريف الحقِّ كرؤية العين، وعلى هذا يجري قولهم: «من عرف اللّه انطلق لسانه» وقد يكون لهما معنى غير ذلك.

فمن هاهنا اختلفت طرق الناس في الإظهار والإخفاء والقبول والتبري والفرار والفرح، وقد يتعاقب ذلك على الشخص الواحد، واللّه أعلم.

ثم التعبير تارة يكون على حقيقته بلا تحقق، وهو حال العلماء وأهل البداية، فهو يفيد العلم والفهم دون التأثير.

وتارة يكون عن تحقُّق وتمكُّن، وهو حال أهل المعرفة والكمال، فيفيد التأثير والانفعال، وهذا الذي نبّه عليه المؤلف إذ قال:

تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير.

قلت: أنوار الحكماء هي الظلال الواقعة في صدورهم من معاني ما فُتح لهم من الحكمة التي هي إصابة الحق في القول والعمل، فهي تسبق إلى قلوبهم ثم ينطقون بما يناسبها على حسب حالهم منها، فتصل إلى قلوب السامعين على حسب ذلك، فحيث صار التنوير من قلوبهم وصل التعبير من قلوب غيرهم؛ فمن كان نطقه عن نور تام أفاد المخاطبَ نوراً تاماً.

ومن كان عن ناقص فعن ناقص، ومن كان عن هوى فهو كذلك؛ لأن ما خرج من القلب دخل القلب، وما قصر على اللسان لم يجاوز الآذان، ثم إذا وصل القلب وعرف لم يمنعه من التمكُّن إلَّا جُحودٌ أو ضلال، كحال الكفَّار إذا أقرّوا بالحقيقة ولم يصدّقوا بها جُحوداً وعناداً حتى كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم خوفاً من تمكُّنها لاستجلابها، وقد ذكر المؤلف سرّ ذلك بأن قال:

كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز.

قلت: سواء كان ذلك الكلام عادياً أو شرعياً أو غيره، لأن الألفاظ حلية المعاني، والمعاني قلبية وما برز من بساط ظهر أثره فيه.

والناس ثلاثة:

متكلّم مجموع، ومتكلِّم مسموع، ومتكلِّم مدفوع.

فالمجموعُ: هو الذي تنفع إشارتُه؛ وتُفيدُ عبارتُه.

والمسموع: هو الذي تُسْتَحلَى عبارَته وتُفهم إشارته.

والمدفوع: هو الذي تَمجّه الأسماع، ولا يحصل به الانتفاع.

وقد أشار المؤلف إلى الأول والثاني بأن قال:

من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته وجليت إليهم إشارته.

قلت: علامة كلام المأذون له أن يكون مفهوماً مقبولاً مُحلاً مُجلاً مُحبباً، إذ قد اختلفت النسخ؛ ففي نسخة (وحلّيت) بالحاء واللام بعدها ياء من التحلية، وفي نسخة بالجيم كذلك من «التجل» وهو الإظهار، وفي نسخة بحاء وموحّدة من المحبة وكذلك كان كلام الأنبياء عليهم السلام، إذ لم ينكره أحد من حيث ذاته، بل أقروا بحسنه وصرّحوا بكماله، وأنكروا حقيقته جحداً وعناداً إذ قالوا: أساطير

الأولين، وقالوا إنما يعلِّمه بشر، وهذا سحر مبين، وسحر مستمر، وسحر يؤثر... إلى غير ذلك.

والإذن عبارة عن واحد من ثلاثة أوجه: عادي، وشرعي، وذوقي، فالعادي التيسير والفيضان، والشرعي تعلُّق الأمر الشرعي به وجوباً أو ندباً، والذوقي، ومرجعه لانطلاق اللسان دون احتشام ولا تتبُّع.

قال أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه: «الولي يكون مشحوناً بالعلم، والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أُعطي العبادة كان كالإذن من اللّه تعالى له في الكلام»اهـ. ثم ذكر علامة تخلُّف الإذن في التعبير وأبان عنه بأن قال:

ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها الإظهار.

قلت: الحقائق ما يقع من نكت الإلهام بالأمور العرفانية بالقلب ويتمكن منها، ولها صورة في النفس وعبارة في الخارج، إذا تم نورها ظهر في الباطن والظاهر. والعبارة من نورها ما يشهد لصاحبها بالتحقق. ثم إذا أذن له في التعبير عنه برزت بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار؛ وإلَّا ظهرت بنعوت الظلمة كأنها شمس اعتراها كسوف لا تكاد تُقبل لثقلها ولا تفهم لبعدها، ولا تُسمع لامتجاجها.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه: «كلام المأذون له يخرج وعليه حلاوة وطلاوة وكسوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوفَ الأنوار؛ حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وتردّ على الآخر» انتهى.

وربما قبلت من الشخص الواحد في وقت وردّت عليه في غيره، بل ربما قَبلها شخص وردّها آخر في وقت واحد وخطاب واحد، وما ذلك إلَّا لاختلاف الإذن بحسب الأوقات والحالات والأشخاص.

ثم ذكر الحامل على عبارة المأذون له دون غيره من وجدٍ صادق أو قصد هداية، وبيّنه بأن قال:

عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد.

قلت: فيضان الوجد غلبته وإتْيانه بصفةٍ من القهر لا يمكن معها التمالك طرباً أو غيْرة.

والوجْد: وقع الحقيقة في القلب على وجه يقع به استغراقه فيما وقع عليه ولا يصح معه التمالك في كتمان الواقع غالباً.

وهداية المريد: إرشاده لما به صلاح حاله من أحد ثلاثة أمور: خروجٌ من حيْرة في ذوقه، أو استراحته في شوقه، أو ترقٍ له في همَّته أو عمله أو حالته.

وفيضانُ الوجد إنما يكون من ضعيف، كما أن الإرشاد لا يقع إلَّا من قوي؛ لأن مقصد الكل الكتمانُ، وهو لازم لوجوه ثلاثة:

فراراً من التلوين بالظهور، وغيْرةً على أسرار الحق أن تكون مبتذلة، وتحقيقاً للهداية بالفرار من منغّصات ومشوشات القلب، كما يشير إليه بقوله بعد: (لا ينبغي للسانك أن يُعبّر عن وارداته).

وليس هذا خاصاً بالتعبير، بل إظهاراً لكراماتٍ كذلك.

ولكل طريق فريق بيّنهم المؤلف بأن قال:

فالأول حال السالكين، والثاني حال أرباب المكنة والمتحققين.

قلت: وذلك لأن السالك تغلبه أحواله ولا يتمالك، وليس من أهل القدوة حتى يحتاج لأن يهدي غيره، بل شُغله بنفسه وقلبه قد صرفه عن التوجيه لغيره فضلاً عن الاشتغال بهدايته.

والمتمكن قد غَلَب على حاله، وحَكَم على حقائقه، وفرغ من تهذيب نفسه، فتفرّغ لهداية غيره فصار ذلك واجباً عليه أو مندوباً له، ثم هو لم يجب عليه إلَّا بعد الأمر به.

والمُكْنة: المتمكن في المعرفة، وحصول المكانة فيها بحيث لا تؤثر فيه عوارضُ التقلّب وإن عارضته، وذلك لتحقق القلب والسرّ والروح بما هو فيه من حاله الذي يبديه.

ثم يتعين على المكنة عند قصد الهداية أن يراعي في تعبيره حق نفسه وحق المخاطب، وحقوقَ عامَّة أهل الطريق وغيرهم إن وسعه ذلك؛ فأما حق نفسه بأن لا يعبّر إلا عن ما هو متمكِّن فيه ومتحقق به، وأما حق المخاطب: بأن يأتيه بذلك على قدر حاله وذوقه وفهمه وعلمه دون اتساع ولا ضيق، لينتفع به، وإلا تشتت في التوسُّع وخرج في الضيق.

وأما حق الغير: بأن يعبّر عبارة تفيد العام في عمومه، ولا تدفع الخاص عن خصوصه، وتكون سالمة من الإبهام والإيهام؛ حتى لا يقع إنْكار ولا اعتراض.

فأما المريد فلا يتقيّد؛ لأن حاله حاكم عليه.

ثم التفصيل من العبارة على قدر الحالة، وهذا ما ذكره بأن قال:

العبارات قوت لعائلة المستمعين.

يقول المستمعون للحقائق وغيرها عِيالٌ على المتكلِّم فيها، وهي أقواتهم منه؛ لأنهم يطلبونها لقوام المعاني كما يطلبونها لقوام الأبدان، وينتفعون بها في نفوسهم كما ينتفعون بالقوت في أبدانهم، ويتفاوتون في الانتفاع والتحصيل بها كما يتفاوتون في أقواتهم انتفاعاً وتحصيلاً؛ فينبغي أن يراعى حقُّهم في ذلك بتهذيبه وترتيبه وتقريبه حتى تسوغه قلوبُهم وتدركه عقولهم، ولا ينال لأحد منهم ما يضرُّه في حال ولا مآل ولذلك نهى عن «التفيهُق» في الكلام، وتكلُّف السجع وغيره فتأمل ذلك. ثم قال:

ليس لك إلا ما أنت له أكل.

قلت: يحتمل أن يكون المخاطب في كلامه المعبِّر، ويحتمل أن يريد المعبَّر له. والخارجُ في ذلك ثلاثة تأويلات:

أحدها: ليس لك إلَّا ما انتفعت به فلا تشتغل بنفع أحد إلَّا بعد انتفاعك.

الثاني: ليس لك إلَّا ما يليق بك فاحرص على تحصيل ما يليق بغيرك، فلا تشغل نفسك بما هو عنك أجنبي.

الثالث: ليس لك إلا ما سمعته فأثره فيك، لا ما تأثر به غيرك.

فإذا عرفت ذلك في جهة فالزمها فإنَّ فَتْحك منها.

قال في «لطائف المنن»: وإنما يكون الاقتداء بشيخ دلَّك اللَّه عليه، وأشهدك ما أودعه من الخصوصية لديه، ثم ذكر أمره... إلى أن قال: «وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه».

قلت: وليس شيخك من واجهتك عبارتُه إنما شيخك الذي سرى فيك إشراقه، ليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، ليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله، شيخك هو الذي خرج بك من سجن الهوى ودخل بك على الموالي.

شيخك الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلَّت فيها أنوار ربّك ونهض بك إلى اللَّه فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، وما زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه فزجّ بك في نور الحضرة وقال: «ها أنت وربُّك».

وقال الشيخ أبو مدين رضي اللَّه عنه: «الشيخ من شهدتْ له ذاتك بالتقديم

وسرى بالتعظيم، الشيخ من هذَّبك بأخلاقه وأدّبك بأطراقِه، الشيخ من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه» انتهى.

وكما يتعيَّن على السامع ما قلناه يتعين على المُلْقِي أن يختار لكل سامع ما يليق به؛ فلأهل الغفلةِ الوعظ والتذكير، ولأهل الإرادة الأحوالُ، ولأهل المعرفة الحقائق، وكلٌّ يعبّر عن بساط حاله من نقص أو كمال ذكره بأن قال:

ربما عبر عن المقام من استشرف عليه، وربما عبر عنه من وصل إليه.

قلت: مقصود هذا الكلام: أن التعبير عن المقام لا يفيد كون المعبّر محققاً به ولا واصلاً إليه، بل كونه مستشرفاً عليه، فإما بزيادة وصوله إليه، وإما مجرَّداً عن ذلك. والفرق بين الحالين غامضٌ إلَّا ببصيرة نافذة وتأييد ربّانيّ ينشأ عن تحقق وتحقيق كما قال:

وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة.

قلت: يعني مُشتبه ومختلط لا يميِّزه إلَّا صاحب بصيرة نافذة تنظر بنور إلٰهي فتدرك هذه من هذه؛ لكن لكل شيء علامة يعرف بها؛ فعلامة المتمكِّن من الحقيقة الواصل إليها ثلاث:

سريانُها في كلِّيته فيحظى بها كلُّ شيء من ذاته ظاهراً وباطناً، سراً وعلانية. وجريان أفعاله ومعاملاته على مقتضاها دون احتياج لأسباب ولا غيرها. وتأثر السامع بها على قدره فلا يمجُّها ولا يستثقلها وإن لم يظهر فيه قبولها والعمل بها.

وعلامة المعبِّر عن إشراف، ثلاث:

اهتزاز ذاته فرحاً عن التعبير.

وقصورُه في الإخبار عن المعنى الجامع المحيط.

والاحتياجُ للأسباب والمعونات في تحصيلها في ذاته، وتوصيلها لغيره، كما تقدَّم عند قوله: (تسبق أنوارُ الحكماء أقوالَهم) فتأمَّل ذلك.

وإذا كان الأمر ملتبِساً والتعبير مضرّاً فالتماسك أولى.

وعلى كونه مضرّاً بالمبتدئ نبّه إذ قال:

لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته.

قلت: يعني قبل تمكنه من الحقيقة، واستيفائه موجبات الطريقة فإن شأن المريد شغله بنفسه، ومتى عبّر فقد اشتغل بغيره وذلك يشوّش عليه حاله وقد يوجب نقصه كما قال:

فإن ذلك مما يقل عملها في قلبه ويمنعه وجود الصدق مع ربه.

قلت: أما قلَّة عملها في قلبه فإنها إذا بقيت في باطنه تردد معناها في نفسه تردداً يقتضي ارتسامها في الخيال، ثم لا يزال كذلك حتى يصير ملازماً لا يفارق، ثم لا يزال حتى ينطبع فيها وتنصبغ بها الحقيقة، وإذا خرجت من القلب صارت لها صورة في الخارج فأوجبت حديث النفس بما ينشأ عنها وما يجري بسببها فلا تؤثّر شيئاً.

وأما منعها وجود الصدق فلأنها تثير ثلاثة أشياء:

الفرح بها، وهو حظّ نفساني، واستشعارَ المزيّة، وهو أعظم، وتعظيمَ الخلائق، وهو بساط الرياء والتصنُّع.

وقد ذكر الشيخ حكمتين: قلّة عملها، ومنعها الصدق. وبقي ثالث، وهو الحرمان من التحقق بها؛ لأن المريد إذا تكلّم صاحبُ عِلم لا صاحب مال.

وقد قال الشيخ أبو العباس بن العريف[1]، رضي اللَّه عنه: «إن الحكمة إذا بطنت خصّت أهلها فدامت ونفعت، وإذا ظهرت عموماً أنكرها من ليس من أهلها فانقطعت وارتفعت، وفيها ظهر من الحجة كفاية لتعريف المحجة» انتهى.

ثم من دعاوى التعبير طلب المنزلة في قلوب الخلق، وذلك من التشوّف لما عندهم. وقطعُ ذلك بالنظر إلى الحق سبحانه فيما يجريه على أيديهم كما قال:

لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق حتى ترى أن المعطي فيهم مولاك.

قلت: فأنت بمعزلٍ عنهم في عين التوجّه إليهم، وسواء كان الأخذ منهم بسبب وبلا سبب فلا بدّ من هذا الشرط؛ فقد قال يحيى بن معاذ الرازي رضي اللَّه عنه: «من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وُكل إلى المخلوقين» انتهى.

وعلامةُ التحقق في ذلك ثلاث:

عدم حصر الجهات بترك الإشراف والتشوّفات، وسقوط الحرص في عموم الأوقات والحالات حتى لا يصدّه الرزق عن مندوب ولا محبوب، والتمسك بالحق في كلّ وقت وحال بحيث لا يترخَّص بوجه غير مستقيم، ولا يقابل الخلق بقلب

(١) أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء اللَّه، أبو العباس، ابن العريف الصنهاجي الأندلسي المربي والمقرئ، صاحب المقامات والإنشاءات، ولد سنة (٤٥٨هـ)، غُرِّب عن مراكش، توفي بها سنة (٥٣٦هـ). انظر سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١١) رقم (٦٨).

سليم فلا يذمُ مُعطياً ولا مانعاً، ولا يمدحهما إلَّا من حيث أمر اللَّه فيهما مع اقتصاره في ذلك عن المبالغة والميل في الطريق.

فهذه الشروط الباطنة، وقد جمعها مع الظاهرة بأن قال:

فإن كنت كذلك فخذ ما وافق العلم.

قلت: فإن كنت معقود القلب بالحقيقة كما ذكرنا فلا تهمل الشريعةَ، بل خذ من اللَّه ما أجرى على أيديهم مما وافقك العلم على أخذه وهو الحلال الطيّب المصحوبُ بالورع أو المتفقُ عليه عند أئمة الفتوى، أو الراجح عند إمامك أو غيره عند الضرورة.

ومرجع ذلك كلّه لفقه النفس فعادلَ العلمَ بالحكم الأصلي.

وقد قال الشيخ أبو إسحاق الجبنياني رحمه اللَّه: «اكتسب بالعلم وكُل بالورع» وهي رخصة عظيمة. وباللَّه التوفيق.

ثم ذكر المؤلف رحمه اللَّه حال العارفين في همَّته ليكون أسوَة لمن سلك طريقه فقال:

ربما استحيى العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته، فكيف لا يستحي أن يرفع لخليفته.

قلت: كلّ هذا علوُّ همّة وتعظيم الربوبية، ومن ثَمَّ جاء أن «علو الهمّة من الإيمان».

وأحسن من ما يُحكى في ذلك قول بشر رحمه اللَّه لعلي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه في المنام: ما أحسن عطفَ الأغنياء على الفقراء طلباً للثواب.

فقال عليٌّ كرَّم اللَّه وجهه:

«وأحسن من ذلك تيهُ الفقراء على الأغنياء ثقةً باللَّه».

قال التستري رحمه اللَّه:

«وأكبر من ذلك همّة العارفين تتلاشى فيها جميع المخلوقات فضلاً عن المقدورات» انتهى.

والنقل في هذا الباب كثير. وقد أشبع منه في التنبيه، فانظره.

تنبيه:

لما كان القبول والردّ محل الالتباس، وكذا أعمال الأسباب وعدمها افتتح الباب الحادي والعشرين:

الباب الحادي والعشرون

فقال: وقال رضي اللّه عنه: إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه.

قلت: التبس: اشتبه واختلط.

والمراد بالأمرين: أمران واجبان أو مندوبان أو مباحان أو مكروهان لا مندوحة عنهما ولا أرجحية لأحدهما على الآخر، ولا يمكن الجمع بينهما.

كبرّ أحد الأبوين لمخالفة الآخر، وحضور جنازتين لمتساويين في الحق، وأخذ هدية أو تركها لمن لا يتغيّر بالردّ ولا يُسرّ بالقبول، والخمول بدلاً من وقوع الجاه المخوِّف في المآل.

وثقل الشيء على النفس على ثلاثة أوجه:

ثقل من جهة الحقيقة، وثقل من جهة المعنى، وثقل من جهة الطبع. وهو المعتَبَر هنا، وله علامات ثلاث:

العجلة، والأمن، وعمى العاقبة.

فإذا توجّهت لشيء لا تعرف له مادةً في الأحكام ترجِّح فيه الترك من الفعل، فإن كان مع أمن لا مع خوف، ومع عجلة لا مع تأنٍ، ومع عمى العاقبة، لا مع بصارة العاقبة فاعلم أن خفّتَه على النفس من هواها، وإن ثقل عليها مع كزازة وطيش وعمى عاقبته كذلك.

وعليه يتنزّل كلام المؤلف أولاً وآخراً بما ذكر فوقه. ثم قال:

فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً.

قلت: وذلك لأنها مجبولة على ضد الخير، فإذا أدبرت بلا علَّة أو أقبلت بلا دليل مع ذكر فهو دليل هواها، وإن كان ذلك مع دليل وظهور حكمة الإيثار فهو من الحق، لأن الأنوار تتعاضد كما أن الظلمات تتَراكم.

وهذا الميزان إنما يكون للنفوس اللوَّامة التي تخطئ تارة وتُصيب أُخرى، وليس لها نور تهتدي به، فأما من له نور يهتدي به فليعمل على حقيقة ما يلقيه إليه الكشفُ والإلهامُ عند تعذّر الدليل الشرعي، وذلك بأن يبسط نور إيمانه على ما يتوجّه إليه بصدق وتحقيق، فإن ظهر له كالشمس أقبل بلا تردد، وإن بان له كالليل

أدبر بلا توقّف، وإن كان كالغَبَش توقّف فيه، لاشتباه حاله، وهو في ذلك كلِّه تابع للشرع في إثبات الظاهر وحسن الظن بالمسلمين.

وإنما يفيده هذا الأمرُ وجودَ الحذر ونحوه، وأصله قوله عليه الصلاة والسلام: «استفت قلبك، وإن أفتوك، وإن أفتوك، وإن أفتوك».

فأما النفس الأمَّارة فلا حديث عليها ولا عهد لها، والحقُّ عليها أثقل من ثقيل؛ فهي أجرأ في لزوم الفراغ من مواطن ميلها، ويُستعان عليها بقصد المخالفة أبداً. وباللّه التوفيق.

وما ذكر في «لطائف المنن» من ميزان الموت يليق فيه تحقيق ذلك على النفس حتى كأنه واقع، ثم هذا يجري في موقف الأحكام لا غير، واللّه أعلم.

ثم إذا ترجّح شيء بالشرع وجب ترجيحه وكان العدول عنه هوى، كما قال:

من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بحقوق الواجبات.

قلت: الهوى: الميل للأغراض النفسانية.

واتِّباعه: العمل على مقتضاه، فالإقبال والإدبار من غير مبالاة بالشرع. وإنما تسرع النفس للنوافل مع عدم القيام بحقوق الواجب لما تعتقده في ذلك من استعجال الفتح، وأنه لا يكون بالمألوف بل بالمستغربات وقد عدَّ ذلك المشايخ من أعظم العيوب والآفات، فقد قال بعضهم:

«من كانت النوافل أهمّ عليه من الفرائض فهو مخدوع».

وقد قال محمد بن أبي الورد[1] رضي اللّه عنه: هلاك الخلق في حرفين: اشتغال بنافلة، وتضييع فريضة، وعمل الجوارح بلا مواطأة القلب. وإنما حرموا الوصولَ؛ لتضييعهم الأصول.

وقال إبراهيم الخواص رضي اللّه عنه: «إن اللّه لا يقبل من عامل عملاً إلّا بالصدق وإصابةِ الحقّ» انتهى.

فإذن الأهم على العبد إقامةُ الفرائض، ثم القيام بالسنن، ثم الإتيان بما تيسَّر من النوافل.

---

(١) محمد بن أبي الورد من كبار مشايخ العراقيين وأحد جلساء الجنيد صحب السري السقطي والحارث المحاسبي وبشراً الحافي. انظر طبقات الصوفية ص(٢٤٩) رقم (١٩) وتاريخ بغداد (٣/ ٢٠١).

وإقامة الفرائض بثلاث:

وجود الصدق فيها، والقيام بلوازمها وآدابها، ورؤية المنَّة للّه سبحانه في وجودها، إذ قد أعاننا مولانا على ذلك بتقليلها وتقصيرها وتقييدها بالأوقات، وتوسيع أوقاتها وتلوينها.

وقد ذكر المؤلف هذه الخمسَ في هذا الكتاب بنوع من بيان المنَّة؛ فأما الأوليْن والآخريْن في آخر باب [لا يستحقر الوردَ إلَّا جهول] فانظره هناك. وأما التوسيع والتقييد فقال فيه:

قيد الطاعات بأنواع الأوقات كي لا يمنعك عنها وجود التسويف ووسع الوقت عليك كي يبقى لك حصة في الاختيار.

قلت: فذكر في الوجهين نعمتين عظيمتين معينتين على اتّباع الحق ومراقبة الأوقات والطاعات التي بها يتوصل إلى عظيم الثواب وحسن المآب.

وفي نفي التسويف كرامات ثلاث:

مبادرةُ الأمر، ومراقبةُ الذكرِ وعمارةُ السرِّ.

وفي بقاء جهة الاختيار ثلاث كرامات:

التوسعة بدلاً من الضيق، وظهور النسبة باختيارك لنفسك، وانشراح الصدر للعبادة، وفيها لإمكان التفرق بها، وفي ذلك حجة على التارك والمجانب لا خفاء به على متأمل.

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «لا تؤخِّر طاعةً وُقِّتَتْ بوقت فتعاقب بفوتها أو بفوت غيرها أو مثلها، جزاء لما كفر من نعمة ذلك الوقت؛ فإن لكل وقت سهماً من العبودية يقتضيه الحقُّ منك بحكم الربوبية».

قال: فقلت في نفسي: «قد أخّر الصدّيق الوتر إلى آخر الليل؛ فإذا عَلَيَّ بصوتٍ في النوم: تلك عادة جارية، وسنَّة ثابتة ألزمه اللّه إيَّاها مع المحافظة عليها، فأنَّى لك بها مع الميل إلى الراحة والتمتع بالشهوات والدخول في أنواع المخالفات والغفلة عن المشاهدات... هيهات... هيهات!!» انتهى فتأمله.

ذكر حكمة الإيجاب فقال:

علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته.

قلت: يقول: لما علم الحق سبحانه أن من نهض لمعاملته دون تنبيه ولا تأكيد من العباد قليل، وأن أكثر الخلق إنما يتبعون الهوى أو يشتغلون بدنياً ونحوها

عزم لهم بالإيجاب ليكون محجة للعاقل وحجة على الغافل، فلزمهم ذلك طوق أعناقهم كالسلاسل، وهذا ما نبّه عليه إذ قال:

فساقهم إليها بسلاسل الإيجاب.

قلت: استعار السلاسل للإيجاب؛ لمناسبته لها من وجوه ثلاثة: عدم الانفكاك بكل حال، وكونها قائدة أو سائقة لما يراد كرهاً لمن أباه طوعاً، وتوصيلها لعين المراد، لا من حيث تعلَّقت به.

والناس ثلاثة:

رجل أنهضَته للعبادة والخدمة محضُ العبودية وحقُّ الخدمة، وهذا حرٌّ كامل.

ورجل أنهضته لها حُسنُها أو حُسن من نُسبت له وهو معامل بها وهذا مريد طالب أو عارف مستبشر.

ورجل أنهضه إليها وجودُ الثواب والعقاب، وهذا من عوام المؤمنين وكافة أصحاب اليمين.

فأمَّا من أخلد إلى الأرض واتّبع هواه وآثر دنياه وخالف مولاه فلا حديث عليه.

ثم الطاعة والمعاملة جُنَّةٌ في الحال، وموصِّلَةٌ إلى الجنَّة في المآل، والحق تعالى غنيّ عن العباد. وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بسلاسل.

قلت: يعني أظهر العجب منهم، وذلك أن الجنة محبوبة بالطبع جميلة الوصف، موضع المنافع والفوائد، والتراخي عن مثل ذلك من العجب العجاب.

وقد وقع هذا الحديث في أسارى بدر حين نظر إليهم رسول اللّه ﷺ.

وقيل: معنى «عجب»[1] أي: أحبَّ.

وقيل: هو من الألفاظ الذي ينزَّه معناها وتمت كما جاءت.

ثم بيّن المؤلف ما أشار إليه إذ قال:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٥٦) رقم (٢٢٢٥٧) واللفظ عنده: «ما أضحكك قال: قوم يساقون إلى الجنة مقرنين في السلاسل». والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٨٣) رقم (٨٠٨٧).

أوجب عليك وجود خدمته، وما أوجب عليك في الحقيقة إلا دخول جنته.

قلت: وذلك لأن الطاعة مضمنة بالجنّة، لأنها ثوابها، واللَّه تعالى لا يُخلف وعده، والآتي قطعاً كالموجود في الحال.

ثم جنَّات المطيع ثلاث:

جنَّة المعاملة بعظم المنَّة، وجنَّة الفتوح بظهور الكرامة، والجنَّة الحسيَّة في الدار الآخرة. رزقنا اللَّه الجميع بمنّه.

وقد ثبت أن الحق تعالى غنيّ عنك فطاعتك لك.

وإذا كان كذلك وجب ألَّا تقصر في حقوقه؛ فإن ساعدك القدر على ذلك، وإلَّا فلا تيأس من مولاك؛ لأن ذلك قادحٌ في يقينك، كما قال:

من استغرب أن ينقذه اللَّه من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية.

قلت: وذلك لأنه استثنى منها شيئاً هو صلاحُ حاله، ولو كان في غيره خلاف ذلك، وهذا شيء ذكره باللزوم لا بالتحقيق والوقوع؛ فلذلك كان قادحاً في اليقين لا في الإيمان، فافهم.

ثم اعلم أن من قوى إيمانه بالقدرة لا يكون عنده شيء أغرب من شيء، واستغراب الخوارق من ضعف اليقين بالقدرة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في حديث البقرة والذئب: «آمنتُ به أنا وأبو بكر وعمر حين قال الناس: سبحان اللَّه بقرة تتكلَّم وذئب يتكلَّم[1]!».

ثم نزع المؤلف بآيةٍ حجةً على ما ذكره من عموم القدرة فقال:

وكان اللَّه على كل شيء مقتدراً.

قلت: ومن جملة الأشياء تبديل هذا العبد من النقص إلى الكمال ومن القبح إلى الحسن، وقد فعل ذلك بجماعة من الخلق كإبراهيم بن أدهم وفضيل بن عياض، وبشر الحافيّ، وعبداللَّه بن المبارك[2]، وأبي بكر

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٢٨٠) رقم (٣٢٨٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٣٧) رقم (٨١١٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٥) رقم (٧٣٤٥) والطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٣٩) رقم (٦٧٨٥).

(٢) عبداللَّه بن المبارك بن واضح الحنظلي، بالولاء التميمي المروزي أبو عبدالرحمن، ولد سنة (١١٨هـ)، إمام حافظ ومجاهد، سكن خراسان، مات غازياً على الفرات سنة (١٨١هـ). انظر شذرات الذهب (١/ ٢٩٥) والأعلام (٤/ ١١٥).

الشبلي وذي النون المصري وغيرهم. فانظر حكاياتهم، فإنها عون لك.

«وأكثر اللجأ إلى اللّه تعالى فيما عسُرَ عليك من قياد نفسك ومحاولة أمرك موقناً أنه المالك لصلاح شأنك وتوفيقه وتسديده ولا تُفارقْ ذلك على ما فيك من حسن أو قبيح، ولا تيأس من رحمة اللّه» انتهى، وهو لُبابُ ما قصد المؤلف. واللّه أعلم.

ثم ذكر حكمة الابتلاء بالنقائص فقال:

ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما منّ به عليك.

قلت: الظُلم: بضم الظاء المشالة وفتح اللام جمع ظلمة، والمراد بها هاهنا: الشهوات والغفلات والمعاصي.

وابتلاءُ العبد بها تارة يكون طرداً، وتارة يكون تأديباً، وتارة يكون تقريباً فإذا أثمرت إنابته كانت تقريباً، وإذا أثمرت انكساراً وتذكيراً كانت تأديباً، وإذا أثمرت تعلُّقاً بها كانت طرداً، فاعرف ذلك، وإنما يذكَّر العبدُ بها إذا بَعُدَ عن الفهم كما قال:

من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها.

قلت: ولذلك قيل: «نِعم اللّه مجهولة وتُعرف إذا فُقدت».

وقيل: الولد العاقُّ المصرُّ على تأنيبه إنما يعرف قدرَ الأب يوم وفاة أبيه».

وقيل أيضاً: «إنما يعرف قدر الماء من ابتلي بعطش البادية، لا مَن كان على شاطىءِ الأنهار والأودية الجارية» انتهى.

ثم تواتر المنَّة واتساعها قد يوجب الدّهش المذموم، فلذلك قال:

لا يدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك.

قُلت: لا تدهش عن الشكر لما تراه من تواتر النعم وكثرتها وتسلسلها؛ فإن ذلك نقص وتقصير، وأصله ثلاثة عيوب:

أولها: إرادة مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا، وذلك من قلّة المعرفة بجلاله.

الثاني: رؤية النفس ونسبتها في الأفعال، وهو من باب الاعتماد على الأعمال.

الثالث: اعتماد أن الشكر رسم عقلي فيريك مقابلة ما يقتضيه معقوله بما يقتضيه معقوله، فلا يتناهى له ما يريد لعدم تناهي ما يترتب عليه فيدهش. ولو رآه

رسماً شرعياً كما هو الحق لكفاه في شكر النعمة ما وقع بإزائها من العبودية، فقد قال داود عليه السلام: «إلٰهي؛ ابن آدم ما فيه شعرة إلَّا وفوقها نعمةٌ وتحتها مِنَّة، فمن أين يكافئها؟ فأوحى اللّه إليه: يا داود إني أُعطي الكثير وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك أن تعلم أنَّ ما بك من نعمةٍ فمنِّي». وقال عمر بن عبدالعزيز رضي اللّه عنه: «لم يُنعم اللّه على عبد نعمةً فيحمد اللّه عليها إلَّا كان حمده أفضل من نعمته».

وقال سهل بن عبداللّه، رضي اللّه عنه: «ما من نعمة إلَّا والحمد أفضل منها، والنعمة التي أُلْهِم بها الحمد أفضلُ من الأولى؛ لأن الشكر مستوجب المزيد»اهـ.

ثم هذا الدهش غالباً إنما يتولَّد من تمكُّن الهوى من القلب وإلفه بالبطالة حتى يتعلل بمثل تلك العلَّة في مثل هذا المقصد، وقد ذكر المؤلف بأن قال:

تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال.

قلت: حلاوة الهوى لذَّته المدركَة بالوجدان.

وتمكُّنها من القلب رسوخها فيه. والداء العضال هو الذي لا تزيده المداواة إلَّا تمكّناً وقوة. والهوى ثبات داعي النفس في مقابلة داعي الحق، وإن شئت قلت: ميل النفس لما تريده طبعاً، وإنما تتمكن حلاوة الهوى من القلب بثلاثة أمور:

أحدها: أنه راقب في النفس لازم لها ملازمة الأوصاف لمواضعها، فلا تسمح به إلا بَعْد جُهد جهيد، ولذلك قيل: «النفس كالنمر لا يردّها إلا القهر القويّ، والشيطان كالذئب إن أخرجته خرج ثم يأتي من موضع آخر».

الثاني: أنه لا يكون غالباً إلا متلبّساً بحق أو معنى يخفي به كونه مضرّاً، إلا بعد نظر دقيق وجهد جهيد، ولا يمكن استئصاله إلا بالأصل والفرع لاحتمال وقوع المنفعة به يوماً.

الثالث: أن الهوى إذا تمكن أثْمر علماً على وفْقه فكان في موضع الحجة على صاحبه بفتح باب التأويل والجدل الذي هو مفتاح الضلال.

قال اللّه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، أي: أنه لا تفيد الأسباب في هدايته، ولذلك قال بعضهم: «نحتُ الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن» انتهى.

وإذا كان الأمر كذلك فلا يزيله إلا قاهر، هو: خوف مزعج أو شوق مقلق كما قال:

لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق.

قلت: وذلك لأنهما يأتيان من بساط قهر وجلال، وإذا بدت أوصاف الحق لم يبق أثر لأوصاف الخلق، فالخوف انزعاج السرّ لما علم من الوزر عند مشاهدة القهر.

والشوق اهتياج القلق عند تمكن الحُرَق. وقد يكون الخوف غير مزعج والشوق غير مقلق فلا يفيدان تركاً ولا توجّهاً، وهذا من نوع قوله بَعْدُ [الوارد يأتي من حضرة قهَّار لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه]. وقد قال شيخنا أبو العباس الحضرمي رضي اللّه عنه: «واعلم أن الموعظة الحقيقية هي جذب الحق لك ولطف الحقّ بك، وأن يخلق اللّه في قلبك الخوف الشديد الملازم لقلبك، وتستحضر عظمة اللّه تعالى، والخوفَ من اللّه تعالى، والشوقَ إلى اللّه تعالى، قال اللّه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠]» انتهى.

ومن ميراث الخوف المزعج: العلمُ بأن اللّه لا يحب الهوى، ولا يُقبل على صاحبه، فلذلك قال:

كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك.

قلت: العمل المشترك هو الذي يداخله ثلاثة أحوال:

أحدها: الرياء: وهو العمل على رؤية الخلق.

والتصنُّع: وهو تحسين العمل والتكلُّف بالهيئات وغيرها لأجل الخلق.

والعُجب: وهو رؤية النفس في العمل.

فالرياء قادح في صحة العمل، وما بعده قادح في كماله، والربّ سبحانه وتعالى إنما يرضى بعمل خالص لوجهه، مخلص من شوائب الالتفاتات لغيره.

والقلب المشترك: هو الذي داخله الهوى والأُنس بالخلق، والاستناد إليهم، أو أحد هذه الثلاثة.

ومعنى المحبة منه تعالى ترجع للرضا والقبول، فلذلك قال:

العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يقبل عليه.

قلت: وما لا يقبله مردود على صاحبه، وإذا ردّ عليه كان موكولاً إليه؛ وإنما لا يَقبل هذا ولا يُقْبل على هذا لعزّته وجلاله.

قال الفقيه القاضي أبو عبداللَّه المقرّي[١] رضي اللَّه عنه: «القلب إيوان الملك ويسعني، وعزّ الملك يأنف من ذل المشاركة، أنا أغنى الشركاء عن الشرك، أشار بالكلام الثاني لحديث: (يقول اللَّه تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه)[٢]، وبالكلام الأوّل لحديث: (لا يسعني أرضى ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن)[٣].

يعني من حيث المعرفة والاعتقاد، لا من حيث الحلول والإيجاد، تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

تنبيه:

الخوف والشوقُ إنما يقعان من حقائق الأنوار؛ لأنهما فرعا التأثير بأصليهما من الذكر الناشئ عن التذكير، وذلك إذا دَخَلا باطن القلب لا إذا كانا على ظاهره.

وقد نبّه المؤلف على القسمين في افتتاح الباب الثاني والعشرين:

---

(١) محمد بن إسماعيل، أبو عبداللَّه المقرّي، شيخ إبراهيم الخواص، توفي في جبل طور سيناء وقبره عليه سنة (٢٧٩هـ). انظر طبقات الصوفية ص(٢٤٢) رقم (١٧)، وحلية الأولياء (١٠/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في الصحيح (٢/ ٦٧) رقم (٩٣٨)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٢٨٩) رقم (٢٩٨٥)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٤٠٥) رقم (٤٢٠٢) وأبو يعلى في المسند (١١/ ٤٣٠) رقم (٦٥٥٢).

(٣) ورد بلفظ مختلف «فأي بيت يسعني ولم تسعني السموات والأرض فإذا أرادوا مسكني فإني في قلب العفيف الوادع الورع انظر ما أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٤).

الباب الثاني والعشرون

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه: أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها في الدخول.

قلت: قد تقدّم غير مرّة أن الأنوار: جمع نور، وهو الظل الواقع في الصدر من معاني الأسماء والصفات، وهو في الأصل نوعان: نور مستودع في القلوب، ونورٌ وارد من خزائن الغيوب. فالمودع في القلوب بمثابة نور العيون، والوارد من خزائن الغيوب بمثابة نور الشمس، ثم هو على قسمين:

نور وصل لظاهر القلب ولم يدخل باطنه، وهو الذي أثّر فيه ولم يوجب له إقداماً ولا إحجاماً، كالمواعظ التي لم تَبلغ الحقيقة، والعلوم التي لم يقع لها صُنع في الباطن، ونور دخل باطن القلب وَخالط حشاشته فأوجب الإقدام والإحجام على حكمه. وهذا هو المعتبر المطلوب الذي قال فيه رسول اللّه ﷺ: «إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح، قيل: يا رسول اللّه: وهل لذلك من علامة يُعرّف بها؟ قال: التجافي عن دار الغرور وَالإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[1].

قال بعضهم: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحبَّ العبدُ لقْمته ودنياه، وكان مرّة مع نفسه ومرّة مع قلبه، فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه.

ثم مانع الأنوار من الدخول إنما هو الاشتغال بالنقائص والفُضول كما نبّه عليه إذ قال:

ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت.

قلت: ربَّما تلمّح القلب شيئاً من المعارف ونحوها وطافت به ثم إنها لم تثبت فيه ولم تداخله فخرج من بساط الهوى ما صرفها عنه من معصية، أو شهوة، أو غفلة، فذهب في هزّ الرؤوس وتقطير العيون، وما ذاك إلّا لما انطبع من صور الآثار في مرآة القلب، وعلاماته ثلاث:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٦) رقم (٧٨٦٣).

إحداها: أن يتأثّر بما سمع أو رأى أو ذكر أو تذكَّر ولا يجد له في الخارج فائدة.

الثانية: أن تتسع دائرة فهمه ولا تنتهي به إلى التحقق بعلمه وإن أوصلته إلى التحقق فيه.

الثالثة: أن يُميِّز الحقَّ ويجد في نفسه أين هو منه، ويعرف الباطل ويُميِّز أين هو منه، ثم لا يعمل عليهما، ولو دخل قلبه لما أمكنه التخلّف في شيء من ذلك.

وإن كان الأمر كما ذَكَر فَآكدُ شيءٍ عليك طهارةُ قلبك وفراغُه من الغير.

وهذا ما نبَّه عليه إذ قال:

فراغ قلبك من الأغيار تملؤه بالمعارف والأسرار.

قلت: المطلوب تطهير القلب عمّا سواه؛ لأنه لا يرضى معه بشريك.

وَإذا فَرَّغ العبدُ قلبَه له ملأه بأسراره وأنواره، ففيما أوحى اللّه لعيسى عليه السلام: «أني إذا اطّلعت على قلب عبدي فلم أجد فيه حب الدنيا وَلا الآخرة ملأته من حبي».

وقال بعض الحكماء رضي اللّه عنه: «لا تطمع أن تصحو وبك غيب، ولا تطمع أن تصفو وبك عيب، وَلا تطمع أن تنجو وَعليك ذنب».

وَأنشدوا في معنى ذلك:

حاشاهمُ أن يرجموك وإنما منَحوا الوصال من استقام أو اهتدى

وسرّ ذلك حكمة المناسبة، فلا يوضع أرفع الأشياء، وهي المعرفة، في أقلِّها وهو القلب الملوّث بالأغيار. وَاللّه أعلم.

وإذا كان الأمر كذلك فالأمر راجع منك وإليك كما قال:

لا تستبطئ منه النوال ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال.

قلت: وذلك؛ لأن الإقبال هو بساط النوال، ومن أتى باب الكريم بالأدب جدير بتحصيل المقصد والأَرَب؛ لأنه قد أتى الأمرَ من بابه وتوسّل له بوجود أسبابه. ومن كان على العكس كان جديراً بالحرمان، فيرحم اللّه من قال:

وما رمت الدخولَ عليه حتى حللت مَحِلّة العبد الذليل
وأغمضت الجفون على قذاها وصنت النفس عن قال وقيل

وقال معروف الكرخي رضي اللّه عنه: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من

الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع حمق وجهل»اهـ.

والإقبال: إنما هو بإقامة الحقوق؛ وهو قسمان، كما قال:

حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها.

قلت: فالحقوق التي في الأوقات: هي أنواع العبادات؛ كالصلاة والصوم، وغيرهما مما يتسع زمانه فيمكن قضاؤه إن فات وقته لبقاء فسحة بينه وبين الحق الآخر.

وحق الأوقات: هي ما يلزم العبد فيها من العبودية المترتبة على حركاتها وسكناتها وهي متداركة لا يمكن انفكاكها، ولا الانفكاك عنها، فلذلك لا يمكن قضاؤها.

قال أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه: «أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبليَّة، والطاعة، والمعصية، وللّه عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحقُّ منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنَّة من اللّه عليه أن هداه لها ووفّقه للقيام بها، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو: فرح القلب باللّه، ومن كان وقته المعصية فسبيله التوبة والاستغفار، ومن كان وقته البليّة فسبيله الرضا والصبر.

والرضا رضا النفس عن اللّه، والصبر مشتق من الإصبار وهو الغَرَض للسهام، وكذلك الصابر ينصب نفسه غَرَضاً لسِهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر، والصبر ثبات القلب بين يديّ الرب، وفي الحديث عن رسول اللّه ﷺ: «من أُعطي فشكر، وابتُلي فصبر، وظلم فغفر، وظَلَم فاستغفر... قالوا؛ ماذا له يا رسول اللّه؟ قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. أي: لهم الأمن في الآخرة، وهم المهتدون في الدنيا»[1] انتهى.

ومداره على مراقبة الأوقات بالعبودية اللائقة لها، كما قال:

إنه ما من وقت يرد إلا وللّه عليك فيه حق جديد وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حق غيره وأنت لم تقض حق اللّه فيه؟

قلت: ما من وقت وإن كان نَفساً واحداً لأن كل نفس يقتضي تجلّياً، وذلك

(١) أخرجه ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٥٥)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٤٠) رقم (٥١٥١).

التجلّي يقتضي عبودية، وتلك العبودية تقتضي تجلياً، فأنت في كل نفَس سالك طريقاً إلى الحقِّ، سبحانه، بنوع من السلوك، ولذلك قيل: الطرقُ إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق، فالحق الجديد: ما يتجدّد من الأحكام بسبب الأحوال، مثل، شكر النعمة، أو توبة الذنب، أو صبر على البليّة، أو حمد اللّه على طاعته.

والأمر الأكيد: ما يتوجّه من ذلك الحق؛ كالصدقة شكراً لنعمة المال، وردِّ المظالم تحقيقاً للتوبة، وعدم الشكوى عند البليَّة، وإعمال الأسباب في دفعها وتخفيفها إلى غير ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك فالأوقات كلُّها مستحقة لما وجد فيها، فلا يصحُّ لعاقل الاشتغال بغيرها من حقوق الغير من نفس أو خلق؛ إذ لا حق لهم، وإن كانت صورته لهم فحقيقة الأمر فيه للّه تعالى، فإذا قصد له كان معاملته معه، وإلّا فهو تضييع لحقِّه تعالى مع القيام بصورته.

فأما المخالفة فلا حديث عليها؛ إذ ليست بحق، ولهذا اعتنى بحفظ الحواسّ وعدّ الأنفاس، حتى قيل: «إن حقيقة التصوّف: قضاء اللّه أحق وشرط اللّه أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق».

ثم نبّه على ما يوجب الحقوق ويقتضي النهوض لها من غير فترة ولا تقصير، فقال:

ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له.

قلت: يقول ما فات من عمرك خالياً عن الفوائد الدينية والدنيوية والقيام بالحقوق اللازمة لا عِوض له يستدرك به فائته، لأن الآتي له من الحق مثل الذي للماضي ففوات الأول فوات الثاني، وما حصلت فيه فائدته وعائدته لا قيمة له؛ لأن القيمة إنما تكون لما له مثل، ولا مثل له فأعزُّ شيء الوقت؛ وأنشدوا في ذلك:

السباقَ السباقَ قولاً وفعلاً ... حذّر النفس حسرة المسبوق

وقال الحسن رضي اللّه عنه: «أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشدّ منكم حرصاً على دنانيركم ودراهمكم». وقال علي كرم اللّه وجهه: «بقية العمر ما لها ثمن يُدرك بها ما فات ويحيي بها ما مات» وأنشدوا فيه:

بقية العُمر عندي ما لها ثمن ... وإنَّ غداً خيرُ محبوب من الزمن

يستدرك المرء فيها كلّ فائته ... من الزمان ويمحو السوءَ بالحسن

ثم من بواعث القيام بالحقوق وجود العبودية، وهي ثمرة المحبة، فمحبَّة الغير هي الحاملة على العبودية، وتركُ حقوق الحق به، وبالعكس العكس فلذلك قال:

ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً.

قلت: أما كون المحبَّة تملُّك المحبّ للمحبوب فواضح من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يَبذل ولا يبذَل له.

الثاني: أنه محكوم عليه ولا يَحكُم.

الثالث: أنه في قبضة التصريف من غير تصرّف، بل هو ميّت بين يدي محبوبه، ولذلك قيل: المحبّة أن تهب كلك لمن أنت له مُحبّ حتى لا يبقى لك منك شيءٌ، وأمَّا أنه تعالى لا يحب أن تكون عبداً لغيره فإعزازاً لك وتكرمة، ولأن عزّ المُلك يأبى ذلّ المشاركة، وإذا كان الأمر كذلك فاختر لنفسك على بصيرة وحسن نظر، فيرحم اللَّه ابن الفارض حيث يقول:

أنت القتيل بأي من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من مصطفي

وقد قال الجنيد رضي اللَّه عنه: «إنك لن تكون له على الحقيقة عبداً وشيء مما سواه لك مُسْتَرق».

وسئل عمن خرج من الدنيا ولم يبق عليه إلَّا قَدر مصّ نواة، فقال: «المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه درهم» انتهى.

ثم ذكر أن حبَّه لعبوديتك لا لحاجة منه لك، بل لإظهار فضله عليك وإحسانه لديك فقال:

لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك، وإنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك.

قلت: أما أنه لا تنفعه طاعتك ولا تضرّه معصيتك؛ فلأَنه الغنيُّ على الإطلاق الذي لا يصحّ افتقاره ولا احتياجه لشيء ولا توقُّفه عليه، وأما أنه أمرك بهذه التي هي الطاعة، ونهاك عن هذه التي هي المعصية؛ لما يعود عليك، فلأنك مفتقر إليه والعبودية له أعظم فوائدك، فجعل فيها ما تحتاج إليه ديناً ودنياً، لتقوم بها لدينك ودنياك فتكون قد حصَّلت فائدة العبودية التي هي أعظم الفوائد، وتعرّضت لنفحات الرحمة في تحصيل فوائد الدنيا والآخرة، وإلَّا كان يعطيك ما وعدك بلا شيءٍ، كما هو في نفس الأمر. فافهم ذلك واعرفه حق معرفته؛ فإنه عجيب، ثم قال:

لا يزيد في عزّه إقبال من أقبل عليه، ولا ينقص من عزّه إدبار من أدبر عنه.

قلت: لأنه العزيز لذاته، الذي لا يحتاج لزيادة في عزّه ولا يلحقه نقص في ذلك لكمال وصفه.

وقد ذكر صريح ذلك في المناجاة حيث يقول: [أنت الغنيُّ بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنياً عنّي].

وفي الحديث الصحيح، يقول اللَّه: «يا عبادي كلّكم ضالٌ إلَّا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلَّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي، يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أُوَفِّيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد اللَّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلَّا نفسه، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فيسأَلني كل واحدٍ منهم مسأَلته ثم سألني كل واحد منهم مثلَ ما سأَلني الجميع ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا غُمس في البحر»[1].

انتهى على تقديم وتأخير في بعض ألفاظه، وهو ينبوع المعارف والمعاملاتِ التي على بساط الحقيقة، وباللَّه تعالى التوفيق.

تنبيه:

إذا تمَّ النور حصل الإقبال فصفت المحبَّة في بساط العبودية، وتمَّ الأمر بالطاعة والغِنى به عنها، علماً بأنها لا تجلب ولا تدفع لكمال غنى الحق ومجده، وذلك وجه من الوصول، فلذلك افتتح به الباب الذي يليه وهو:

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٤/ ١٩٩٤) رقم (٢٥٧٧)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٦٥٦) رقم (٢٤٩٥)، والطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ١٦٥) رقم (٧١٦٩).

الباب الثالث والعشرون

فقال:

وقال رضي اللّه عنه: وصولك إلى اللّه وصولك إلى العلم به.

قلت: الوصول مما يجري في كلام القوم، وحقيقتُه: وصولُ القلب للعلم بجلال اللّه وعظمته على وجه يباشر حقيقة القلب ويجري معناه في الجوارح حتى تجري على حُكمه من غير توقُّف ولا اختيار.

والناس فيه متفاوتون مختلفون اختلافاً متبايناً، وإن اتفقوا في أصل الحقيقة: قال في «عوارف المعارف»: «وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهي رتبة في الوصول، ثم يتفاوتون؛ فمنهم من يجد اللّه بطريق الأفعال، وهي رتبة في التجلّي فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل اللّه تعالى، ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار. وهذه رتبة في الوصول.

ومنهم من يُقام في مقام الهيبة والأُنس لما يكاشف به من مطالعة الجلال والجمال، وهذا التجلي بطريق الصفات، وَهي رتبة في الوصول.

ومنهم من يَرقى إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين وَالمشاهدة فَعَمى في شهوده من وجوده. وهذا ضرب من تجلي الذات لخواصّ المقَرَّبين، وهذه رتبة في الوصول. وفوق هذه رتبة «حقِّ اليقين».

ويكون من ذلك في الدنيا لُمح وهو سريان نور المشاهدة في كلّية العبد حتى يحظى بها روحه وقلبه حتى قالبه. وهذا من أعلى رتب الوصول.

فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد من هذه الأحوال الشريفة أنه في أول المنزل فأين الوصول؟ هيهات!! منازل الوصول لا تنقطع أبداً في عمر الآخرة الأبدي، فكيف بالعمر القصير الدنيوي؟!» انتهى.

وهي الغاية في بابه، وكل ذلك لا يوصّل إلى اللّه إلَّا باللّه؛ فقوله متضمّن أن حصول العلم باللّه إذا كان باللّه فهو الوصول، وإلَّا فلا.

ثم ما ذكر هو الجاري على مذهب أهل الحق ولا يصح سواه، كما نبّه عليه إذ قال:

وإلا فجلّ ربنا أن يتصل بشيء أو يتصل به شيء.

قلت: يعني وإن لم يكن الوصول ما ذكر فليس إلّا النسب والمسافة والعلل والإضافة، وهي من صفات الخلق التي لا يصح إجراؤها على الحق تعالى؛ لتنزّهه عن سمات المحدثات، فلذلك قال الجنيد رحمه اللّه: «متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير بمن له شبيه ونظير؟ هيهات!! هذا ظن عجيب إلّا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة إلّا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان» انتهى.

وقد أَعرب به غاية الإعراب، وأبان به عن وجه الحق والصواب.

ولما كان القرب من نسبة الوصول ومن حقائقه (حقائق نعوته) أتبعه به فقال:

قربك منه أن تكون شاهداً لقربه منك.

قلت: مشاهدةً تقتضي لك وجود المراقبة له حتى لا يراك حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك.

ثم القرب على وجوه ثلاثة:

أولها: قرب الكرامة، وهو من الحق إلينا وأَتمّه مشاهدة قرب الحق منا وإحاطته بنا.

الثاني: قرب الإحاطة بالعلم والقدرة والإرادة، وهو قرب الحق من كل موجود حيث يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

الثالث: قرب المسافات والنسب والمداناة، وهو قرب الأجسام وسائر المحدثات، فلا يليق بالحق سبحانه ولا يجوز عليه، وإليه أشار المؤلف إذ قال:

وإلا فمن أين أنت ووجود قربه؟

قلت: يقول إن لم يكن القرب ما ذكرنا فلا وجه للقرب إلّا المداناة والمناسبة وهو محال في حقه تعالى؛ فقد سئل الجنيد رضي اللّه عنه عن معنى «مع» فقال: «مع» على معنيين: مع الأنبياء بالنصر والكَلاءَة قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ومع العامة بالعلم والإحاطة قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال جعفر بن محمد الصادق رضي اللّه عنه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]، من ظن أنه بنفسه دنا جعل ثمّ مسافة؛ إنّما التداني أنه كلما قرب منه بعد عن أنواعِ المعارف، إذ لا دنوّ ولا بُعد» انتهى.

وتقرير كلام المؤلف: قربك منه على سبيل الكرامة أن تكون مُشاهداً لقربه منك على وجه الإحاطة، وإن لم يكن هذا فلا وجه للقرب في حقه. فافهم.

ثم القرب والوصول محل جري الحقائق على الواصل والمقرّب، ولتلقيها وجهٌ ذكره المؤلف بأن قال:

الحقائق ترد في حال التجلي مجملة.

قلت: الحقائق ما يجري على لسان أهل الحقيقة والتحقق والتحقيق من الفوائد الجامعة والنكت الحكمة وهي لا تَرد باستعمال ولا تتوقّف على أسباب، وإذا وردت على القلب ظهرت فيه نكتة مجموعتِه جامعةً لما وقعت عليه، فتكون مجملة لا تفصيل فيها ولا تأصيل من حيثُ صورتها، وإن كانت محتوية على ذلك من حيث حقيقتُها إذ يبدو منها ذلك بعد حصولها وتحققها وتمكّنها كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

وبعد الوعي يكون البيان.

قلت: وبعد حصولها واستقرارها يتبيّن معناها ويظهر مغزاها فتلوحُ منها المباني وتلمح منها المعاني؛ فيؤخذ من الكلمة الواحدة ألفُ معنى ومن المعنى الواحد ألفُ كلمة، فيعرفُ كونُها حقيقة بثلاثة أمور:

أولها: كونها جارية بحكم التصريف من غير اختيار ولا رؤية ولا أسباب تفيدها وإن جرت معها.

الثاني: كونها في جريها مجملة مجموعة ناكتة في القلب خارجة عنه خروج السهم من القوس لمحل الرمي.

الثالث: ظهور معناها وبيان وجهها وتفصيلها بعد وَعْيها.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي اللّه عنه: «فأرباب الحقائق يجري بحكم التصريف عليهم شيء لا علم لهم به على التفصيل، وعند فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوا بشواهد العلم أو تحقيق ذلك بجريان الحال في ثاني الوقت» انتهى.

ثم أشار إلى أن الأدب في تلقّي ذلك مستفاد من الأدب في تلقي الوحي فذكر الآية الواقعة فيه فقال:

فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ثم إن علينا بيانه.

قلت: يقول فإذا قرأ جبريل.

قال ابن عباس: «فاستمع له وأنصت، ثم إن علينا أن نقرأه».

فالمراد هنا: إذا جرت الحقائق فأنصت لها ولا تتلقّاها بمعتادك من التأويل والدليل والنظر في الوجه والتفصيل. ثم على اللّه بيانها؛ لأن الذي تفضّل بالأول مَنَّ بالثاني بفضله وكرمه. وإنما كان هذا كتلقّي الوحي في آدابه لأن الكل منْ عَين المنَّة في بساط الكرامة. وإن كان الوحي أعلى وأجلّ فللاقتداء أوجه وباللّه التوفيق.

ثم الخارج بما قاله آداب ثلاثة:

الإنصاف للقبول، والتفهّم بعد الحصول، والامتحان بالوصول، فقد قال الداراني رضي اللّه عنه: «إنها لتقع النكتة من كلام القوم في قلبي أياماً فأقول لها: لا أقبلك إلّا بشاهديْ عدل: الكتاب والسنة»اهـ.

ثم ذكر المؤلف الحكمة في كونها تأتي مجملةً في حالة المتجلي فقال:

متى وردت الواردات الإلٰهية إليك هدمت العوائد عليك.

الواردات الإلٰهية، هي: ما يتجلّى للقلوب من المعارف التي تبرز عندها الحقائق؛ فإذا وردت هذه الواردات على القلب لم يبق فيه متسع لغيرها، فتأخذ بمجامعه وتستوي في كُلّية العبد فينفث بها طوعاً أو كرهاً لخلوّه عما سواها. كما أشار إليه بالآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

قلت: يعني غلبوا عوائدها بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

فإذا دخل الربّ القلبَ خرب مما سواهُ، فلا يتأتى له جريٌ مع المعتاد، ولا تصرّف بالأسباب، ولذلك قيل: «إذا عَظُم الرّب في القلب صَغُر الخلقُ في العين».

وقيل لبعضهم: «بِمَ يستعين العبد على حفظ بَصره؟

قال: بعلمه أن نظر اللّه سابق نظره لما يريد أن ينظر إليه» انتهى. وإنما كان الوارد كذلك لعلة ذكرها بأن قال:

الوارد يأتي من حضرة قهار لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه.

قلت: يأْتي من ربٍّ قاهر على بساط القهر فكل شيء يصادمه، أي: يقابله لا يمكنه ثبات معه؛ إذ كل ما صدر من حضرة إنما يكون على حكمها، فلا بقاء لآثار الخلق عند ظهور آثار الحق، إذا قُورن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم.

وقد قيل لبعضهم: «مِنْ أين تأكل؟

قال: من عند اللّه.

قال: أينزّله عليك من السماء؟

قال: أو لم تكن الأرض له!!

قالوا: أنتم قوم الحق لا يقوم لكم أحد بحجة.

قال: الحق لا يقوم له شيء» انتهى.

ثم نزع بالآية الكريمة للاستدلال على ما ذكر فقال:

نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

قلت: يقول: ندفع الحق على الباطل في محلّه فيصيبه في دماغه فيتلفه فإذا هو زاهقٌ أي ذاهب مضمحل.

وعلى معناه يجري قولهم: «للحق جولة وللباطل صولة»، فإذا جاء الحقُّ من جولته ذهب الباطل بصولته، وذلك لثلاثة أوجه:

أولها: أن الحقَّ من بساط القوة والظهور، وهما وصفان لا يقوم لهما شيء.

الثاني: أن الحق مؤيّد بالحقيقة الإيمانية معضدة بالحجج البرهانية [فأعطى ما للأصل للفرع] والباطل عكسه.

الثالث: أن الحق برهانه في نفسه وسلطانه في ذاته فصاحبه غير محجوج ولا مغلوب، قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فتأمل ذلك وباللّه التوفيق.

ثم مِن أعظم الباطل فهم الحجاب في وجوده تعالى وما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر.

قلت: يقول: لا يصح احتجابه بشيء، لأن كلَّ شيء شاهد بوجوده وقربه، ولو قيل بذلك لكانت الحجة في عين ما يدّعي أنه حجاب، ويرحم اللّه أبا الحسن الششتري حيث يقول:

ما للحجاب وجود في وجودكم إلّا بسرّ حروف انظر إلى الجبل

يعني: لا حجاب إلا أن يصرف الحق وجه عبده لغيره، فإذا صرف الوجه عنه كان العبد محجوباً، لا الربُّ سبحانه.

ولما قال ذلك المريد لشيخه: هذا ابن الخطيب[١] يستدل على وحدانية اللّه بألف دليل.

قال: يا بني، لو عرف اللّه ما استدلّ عليه.

فبلغ ذلك ابن الخطيب، فقال: «صدق؛ هم ينظرون على المعاينة ونحن نَنْظر من وراءِ السُتُرُ».

وإذا كان الحق تعالى حاضراً معك وقريباً منك وجب أن تكون حاضراً معه على أيّ وجه أمكنك ولو بالرجاء في رحمته، كما قال:

لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور

قلت: لأن يأسك من قبوله سوءُ ظن بربّك واعتمادٍ على عملك، وذلك غيبة عن مولاك بذكر نفسك في عدم حضورك، بل إن لم يكن حضورك بالتعبّد والعرفانِ فليكن حضورك بالطمع في الإحسان؛ لأن طمعك في اللّه بلا عمل أفضل من طمعك فيه مع وجود العمل، وإن كان العمل لا بدّ منه فَلِلعبودية، لا للاستحقاق، ومن العبودية الاستسلامُ عند جريان القضاء، فاعمل وطالب نفسك بالكمال ولا تيأس من اللّه بوجهٍ ولا بحال، فإن الأمر كما ذكره المؤلف إذ قال:

فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلاً.

قلت: وربّما رُدَّ ما عُجلت ثمرتُه، وإن كان الغالب على خلاف ذلك.

فالعوائد لا تقتضى على حكم الربّ سبحانه.

ومراده بالثمرة هنا: الحضور فيه، وقد يريد: الحضور به، وهو أَولى؛ لما تقدّم عند قوله: (من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول)، ثم شأن النفس أبداً التألم بفقد الحضور وذلك من ثلاثة أمور:

أحدها: اعتماد الأسباب في الردّ والقبول، وهي علَّة واضحة.

الثاني: استشعارها الكمال فيما هي به بدلاً من النقص اللاحق بضدّه وهي علَّة أيضاً.

الثالث: الأُنس بالحلاوة والتألّم بفراق اللذّة، وهي أعظم العلل.

فلذلك قال الواسطي: «استحلاء الطاعات سموم قاتلة».

---

(١) سليمان بن الخطيب مجد الدين عمر بن سالم بن عمر بن عثمان الأذرعي أبو الربيع، ناب بدمشق ثم مصر، وولي مشيخة الشيوخ، توفي عن السبعين من عمره، انظر البداية والنهاية (١٤/ ١٦٧).

قال في «لطائف المنن»: «وصدق الواسطي رحمه اللّه؛ فأقلّ ما في ذلك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة أن تصير قائماً فيها متطلباً للحلاوة فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها، وتحبُّ دوامها لا قياماً بالوفاء، ولكن لما وجدته من الحلاوة والمتعة، فتكون في الظاهر قائماً للّه وفي الباطن إنما قمت لحظّ نفسك، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاءً تعجّلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لعملك» انتهى.

فالعمل مقصود لذاته، وثمرته كماله، وذلك بخلاف شأن الواردات إنما هي بُسط لثمرتها؛ فلذلك عكس فقال:

ولا تزكين وارداً لا تعلم ثمرته فليس المراد من السحابة وجود الأمطار إنما المراد منها وجود الأثمار.

قلت: يقول: لا تعظِّم الوارد ولا ترى أنه كرامةٌ من اللّه حتى تعلم ثمرتَه في ذلك من العمل بموجبه والوقوف على حدّه من علوّ الهمّة وحسن الخدمة وحفظ الحرمة وشكر النعمة؛ فإن كلّ معرفة لا تفيد عملاً لا عبرةَ بها.

وكل عمل لا يصحبه إخلاص لا كمال له، وقد قالوا: مَنْ أدركته حالة في السماع لم يجد بركتها غداً في عمله فإن سماعه لا حقيقة له»، أو كلاماً هذا معناه.

ثم أشار لتمثيل الوارد بما ينشأ عنه، فقال: (فليس المراد... إلخ).

قلت: فجعل الوارد كالسحاب، والتأثّر به كالمطر النازل من السحاب، والعمل بما يقتضيه هو الثمرة فوارد بلا تأثير كالسحاب بلا مطر، وتأثير بلا عمل كمطر بلا إثمار، فالمراد وجود الثمرة فما قبلها لو تجرّد عنها لكان مضراً بلا منفعة.

وكذلك الحالة إن أثارت عملاً، وإلا فهي ضرر على صاحبها بعجب أو كبر، أو دعاوى، أو اغترار، أو غير ذلك. فافهم.

ثم الوارد إن عُرفت بركته وظهرت ثمرته فلا ينبغي التعلُّق به والوقوف معه بإرادة بقائه؛ لأن ذلك حظ النفس كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها، وأودعت أسرارها.

قلت: شأن المريدين في بداياتهم، بل عامة المتوجهين، الأنسُ بالواردات ولا سيما إن بسطت أنوارها في عوالم القلوب، وأَوْدَعَت أسرارها بكل أمر محبوب؛ وذلك جهل ونقص ظاهر؛ أما الجهل فأوقات الصفاء لا تدوم، ومن ظنّ

دوامها فهو أحمق ومغرور، وإنما تدوم أوقات الوفاء وعليه عمل الأكابر دون الأحوال والحركات.

وأما النقص فالأنس بالواردات بُعدٌ عن الحق، وذلك مرجوح بكل حال.

ثم علامة بسط أنوارها ثلاث:

وجودُ الحلاوة، وظهور الحقيقة، وبسط الحقائق.

وعلامة إيداع أسرارها تمكُّن الحقيقة من النفس وسريان معناها في كل شيء من العبد، والغِنى باللّه، وهو الأصل الذي يدور عليه الفقدان والوجدان، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

فلك في اللّه غنىً عن كل شيء وليس يغنيك عنه شيء.

قلت: فإن اكتفيتَ به أغناك! وإن تعلَّقت بغيره وكلك إليه وخَلَّاك؛ ففي الإشارة عن اللّه تعالى: «لا تركننّ إلى شيء دوننا، فإنه وبال عليك، وقاتل لك؛ فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك، وإن ركنت إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال أوقفناك معه، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظتَ إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اعتززت بالمعرفة تركناها عليك، فأيّ حيلة لك، وأي قوة لك معنا فأرضَنا لك رباً حتى نرضاك لنا عبداً» انتهى.

ثم علامات الاكتفاء باللّه ثلاث:

الرضا عن اللّه، والاهتمام بأمره، وعدم الالتفات لغيره؛ لأن العكس من الفقد والبعد، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له، واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به.

قلت: لأنك لو وجدته هان عليك كل شيء سواه، ولو وصلت إليه كان يكفيك الأُنس به عن استيحاش غيره، بل يكون ذكر الغير عندك مصيبة ونقصاً، ولذلك قيل: «لا وحشة مع اللّه، ولا راحة مع غيرِ اللّه».

وأنشدوا في معناه:

كانت لقلبي أهواءٌ موزّعة ... فاستجمعت مذْ رأتك العين أهوائي

تركتُ للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بحبّك يا ديني ودنيائي

فصار يحسدني من كنتُ أحسده ... وصرتُ مولى الورى مذ صرتَ مولائي

قال في «التنوير»: «واعلم أن البارئ سبحانه إنما يدخلك في الحالة لتنال

منها، لا لتأخذ منك، وإنما جاءت لتحمل هدية التعريف من اللّه إليك فتوجّه لها باسمه المبدئ فأبداها وأبقاها حتى وصَّلَت إليك ما كان فيها، فلما أدَّت الأمانة توجّهَ إليها باسمه المعيد فأرجعها وتولّاها، فلا تطلبنَّ بقاء رسول بعد أن بلّغ رسالته، ولا أمين بعد أداء أمانته.

وإنما يفتضح المدَّعون بزوال الأحوال وبُعدهم عن مراتب الأنزال هناك يبدو العوار وتهتك الأستار، فكم من مُدع الغنى باللّه وإنما غناه بطاعته ونوره وفتحه!

وكم من مدّع العزّ باللّه وإنما اعتزازه بمنزلته وصولته على الخلق معتمداً على ما تمت عندهم معرفته!!

فكن عبداللّه، لا عبد العلل، وكما كان لك ربّاً ولا علّة؛ لتكون له كما كان لك»اهـ.

وعليه مدار كلام المؤلف.

تنبيه:

حلاوة الأحوال وغيرها نعيم لا يتمُّ إلّا بشهود الحقّ، وفقدان ذلك عذاب لا يتحقق إلَّا بالحجب عنه فاعتبر به لا بغيره، وهذا ما افتتح به الباب الرابع والعشرين:

الباب الرابع والعشرون

إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه:

النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه.

قلت: النعيم: التذاذٌ يصحبه فرح وسرور بالملتذّ به.

ومظاهرهُ بما يتجلّى فيه وبه من الفوائد والعوائد وغيرهما مما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين في هذه الدار وفي تلك الدار، ولا كمال له، بل ولا صحة إلّا بوجود الهناء، ولا هناء إلّا بشهود منّته تعالى وشكره على نعمته. والنظر إلى وجهه الكريم في هذه الدار بالبصائر وفي تلك الدار بالأبصار؛ لأن كل نعمة لا تُشهد فيها المنَّة يكون صاحبها مفتوناً بها من حيث وصلت له، ومن حيث خوف زوالها، ومن حيث الاشتغال بِأسباب غيرها.

وكل نعمة لا يصحبها الشكر فهي إلى الزوال أقرب، والعقوبة فيها وبها ومعها أظهر.

وكل نعيم غاب معه الحبيب فأيُّ عِبْرةٍ به؟! أم أي فائدة فيه. ثم لولا تجليه تعالى بإحسانه ما صحَّ نعيم لمنعم أبداً. فافهم.

ثم ذكر المؤلف ظهور الضدِّ في النقيض وهذا العذاب في الحجاب فقال:

والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه.

قلت: لأن مشاهدة المعذّب مع العلم بجلاله وكماله تُنسي ما هو فيه من التعذيب؛ فقد روي أن رجلاً ضُرب تسعةً وتسعين سوطاً، فما صاح ولا تأوّه، ولا استغاث، فلما ضُرب الواحدةَ التي بها تمامُ المئة صاح واستغاث، فقيل له في ذلك، فقال: «العينُ التي ضربتُ من أجلها كانت تنظر إليَّ في التسعة والتسعين، وفي الواحدة حُجبتْ عنّي»، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ . . .﴾ [يوسف: ٣١] الآية.

قال في «التنوير»: «ولو أن الحق سبحانه تجلّى لأهل النار بجماله وكماله لغيَّبَهم ذلك عن إدراك العذاب، كما أنه لو احتجب عن أهل الجنة ما طاب لهم النعيم، فالعذاب إنما هو وجود الحجاب».

وأنواع العذاب مظاهره، والنعيم إنما هو بظهور التجلّي.

وأنواع النعيم مظاهره، وهو عين ما ذكر هنا وتممه بأن قال:

فسبب العذاب وجود الحجاب وتمام النعيم بالنظر إلى وجه الكريم.

قلت: يقول: لولا الحجاب ما صحَّ العذاب، ولا يتم النعيم إلَّا برؤية المنعم. وظاهر كلامه أن الحجاب شرط في حصول العذاب، وأن رؤية المنعم شرط في تمام حصول النعيم لا في وجوده؛ ولذلك في بعض النسخ «لشهوده» باللام و«بوجوده» بالباء.

ثم في رؤية المنعم في النعمة كرامات ثلاث:

أولها: الراحة من كلفة مقابلة الخلق، والالتفات إليهم، والعتق من مِنَّتهم والنظر إليها.

الثانية: سرور القلب وفرحه باللَّه؛ وذلك مفتاح المعرفة ودرك الإنابة.

الثالثة: الخروج من عهدة التقصير بالقيام بواجب الشكر ولو بمعرفة مِنَّته تعالى وفضله، وفي عدم رؤيته ضد ذلك. كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ما منعت من وجود العيان.

قلت: الهموم ما يلحق القلب من الكُرب لِما يُتوقَّع.

والأحزان: ما يلحقه لأجل ما وقع، فبساطهما توقُّع مكروه، أو فوت محبوب، وذلك لا يكون إلَّا مع فقدان الحقيقة، وعدم النظر للأقدار؛ لأن من عاين التوحيد حصل على التسليم والرضا؛ فلا يبقى له هم ولا غمّ أبداً، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ . . .﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ولذلك قال الشبلي رضي اللَّه عنه: «من عرَف اللَّه لا يكون عليه غمّ أبداً».

وقال سري السقطي رضي اللَّه عنه: «من عَرفَ اللَّه عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوبه فتَّاش»، انتهى وهو عجيب.

وإنما الهموم والأحزان غالباً لفقد الدنيا ووجودها. فكثيرها كيسيرها. وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك.

قلت: يرزقك الكفاية فلا يشوشك بالفقد، ويمنعك الزيادة لئلا يشغلك

بالوُجد، بل تكون سالماً من إقبالها وسالماً من إدبارها. ففي الكفاف كرامات ثلاث:

الراحة من التعب جلباً ودفعاً، والتفرّغ للخدمة قالباً وقلباً، وتحصيلُ الشكر والصبر في حالة واحدة، ولذا قيل: «إنه أفضل من الغنى مع الشكر ومن الفقر مع الصبر حتى سأله رسول اللّه ﷺ لنفسه ولعياله وآله، وكذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ . . .﴾ [إبراهيم: ٣٧] الآية، اختار لهم محل قلّة الدنيا ليقيموا الصلاة، وطلب لهم الأنس والثمرات لتحصيل الشكر على الكفاية.

ومن مصائب اتساع الدنيا كثرةُ الأحزان كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه.

قلت: ولْيَكْثر ما تفرح به يكثر ما تحزن عليه، لأن الحزن بالفقدان على قدر الفرح بالوُجدان.

وقد حُكي أن بعض الملوك أُهدي إليه قدحٌ من فَيروزج مُرصَّع بالدرّ والياقوت، فقال لبعض الحكماء عنده: ما ترى هذا؟

قال: أراه مصيبة وفقراً!!

قال: وكيف؟

قال: إن انكسر القدح كان مصيبة لا جبر لها، وإن سُرق صرتَ فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يُحمل إليك في أمنٍ من المصيبة والفقر.

فاتّفق أن انكسر القدح في بعض الأيام فعظُمت مصيبة الملك وقال: «صَدَق الحكيم؛ ليته لم يُحمل إلينا» انتهى.

ومن أعظم ما يُفرح وجود الولاية وتحتها مصيبة العزل عنها أو عزلها عنك كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

إن أردت أن لا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك.

قلت: ولايات الدنيا كذلك؛ لأنك منها بين إحدى ثلاث:

إمّا أن تعزل عنها بالحياة، وهي أكبر المصائب، أو تذهب عنها بالموت وهو أمر لا بدّ منه، أو تكون لك جارية على غير مرادك وهي مصيبة حاضرة. والعاقل لا يعدل بالسلامة شيئاً.

فوجب أن تعزل نفسك قبل أن تُعزل بأن لا تدخلها بنفسك ولا لنفسك

وتكون فيها غير متشبع بها. وعلامات ذلك ثلاث:

ألّا تقبلها إلّا لأمر تخشاه ديناً أو دنياً بعد الفرار الصادق.

وأن تلازم فيها الحذر والإشفاق.

وأن يكون الخروج منها أشهى إليك من الإقامة فيها.

وإنما يدعوك إليها ما ترغب فيه من فوائدها، وهي آيلة لضدّ ما يوجد منها، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات.

قلت: يقول: إن رغبتك البدايات بحصول الفوائد زهَّدتك النهايات بوقوع النوائب، إن رغَّبتك البدايات بوجود المنافع زهَّدتك النهايات بوقوع الفجائع، إن رغَّبتك البدايات بتحصيل ما تريد زهَّدتك النهايات بالوقوع فيما لا تريد، ثم قال:

إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن.

قلت: إن دعاك إليها ظاهرٌ اغتراراً بصورته، ينهاك عنها باطن اعتباراً بحقيقته؛ لأن ظاهرها غِرَّةٌ، وباطنها عِبْرة.

وللّه درّ أبي[١] موسى[٢] الثقفي رحمه اللّه حيث يقول: أُفٍ للاشتغال بالدنيا إذا أقلبت وأف لحسرتها إذا أدبرت، والعاقل لا يركن لشيء إذا أدبر كان حسرةً، وإذا أقبل كان شغُلاً[٣].

وأنشدوا في ذلك:

وقائلةٍ ما لي أراك مجانباً ... أموراً وفيها للتجارة مربح

فقلت لها: ما لي بربحك حاجة ... فنحن أناس بالسلامة نفرح

ثم ذكر المؤلف وجهاً من حكمة اللّه تعالى في وسم الدنيا بالأغيار والأكدار فقال:

إنما جعلها محلاً للأغيار، ومعدناً لوجود الأكدار تزهيداً لك فيها.

قلت: وذلك لما يبدو لك من نقصها وفسادها وعدم جدواها كما اتفق

---

(١) محمد بن عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن عبدالوهاب الثقفي النيسابوري أبو علي ولد بقهستان في سنة (٢٤٤هـ) توفي سنة (٣٢٨هـ). انظر سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٨٠) رقم (١٢٥).

(٢) موسى وهم والصحيح (علي).

(٣) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٨٢) ونسبه إلى أبي علي الثقفي.

لبعضهم حسبما أخبر عن نفسه إذ قال: «تركت الدنيا؛ لكثرة عنائها، وقلّة غنائها وخسَّة شركائها وسرعة فنائها»اهـ.

ومعرفة ذلك بالتجربة والذوق أتمُّ من معرفته بالتعلم والفهم، وهذا ما نبّه عليه إذ قال:

علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك من ذواقها ما يسهل به عليك وجود فراقها.

قلت: فهو سبحانه زهَّدك فيها بما هي عليه، وأكَّد ذلك بما يلابسك منها، ويكفي في ذلك ما قيل:

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

ففوائد الزهد بها ثلاث:

السلامة من نكدها، والراحة من تعبها، وفراغ الوقت للعبودية ونحوها.

واستفادته من تقلّباتها أتمُّ لثلاثة أوجه:

أحدها: أن النفس تتأثر بما يماسها أكثر من غيره فهو عون على تركها.

الثاني: أن كثرة الجفاء تقطع أصول المحبَّة، والدنيا محبوبة بالطبع، فلا يزيل محبتها إلا كثرة جفاها.

الثالث: أن المماسة في الجفاء أوجع للقلب وأقوى في الحجة وأوضح في المحجة، وقد قال أبو هاشم الزاهد رضي اللّه عنه: «إن اللّه رسم الدنيا بالوحشة؛ ليكون أنس المريد به دونها، وليُقْبِل المطيعون إليه بالإعراض عنها، وأهل المعرفة باللّه من الدنيا مستوحشون وإلى الآخرة مشتاقون».

ثم سهولة فراقها بما ذكر إنما هو بحصول العلم المباشر للقلب في شأنها، وهو العلم النافع كما ذكر المؤلف إذ قال:

اعلم أن العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه ويكشف عن القلب قناعه.

قلت: يبسط في الصدر شعاعه فيتبين له كل شيء على حكمه، ويكشف عن القلب قناعه فيباشر فيما علم الحقيقة قلبهُ فيقع له الإقبال والإدبار على حكم ذلك.

قال الشيخ أبو عبداللّه محمد بن علي الترمذي: «إن النور إذا أشرق في الصدر تصورت الأمور حسنها وسيئها ووقع بذلك ظلّ في الصّدر؛ فهو صورة الأمور فيأتي حَسَنَها ويتجنب سيئَها فذلك هو العلم النافع من نور القلب وخرجت

تلك العلائم إلى الصدور، وهي علامات الهدى. والعلم الذي قد تعلمه فكذلك علم اللسان إنما هو شيء قد استدعى الحفظ والشهوةُ غالبةٌ عليه قد أذهبت بظلمتها ضوءه» انتهى.

وقد جعل اللّه سبحانه غاية علم من آثر الدنيا إيثارَها إذ قال عزّ من قائل:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ . . .﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وجعل الخشية عنوانَ العلم، كما أن العلم مفتاحَ الخشية وهو خير العلوم أعني الذي يفيد الخشية كما بيّنه المؤلف إذ قال:

خير علم ما كانت الخشية معه.

قلت: لأنه مصحوب بمعرفة اللّه، دالٌ على العبودية للّه، فهو شريف الأصل والفرع، والأشياء تشرف بشرف مقاصدها، ولذلك قيل: «فضل العلم لفضل من عُلِم به، واللّه تعالى أجلّ معلوم؛ فالمعرفة به أفضل العلوم، وإذا كان اللّه هو غاية الغايات فالمعرفة به أجلّ العبادات نعم، وحقيقة الخشية مَهابةٌ يصحبها تعظيم، وذلك يفضي لحسن الأدب والمراقبة».

قال في «لطائف المنن»: «فشاهدُ العلم الذي هو مطلوب اللّه تعالى وجودُ الخشية للّه، وشاهدُ الخشية موافقةُ الأمر؛ أمَّا عِلْمٌ تكون معه الرغبةُ في الدنيا والتملّق لأربابها وصرفُ الهمة لاكتسابها والجمع والادِّخار والمباهاة والاستكثار فما أبعدَ مَنْ هذا العلم علمُه من أن يكون من ورثة الأنبياء، وهل ينتقل الشيءُ الموروث إلى الوارث إلَّا بالصفة التي يكون بها عند الموروث عنه، ثم قال:

ومثَل مَنْ هذه الأوصاف أوصافُه من العلماء كمثل الشمعة التي تضيءُ على غيرها، وهي تحرق نفسها، جعل اللّه العالم الذي علمُه هذه الصفة حجة عليه وسبباً في تكثير العقوبات لديه» انتهى.

ثم بيّن وجه خيريته وذكر ضده فقال:

العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك.

قلت: فلك أجره وثوابه، وإلّا فعليك إثمه وعقابه، وإن شئت قلت: فلك نفعُه وفائدته، وإلّا فعليك ضُرُّه وآفتُه، وإن شئت قلت: فلك محجةٌ، وإلّا فعليك حجَّة. قال رسول اللّه ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها...» الحديث.

وإنما كان الأمرُ كذلك لثلاثة أوجه:

أحدها: أن الخشية تحجز عن المعصية والقبائح، وتدعو للمحاسن والمصالح وفقدها ينفي ذلك، لا سيما مع وجود العلم المؤيّد بالتأويل، ولذلك قيل: «من تفقَّه ولم يتصوّف فقد تفسَّق».

الثاني: أن الخشية توجب التحقيق في التحصيل والنصح في التوصيل والإنصاف في المذاكرة، وفقدها ينفي ذلك لا سيما مع غلبة الهوى والشهوة على العقل والعلم والبيان.

الثالث: أن الخشية تحمل على طلب الآخرة وإرادة وجه اللّه تعالى بالعلم في جميع وجوهه، وفقدها ينفي ذلك وهو رأس الآفات والعلل.

وقد قال الفضيل رضي اللّه عنه: «العالِم طبيب الدين، والدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يُبرئ غيره» انتهى.

ومن علامة الخشية قلّة المبالاة بالخلق في إقبالهم وإدبارهم فلذلك قال:

متى آلمك عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم اللّه فيك.

قلت: متى تألَّمتْ نفسُك بإدبار الخلق عنك وعدم إقبالهم فانظر لِما ذُممت به أو فَرَّ عنك من أجله، فإن اللّه تعالى يعلم منك وجوده فارجع إليه بالتوبة والإنابة واللجوء والاستغفار نظراً لأن ألسنةَ الخلق أقلامُ الحق، وأقلامه مسلّطون عليك بما وقع من الذنب وتنبّه في ذلك لستر الحق سبحانه وتعالى إذْ يُجري عليك ما لا تعلمه من نفسك بسبب تلبسك بموازيه، فلا تقف مع صورة ما رميت، بل انظر إلى ما يدور عليه؛ كما إذا رُميت مثلاً بالزنا وأنت بريءٌ منه فانظر إلى الغيبة فإنها موازية له، عقوبتها من نوعه. فقد تكون عقوبتُها بذكره، وإن كان ما وقع لك لا تجده من نفسك فارجع إلى مولاك بالكفاية عن علم غيره، وقل بلسان حالك ومقالك: أنت تعلم براءتي وكفى بك وكيلاً كفيلاً، وارجع إليه في الدفع عنك عبوديةً وتضرُّعاً، لأنه المقصود بابتلائك. بذلك قال أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «لا تنشر عملك ليصدِّقك الناس. وانشر عملك ليصدقك اللّه. وإن كان الأمر لعلَّةٍ موجودة فَعِلَّةٌ تكون بينك وبين اللّه من حيث أمرك خيرٌ من علَّة تكون بينك وبين الناس من حيث نهاك، ولعلَّة تردُّك إلى اللّه خيرٌ من علَّة تقطعك عن اللّه»، فلأجل ذلك علَّقها بالثواب والعقاب؛ إذ لا يُخاف ولا يُرَجَّى إلَّا من أجل اللّه، وكفى باللّه صادقاً ومصدِّقاً، وكفى باللّه عالماً ومعلِّماً، وكفى باللّه هادياً ونصيراً،

هادياً يهديك ويهدي بك ويهدي إليك، ونصيراً ينصرك وينصر بك ولا ينصر عليك، ووليّاً يواليك ويوالي بك ولا يوالي عليك، انتهى.

وهو عجيب. ومداره على الاكتفاء بعلم اللّه والقناعة بعلمه، وهو رأس الفضائل، وللعكس العكس كما قال:

إن كان لا يقنعك علمه فيك فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم.

قلت: يقول: فإن لم تكتف بعلم اللّه وأردت أن يعلم الناس حقيقة ما أنت عليه أدركتك مصيبة الالتفات إلى الخلق فوُكلت إليهم، وذلك من أعظم المصائب وأكبر الآفات والنوائب.

ومن أعظم ما فيه رجوعك إلى الخلق بدلاً من الاكتفاء بالحق ويداخلك من ذلك ثلاثة: الرياء، والتكلُّف؛ وعدم الاحترام للجانب الكريم، فينقلب عزُّك ذلاً، وغناؤك فقراً، ويظهر عليك من أسباب المقت ما لا مزيد عليه، إذ أشرت إلى الحق وتعلّقت بالخلق؛ فقد قال الجنيد رضي اللّه عنه: «من أشار إلى الحق وتوجَّه للخلق أحوجه اللّه إليهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليه» انتهى.

وعلامات الاكتفاء بعلم اللّه ثلاث: التحفُّظ من الوقيعة فيمن آذاك، والقصدُ في العمل بأسباب الدفع حيث توجَّهت، والقيام للّه بالعبودية افتقاراً فيما أنت به.

ثم ذكر حكمة اللّه في تسليط الخلائق فقال:

إنما أجرى الأذى عليك منهم كيلا لا تكون ساكناً إليهم.

قلت: فإن تنبهت لذلك وعملت عليه فأنت مكروم، وإن غفلت عنه وسكنت إليهم فأنت محروم، وإن توجَّعت بوجوده مع عَدم الترك فأنت مرحوم.

ثم من فوائد ذلك ـ بعدما ذكر من عدم السكون إليهم ـ ثلاث:

التحرر من رقّ إحسانهم، والسلامةُ من مؤنة القيام بحقوقهم، والعافيةُ من الفتنة بحبّهم، فقد قيل: السوط من العدو سوط اللّه يردّ به القلوبَ إذا شردت عنه، وإلّا رقد القلب في ظل العزّ والجاه وهو حجاب عن اللّه عظيم».

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «أوصاني أستاذي فقال: اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرِّهم، فإن شرّهم يصيبك في بدنك، وخيرهم يصيبك في قلبك وَلأَنْ تصاب في بدنك خير لك من أن تصاب في قلبك، ولعدوّ ترجع به إلى اللّه خيرٌ لك من صديق يصدّك عن اللّه».

قال في «لطائف المنن»: «اعلم أن أولياء اللّه تعالى حكمهم في بداياتهم أن سلّط عليهم الخلق ليطهّروا من البقايا، ولتكمل فيهم المزايا، كيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، ولا يميلوا إليهم باستناد. قال: ومن آذاك فقد أعتقك من رقّ إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقّك بإحسانه، ولذلك قال ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له»[1]، كلُّ ذلك ليتخلّص القلب من رقِّ إحسان الخلق وليتعلق بالملك الحق» انتهى.

ثم ذكر حكمة ذلك بوجه آخر، فقال:

أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه بشيء.

قلت: يقول: أراد أن يزعجك من كل شيء بما يجرّه لك من ذاك الشيء فترجع إليه في كل شيء، تارة باللجوء إليه في دفع بلواه، وتارة بالفرار منه إلى اللّه تعالى كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٤٩، ٥٠].

فجعل ازدواج الخلق من بساط الفرار إلى الخالق، فافهم.

ثم وجه الانزعاج عن الدنيا بثلاثة:

ما فيها من الأكدار، وما فيها من الآثار، وما تؤول إليه من الزوال. وعن الخلائق بثلاثة:

الفتنة في إقبالهم، والأذى في إدبارهم، والكلفُ والأحوال في ملابستهم.

وَعن النفس بثلاثة:

اتباعُ الهوى فيما تُريده، والاعتراض فيما تطلبه، والجهل فيما تختاره.

فمن علم ذلك ممن ذكر فرَّ منه ضرورة، وكذا من الشيطان فإنه شرّ كلُّه، لكن للفرار من الكل وجوهٌ أحسنها: الفرارُ بالعبودية في بساط التوحيد، وقد ذكرها المؤلف فيما ذكر.

وافتتح بذكر الخلق والدنيا، كما تقدّم، ثم ذكر الشيطان فقال:

إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمّن ناصيتك بيده.

قلت: وذلك بالدوام على ذكره، واتِّباع أمره ونهيه، والقيام بعبوديته وشكره،

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٨/ ١٩٩) رقم (٣٤٠٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٧٣) رقم (٢٣٦٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٢/ ٤٣) رقم (٢٣٤٨) وأبو داود في السنن (٢/ ١٢٨) رقم (١٦٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢١٨) رقم (٣١٨٩).

ليكفيك أمره، وحتى لا تكون له حجة عليك، بل لا يجد إليك طريقاً ولا محجة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقال عزّ وعلا: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وقال الشيخ أبو العباس المرسيّ رضي اللَّه عنه: «فقوم فهموا مِن هذا الخطاب الأمر بعداوةِ الشيطان فشغلهم ذلك عن محبَّة الحبيب فكفاهم من دونه، قال مُريد لأستاذه: بِمَ تطرد الشيطان إذا قصدك بالوسوسة؟

قال: إنَّا لا نعرف الشيطان؛ نحن قوم رفعنا هممنا إلى اللَّه فكفانا اللَّه من دونه.

وقال أبو سعيد الخدري[1] رضي اللَّه عنه: «سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «قال إبليس لربه عزَّ وجلّ: وعزَّتك وجلالك لا أزال ولا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم».

قال له ربُّه: «بعزَّتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»[2] انتهى. ثم ذَكر وجهاً من حكمة خلق إبليس متعلقاً بمراده فقال:

جعله لك عدواً ليحوشك به إليه.

قلت: معنى ليحوشك: ليردّك بالكلية إليه على وجه لا يمكنك الانفكاك عنه، وهذا أحد الأوجه الثلاثة التي ذكرت في خلق إبليس؛ فإن من كان له حبيب ولا يخشى من اغتيال عدوٍّ دونه ليس كمن يخشى عدوّه ويعلم قدر حبيبه.

الثاني: إنما جعل في هذه الدار منديلاً للعار تمسح فيه أوساخ النسب ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]، من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، و... هذا من عمل الشيطان... إلى غير ذلك.

الثالث: خلقه في مقابلة الرسل: هم يدعون إلى هدى، وهو يدعو إلى ضلال فيتميّز الخبيث من الطيّب بالتابع والمتبوع، جعلنا اللَّه من خير الفريقين بفضله.

وقد قال ذو النون المصري رضي اللَّه عنه: «إذا كان هو يراك من حيث لا

---

(١) سعد بن مالك بن سنان بن عبد بن ثعلبة بن عبيد بن خدرة، أبو سعيد الخدري، شهد أحداً، وبايع تحت الشجرة، توفي سنة (٧٤هـ). انظر أسد الغابة (٦/ ١٣٨) والأعلام (٣/ ٨٧).

(٢) أخرجه أبو يعلى في المسند (٢/ ٤٥٨) رقم (١٢٧٣)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٩) رقم (١١٢٦٢).

تراه فاللّه تعالى يراه من حيث لا يرى اللّه، فاستعن باللّه تعالى عليه».

وقال أبو حامد الأعرج رضي اللّه عنه: «ومنْ الشيطان حتى يهاب؟ فَلقد أُطيع فما نفع، وعُصي فما ضرّ».

وقال بعضهم: «إنّ عدواً يراك ولا تراه لشديدٌ إلّا من عصم اللّه» انتهى.

ثم ذكر بيان النفس في حركاتها وفائدة ذلك فقال:

وحرّك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه.

قلت: تحريك النفس بطلب هواها، وإيثارها دنياها، وكثرة تطلُّبها، وعدم الوفاء بعزمها، وجموحها في جنوحها، وإقبالك عليه في ذلك بثلاثة أشياء:

الثقة فيما ترتجيه، واللجوء إليه فيما تتَّقيه، والإنابة له فيما ترتضيه، تارةً على بساط المشاهدة، وتارة بوجه من المجاهدة، وتارة بالرياضة والمنابذة، فهي التي لم تقدروا عليها قد أحاط اللّه بها. كما قال له الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه.

وقال أيضاً رضي اللّه عنه: «أعظم القربات عند اللّه مفارقة النفس بقطع إرادتها، وطلب الخلاص منها بترك ما تهوى لما يُرجى من حياتها، وإنَّ مِن أشقى الناس مَن أحب أن يعامله الناس بكل ما يريد وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد» انتهى.

وبانتهائه تمَّ هذا الباب واللّه الموفِّق للصواب.

تنبيه:

ومن أعظم آفات النفوس وجود الكبر.

وله وجوهٌ مِن أخفاها ما ذكره المؤلف في الباب الخامس والعشرين:

الباب الخامس والعشرون

أولاً: إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه:

من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً، إذ ليس التواضع إلا عن رفعة، فمتى أثبتت لنفسك تواضعاً فأنت المتكبر.

قلت: لفظ التواضع يقتضي منزلةً صَدر التنازل عنها، وحقيقته تأبى ذلك، فمن أثبت لنفسه تواضعاً على ما يقتضيه اللفظ، فقد أثبت لنفسه رفعةً، وذلك مناف لحقيقته.

وقد ساق المؤلف بعضه معلَّلاً بعلة موصولاً بنتيجته، ثم ذكر شأن المتواضع الحقيقي، فَيعْرف منه حقيقة التواضع المقصود بالمعنى فقال:

ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع.

قلت: فالتواضع أن لا ترى لنفسك قدراً وأنَّ كل ما وضعتها فيه من أنواع الذلَّة هي مستحقة لما دونه لما هي موسومة به من النقائص تفصيلاً وتأصيلاً، وقد قال الشبلي رضي اللّه عنه: «من رأى لنفسه قيمةً فليس له من التواضع نصيب».

وقال أبو سليمان الداراني رضي اللّه عنه: «لا يتواضع العبد حتى يعرف العبد نفسه».

وقال أبو يزيد رضي اللّه عنه: «ما دام العبد ينظر أن في الخلق من هو شرٌّ منه فهو متكبر، قيل: فمتى يكون متواضعاً؟ فقال: إذا لم ير لنفسه حالاً ولا مقاماً» انتهى.

فإذن التواضعُ من حيثُ اللفظ موضوع لشعور النفس بصفتها بغير زائد على ذلك.

ثم له سببان: نظر العبد لأوصاف نفسه ونقصِها، ونظره لأوصاف ربّه وكماله، والناشئ عن الأخير أتَمُّ من الأول، فلذلك رجّحه المؤلف فقال:

التواضع الحقيقي ما كان ناشئاً عن شهود عظمته، وتجلّي صفته.

قلت: وذلك بأن يرى كمال الحقّ تعالى، وأن كل شيء دونه ناقص محتقر، فيفنى الكلّ في جلاله وكبريائه وعظمته، وقد قال ذو النون المصري رضي اللّه عنه: «من أراد التواضع فليوجه قلبه إلى عظمة اللّه تعالى فإنه يذوب ويصغر، ومن نظر إلى سلطان اللّه تعالى ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلّها حقيرةٌ عند هيبته، ومِن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون اللّه تعالى؛ فقد قال في «عوارف المعارف»: «اعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلّا عن لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها عن غِشِّ الكبر والعجب فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها» انتهى.

فالناس ثلاث:

رجل رأى قُبح فعله، فلم ير لنفسه قدراً.

ورجل شاهد قبيح وصفه فلم يشهد لنفسه نسبة.

ورجل شهد عظمة ربّه فنسي كل شيءٍ به، وهذا أتمُّ الوجوه وأحسنها، كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف.

قلت: لا يخرجك عن الوصف الحقير النفساني إلا شهود الوصف العظيم الربانيّ، لا يخرجك عن الوصف المنسوب إليك إلّا شهود الوصفِ الحاكم عليك، لا يخرجك عن وصف نفسك إلّا شهود وصفها بحقيقة ما هي عليه حتى لا يبقى لك خبر عنك، فقد قال الشيخ أبو عبداللّه القرشي رضي اللّه عنه: «من وجد ذوق ذُلِّه في ذُلِّه فهو متعزِّز وفيه بقية».

وقال الجنيد رضي اللّه عنه: «التواضع عند أهل التوحيد تكبُّر».

قال الإمام الغزالي رحمه اللّه: «ولعل مراده: أن المتواضع يثبت نفسه رفعةً ثم يضعها، والموحِّد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها بالتواضع برؤية النفس خروج عنها بها، ولها، وبرؤية الحق خروج عنها به، وهذا لا يمكن رجوعُه، بخلاف الأول، فإنه يسرع انقلابه.

ولما كان المؤمن الكامل مُشاهد جلال ربّه وجماله في جميع أحواله وأوقاته لم يمكنه انفكاكٌ عن جنابه، وهذا ما ذكره المؤلف إذ قال:

المؤمن يشغله الثناء على اللّه عن أن يكون لنفسه شاكراً، وتشغله حقوق اللّه عن أن يكون لحظوظه ذاكراً.

قلت: أراد المؤمن الكامل المحقِّق بحقائقِ إيمانه يوجب له ما تحقق له من الإيمان أن يرى كلَّ فضل منه من مولاه فيما أسدى إليه من نظره لما وصل إليه وكماله به فلا يشكر نفسَه، ولا ينظر إليها؛ فإذا أطلق الثناء أثنى على مولاه بما هو أهله في الفقد والوجدان، وتشغله حقوقُ اللّه الواجبةُ، وغيرها من مقتضيات العبودية، عن أن يكون لحظوظه ذاكراً؛ فإن كان ملابساً للحظوظ فلا يتناولها إلّا لأمر اللّه إياه فيها، وذلك كلُّه من بساط حبِّه لمولاه، وإيثاره على هواه، إذْ يفعل لا لعلَّة ولا لسبب، كما هو شأن كلِّ محبٍّ، وهذا ما ذكره المؤلف ونبَّه عليه بأن قال:

ليس المحب الذي يرجو من محبوبه عوضاً، أو يطلب منه غرضاً.

قلت: وذلك لأن حقيقة المحبة أخْذ جمال المحبوب بحبة القلب حتى لا تبقى فيه بقِية لغير المحبوب، وبحسب ذلك لا يبقى له غرض في غير رضا محبوبه، ويكون ذلك غاية مرغوبه؛ بل يفنى عن نفسه وعن كل شيء حتى لا يكون له خبرٌ عن غير الحبيب؛ هذه امرأة العزيز أرادت أن تقول: شدّ على قميصي إزاراً، فقالت:

شدّ على قميص يوسف.

وأنشدوا في معنى ذلك:

بُني الحبُّ على الجوْر فلو ... سمح المحبوب يوماً لسمج

ليس يستحسن في حكم الهوى ... عاشق يطلب تأليف الحجج

ثم طلب الأعواض والأغراض شأن المحبوب لا شأن المحب كما قال:

فإن المحب من يبذل لك، ليس المحب من تبذل له.

قلت: المحبّ: من يبذل الروح ويستقلُّها، ليس المحبُّ من يطلب الأعواض، وإن عمل عملاً استقلّه، وللّه درُّ أبي حفص عمر بن الفارض حيث يقول:

ما لي سوى روحي وباذلُ روحه ... في حبّ من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيتَ بها فقد أسعفتني ... يا خيبة المسعى إذا لم يُسعف

وقال بعضهم: أول ما يقول اللّه تعالى للعبد: أطلب العافية والجنة

والأعمال. فإن قال: «ما أريد إلَّا أنت، قال له: من دخل من هذا الباب معي فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ورفع الحدوث وإثبات القِدم، وذلك يوجب لك العدم»، وأنشدوا في معنى ذلك:

اسمحْ بنفسك إن أردت لقاءنا واحلف بنا أن لا تحبّ سوانا
فإذا قضيت حقوقَنا يا مُدّعي عاينتنا بين الأنام عيانا

وقيل: المحبَّة نار تحرق البقايا من العبد وتُصيّر حاله للرضا لا للخوف حتى لو كان رضا المحبوب في صرف الوجه عنه لكان المحبّ مطلوباً بالرضا به.

فإن قال:

وأترُكُ ما أَهْوَى لما قد هويتَه وأرضَى بما ترضى وإن سخطت نفسي

قيل له: أنت معلول بعروض السخط لنفسك فيُجيب بقول القائل:

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد

فيقال له: الترك معروض للرضا وعدمه، ولا يَصحّ في مقام المحبة إلَّا حب ورضى، كما قيل:

فكل ما يفعل المحبوب محبوب

فيقول: حقيقة المحبة تدعو لطلب الوفاء، ورضا المحبوب في غير ذلك.

فيقال: الوصل حظك، والرضى حقُّه، وهو أولى بك منك. فافهم. ومن أحكام الحب طلب الوصلة والقرب برفع الأستار والحجب وذلك بالسلوك والسير. ومداره على قطع عقبات النفس من غير زائد كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين.

قلت: ميادين النفوس مجالاتها التي تتردَّدُ فيها.

ومدارها على ثلاثة أمور:

طلبُ الحظوظ بالغفلة، واتباعُ الوهم من غير تحقيق، وصريحُ الدعوى من غير حقيقة.

فنفي الغفلة بالتقوى، ثم بالاستقامة.

ونفي الأوهام بالتصبّر والاتباع.

ونفي الدعاوى بالمعرفة والتحقق.

ولكل منها سير يخصُّه، فالسير في الغفلة الأولى بالحذر والإشفاق ونتيجتها

الورع والتحفظ، والسير في الثانية بالعلم والاستبصار ونتيجتها نفي الغلط بالتحقيق والتحفظ في التوسيع والتضييق، والسير في الثالثة بالانحياش إلى الحق والفرار من الخلق، ثم لا تُبالي في أيِّها وقعت ما لم تهمل الأخرى، فإن كل واحدة منها تدعو لباقيها، وإهمال واحدة خَلَلٌ في التي تليها. واللّه أعلم.

وإنما كان الأمر على ما ذكر؛ لأن الحق سبحانه ليس ببعيد ولا محجوب كما نبّه عليه بقوله:

لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك.

قلت: لا مسافة حسيَّة ولا معنوية؛ لأن الحسيّة تقضي بالجهة، ولأن المعنوية تقضي بالمماثلة. والربّ تعالى مُنزّهٌ عنهما بجلال قدسه.

ولا قطيعة حسية ولا معنوية أيضاً: لانتفاء النسب والمشابهة في وصفه تعالى، وقد تقدّم من كلام الجنيد رحمه اللّه: متى يتّصل من لا شبيه له ولا نظير بمن له شبيه ونظير!!

وللّه درّ الشيخ أبي الحسن التستري حيث يقول:

أيُّ وصـــول ثُـــم أيُّ وصـــال كـــمـــا لـــيـــس ثـــمَّ انـــفـــصـــال

ولما تكلم الشيخ ابن عبَّاد رحمه اللّه على هذا الموضع لم يزد أن قال: هما محلان محالان لعدم المثلية في الأول وعدم الضدية في الثاني، ثم قال:

«وهذه الألفاظ التي عبّر بها المؤلف من السير والميادين، والرحلة والوصلة، وفي معناها: السير والسلوك والذهاب والرجوع، هي عبارات استعملها الصوفية في أمور معنوية تجوزوا بها عن أمور حسية. ومرجع ذلك إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير» انتهى.

وهو محتاج إليه في بابه.

ثم ٱعلم أن الطريق منحصر في اتباع الرسول ﷺ بجمع الحقيقة للشريعة، إلَّا أن مسالكها مختلفة بحسب الوجوه والتوجّهات، وأعلى المسالك السلوك بالهمة.

وقد ذكر شرف الروحانية، فلتطلب أشرف متعلقاتها وهو فتح أبواب الغيوب: لأن ما دونها راجع لأنواع المحسوسات، كما ذكر المؤلف إذ قال:

جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته

وأنك جوهرة منطو عليها أصداف مكوناته، وسعك الكون من حيث جسمانيتك، ولم يسعك من حيث روحانيتك.

الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته، ومحصور في هيكل ذاته.

قلت: ميادين الغيوب: مجالاتها، ومدارها على أسرار العبودية. وأنواع المعارف والعلوم الإلهامية التي لم يفتح له بابها ولا ظهر له جنابها لم يزل في الحضيض الأسفل وإن كان في أرفع درجات العبادة والعلم، وهي أمور لا تتناولها العبارة ولا تبين عنها الإشارة، لكن تدرك من وراء الستارة، مَن سُتِرت فيه ظهر عليه سرّها وهو: سيماء العارفين، أو بهجة المحبين، ومن لم تحصل له فهو مسجون بمحيطاته الجسمانية من الأكل والشرب والجماع والإقبال والإدبار، ومحصور في هيكل ذاته النفسانية بطلب الأعواض، وَاتِّباع الحظوظ والأغراض، وإذا فتحت لك ميادين الغيوب فلْترقَ بهمتك لأعلاها، وهو معرفة الحق سبحانه، والكوْن به وله، لا لشيء دونه ولا لشيء سواه، فإن كلَّ شيء دون ذلك روحانياً كان أو غيرة نقصٌ وبخس، إذ لم يصل بالحقائق ولم يتحرر من رقّ الخلائق، كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك.

قلت: فَرق بين كونك مع الأكوان وكون الأكوان معك هو أنك في الأول تنظر إليها عند احتياجك وغيره. وفي الثاني تُعرض عنها بالإقبال على مولاك، فمن احتاج لشيء فشغل سِرَّه به وجوداً أو عدماً وتحصيلاً أو غيره، فهو مع ذلك الشيء؛ لأنه له.

ومن احتاج لشيء فتوجه لمولاه في تحصيله أو نفيه، أو نظر لتصرفه فيه ونحوه، كان ذلك الشيء معه، بمعنى: أنه معين له على ما يريده من التوجه والإقبال على مولاه. وما دعاه لذلك إلّا ما حصل له من الشهود. بخلاف الأوَّل؛ فإنه في ظلمة الأسباب بالفقد والوجود، فقد قال الشبلي رضي اللّه عنه: «لا يخطر الكونُ ببال من عَرفَ المكوِّن».

وَسئل سهيل رضي اللّه عنه عن القوت، فقال: «هو الحيُّ الذي لا يموت.

فقيل: إنما سألناك عن الغذاء!!

قال: الغذاء الذكرُ.

فقيل له: إنما سألناك عن القُوام.

فقال: القُوام العلمُ.

فقيل له: إنما سألناك عن طعمة الجسد.

قال: دع من تولاه أولاً يتوله آخراً؛ أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردّت لصانعها فهو العالم بإصلاحها» انتهى.

ثم هذا آخر المجاهدة في مراتب الوجود، وهو أول مراتب الخصوصية التي هي المعرفة والمشاهدة، وهو موقف يتوهّم فيه نفي البشرية وليس بصحيح. فلذلك تكلم عليه بأن قال:

لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية.

قلت: وإن صح وجود سترها وَتغطيتها، لأن البشرية أمر ذاتي والذاتيات لا زوال لها. والخصوصية أمر عارض؛ والعارض لا ينفي الذاتي وإن ستره؛ فقد تقدّم من كلامه: (سبحان من ستر سرّ الخصوصية في عين البشرية)، ومن تقريره: أن ظهور الخصوصية في عين البشرية وسترها بها، فانظرها هناك.

ثم ذكر مثالاً واضحاً في معنى الخصوصية والبشرية فقال:

إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق وليست منه.

قلت: فالخصوصية ظهرت في عوالم الإنسان وليست منه، فظهر للجاهل أنها أذهبت وجود البشرية، كما يظن الغبي أن شمس النهار أذهبت ما في الأفق من ظلمة الليل ونحوه، لكنها سترته بضوئها كما ستَرت الخصوصيةُ البشرية بظهورها كما قال:

تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبضها عنك فيردك إلى حدودك.

قلت: فإذا طلعت شمس الأوصاف عليك ظهر فيك من الغنى والعز والقدرة والقوة ما يقتضي أن العالم كلّه في قبضتك، ولا قدرة لشيء على مقابلتك، وإذا ردّك إلى حدودك ظهر عليك من الفقر والذل والعجز وَالضعف ما يوجب تلاشيك؛ فإن كنت تام العبودية أعطيتَ كلّ محل حقه، كما فعل رسول اللّه ﷺ، وهو العارفُ الكامل إذ شدّ الحجر إلى بطنه افتقاراً إلى اللّه تعالى، وَأطعم ألفاً من صاع إظهاراً للغنى باللّه، وإن كانت خصوصيته لا تُزايله فالأحكام مأخوذةٌ من حركاته ﷺ.

وبالجملة، فالمدار ما ختم به إذ قال:

فالنهار ليس منك إليك ولكنه واردٌ وَرَدَ عليك.

قلت: فأعطى كلّاً حقه: النهارُ بالحركة وَضده بالسكون: كما فعل الخواص رضي اللّه عنه، وذلك أنه قام ليلة يصلي فجاءه الأسد فلم يحتفل به، فلما كان من الغد سقطت عليه «بقّةٌ» فصاح منها، فقيل له في ذلك، فقال: البارحة كنت مأخوذاً عنّي، والليلةَ مردودٌ علي».

وكان بعضهم يشير إلى الحقيقة، ثم رئي عند باب لا يصلح وقوفه به لحاجة فأنشد:

إذا كـنَّـا بـه تِـهـنـا دلالاً ... عـلـى كـلِّ الـحـرائـر والـعـبـيـد
وإن كـنَّـا بـنـا عـدنـا إلـيـنـا ... فـعـطَّـل ذُلَّـنـا ذلّ الـيـهـود

ثم للخصوصية بعد ثبوتها معارج تترقَّى فيها هي بحسب التجليات وقد ذكرها المؤلف على مراتب فقال:

دل بوجود آثاره على وجود أسمائه.

قلت: فمن نظر اختلاف الآثار وتنوّعها دلّته على معاني الأسماء فحصل له من العرفان بذلك على قدر اتساع نظره ونور باطنه؛ إذ يرى لكل اسم نسبة ولكل نسبةٍ وجوهاً، ولكل وجهٍ متوجّهات لا نهاية لها. ثم قال:

وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه.

قلت: فإذا نظرت في الأسماء من حيث المعنى الجامع والأثر الظاهر ظهر لك أنها راجعة لأوصاف الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام؛ إذ لا يخرج عن ذلك اسم بمعناه وقصده، فافهم.

ثم قال:

وبثبوت أوصافه على وجود ذاته.

قلت: فإذا نظرت الأوصاف دلّتك على وجود الذات، لا لمعنى منها، بل من حيث لزومها لوجودها كما بيّنه إذ قال:

إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه.

قلت: يعني: أو بمثله؛ لأن المعنى لا يقوم بالمعنى ولا بذاته؛ فمعرفة الذات من وراء معرفة الصفات، ومعرفة الصفات من وراء معرفة الأسماء، ومعرفة الأسماء من وراء معرفة الآثار.. هذا على الترقّي، وهو شأن النظّار وأهل الإرادة عكس حال العارفين وأهل الجذب كما قال:

فأهل الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته.

قلت: وذلك بمعنى أنه يظهر لقلوبهم من جلاله وعظمته وكبريائه ما تذهل فيه العقول والألباب، ولا يدرك بالتعلّم والاكتساب، فيوجب لهم تعظيماً وإجلالاً وهيبة وأُنساً يغيب وجودُهم به فيه بلا علّة ولا علم يستشعر.

ثم يردهم إلى شهود صفاته.

قلت: وذلك بأن يشعروا أن من لازم هذه العظمة الاتصاف بعليّ الصفات، فلْتلْتفتْ قلوبهم إليها التفاتاً لا يحسون به حتى يجري معناه عليهم فيحصل فرق في عين الجمع، وهو موضع العلم والمعرفة التفصيلية.

ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه.

قلت: وذلك أن حقيقة المعرفة بالصفات تسري بهم للتفصيل في المعاني فيقولون مثلاً: قادر على الانتقام والرحمة والنفع والضرّ مريدٌ ذلك، عليم به عظيم في ذلك، وفي حياته ورحمته وأسمائه، ثم كذلك، فيخرج بهم تعريف الأسماء من الصفات.

ثم يردهم إلى شهود آثاره.

قلت: بأن يسري لهم من كل اسم ظهور نسبته في الوجود، فينظرون آثار الرحمة متنوعة، ووجوه الانتقام متعددة، وكذا سائر الأسماء مع التداخل، فينظرون الخلق بما أبدى عليهم الحقُّ، وحينئذٍ لا يُهملون حكمه، ولا يُفْردون حكماً ويدخلون الشريعة من عين الحقيقة.

هذا مع أنهم لم يفارقوها في حالٍ، لكن بساط التوجه مختلف يعرف ذلك من نازله، ويفهمه من تحقق، وربك الفتاح العليم، ثم قال:

والسالكون على عكس هذا.

قلت: يبدو لهم اختلاف النسب، ثم يظهر استناد كل نسبة لاسم من الأسماء أو لمعنى من معانيه.

ثم يبدو أن كل الأسماء راجعة للصفات، ثم يظهر لهم من الصفات عظمة الذات الكريمة وَهي غايتهم. كما قال:

فبداية المجذوبين نهاية السالكين،

وبداية السالكين نهاية المجذوبين.

قلت: المجذوب: هو: المأخوذ من نفسه إلى حضرة الحق لا بترتيب ولا تدريج.

والسالك، هو: الواصل لها بترتيب وتربية.

وكلّ منهما له حظ مما لصاحبه، وإنما اختلف البساط فقط في كل مجذوب سالك، ولولا ذلك لكان زنديقاً، وكل سالك مجذوب؛ إذ لولا عِناية اللّه له ما أخذ في السلوك، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم هما وإن اختلفا في البداية والنهاية فقد اتَّفقا في معنى التحقيق.

وهذا ما نبّه عليه بأن قال:

لكن لا بمعنى واحد.

قلت: يقول: لكن المعنى الذي دخل به المجذوب إلى الآثار ليس هو المعنى الذي خرج عنه السالك لأجله، بل خروج السالك عنه بربّه لربِّه ودخول المجذوب فيها بربِّه.

وبحسب هذا فَهُما بين داخل وخارج أبداً.

وقد تقع لهما المواطأة في موقفٍ ما كما قال:

فربما التقيا في الطريق.

قلت: يعني، في منزل من منازلها، فيكون هذا مجذوباً في مشاهدة الصفات نازلاً، والسالك في مشاهدتها صاعداً، وكذلك في مشاهدة الأسماء فيتفق علمهما ومنازلتُهما، ويختلف بساطهما وتوجههما ولا يمكن في محل التحقيق إلَّا اختلافهما مع الاتفاق في المقصد وهو أمر يعرفه أرباب المنازلات، فلا يدرك منه بالتعبير إلّا طرف يسير، واللّه أعلم. ثم قال:

هذا في تدلّيه وهذا في ترقّيه.

قلت: يعني: أن التقاءهما لا يخرج أحداً منهما عن حكم طريقه، بل يكون هذا في تدلّيه من الحقيقة إلى الحكمة وهذا في ترقّيه من الأغيار إلى الحقيقة. وكلّ على كماله وباللّه التوفيق.

وعلامة التحقق في هذه المنازل إنما تظهر في الإيمان باليوم الآخر؛ فلذلك قال:

لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء إلا في شهادة الملك.

قلت: أنوار القلوب والأسرار: ما يظهر فيها من المعارف والعلوم ونحوها... وغيب الملكوت: ما خفي إدراكه من حيث الأحكام العقلية، كما أخبر به الشارع ﷺ من أمر الدنيا والآخرة، لأنه لا يعرف تَحقّقه إلّا منه، وبه تظهر قوة الإيمان ونور القلوب ونحوهما، فمن كان إيمانه بالغيب أكمل وأحكم كان نوره وإيمانه أتمَّ، ومنَ لا فلا، فقد قال رسول اللّه ﷺ لحارثة حين قال: «أصبحتُ مؤمناً حقاً»: لكل حقّ حقيقة، «فما حقيقة إيمانك؟» فقال: كأني بعرش ربّي قد نُصب، وكأنّي بأهل الجنة في الجنة يتنعّمون، وبأهل النار في النار يتعاوون، فقال عليه الصلاة والسلام: «عرفتَ فالزم، عبدٌ نوّر اللّه قلبه...»[1] الحديث، فجعل إيمانه بالآخرة حقيقة إيمانه، وشهد له بالمعرفة والتنوير. فافهم.

فأنوار السماء نجوم وأقمار وشموس.

وأنوار القلوب علوم ومعارف، فأُفُق هذه مواضع ظهورها، وأُفق تلك مواضع وجودها.

ومما تظهر فيه أنوار القلوب وجودُ المعاملات وهي أيضاً أُفق يبدو فيها من الثمرات، وثمراتها أفق لما يرجّى من قبولها فلذلك أتبع المسألَة بأَن قال:

وجدان ثمرات الطاعة عاجلاً بشائر للعاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً.

قلت: وجدان ثمرات الطاعات: ما ينشأُ عنها مما هو ملابس أو مفارق، كالحياة الطيبة، وسقوط الخوف والحزن بالسكون إلى اللّه تعالى، وظهور الجلالة بنفوذ الكلمة، ونحو ذلك مما تقدّم ذكره ودليله عند قوله: (من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول آجلاً).

والبشارة: الخبر الصادق، وأكثر استعماله في الخير، وفي الخبر: «بشِّروا ولا تنفِّروا» وهي تدل عليه ولا توجبه.

وإنما كانت بشارة الجزاءِ لأنها كرامة من الحق سبحانه، والكريم إذا أعطى كمّل، وإذا خوّل نوَّل.

ثم مع هذا كلّه فالجزاءُ وإن كان موعوداً لا ينبغي أن يكون بالعمل مقصوداً

(١) سبق تخريجه.

لذاته؛ لأن الوعد من بساط الكرم، والقصد من جود مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا، وهو إساءَة أدب. وهذا ما توجّه له بأن قال:

أم كيف تطلب العوض عن عمل هو متصدق به عليك.

قلت: ولو لم يتصدّق به عليك كنت محتاجاً إليه مع عجزك عن تحصيله، فهو قد دخل عليك من بساط افتقارك فلا يصحّ لك أن تستغني به عمن أعطاك إياه، فضلاً عن أن تطلب العوض منه ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ثم طلب العوض يفتقر لسلامة المعوَّض من الآفات والعلل؛ وميزان أعمالك ما يليق بأفعالك، فإن صدقت في توجّهك فصدقك هدية منه لك، وذلك لا يصح معه طلب الجزاء كما قال:

أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك.

قلت: والفرق بين الهدية والصدقة ثلاثة أمور:

أحدها: أن الهدية لا تكون إلا بالشيء النفيس والصدقةُ تكون بكل شيء.

الثاني: أن الهدية للمحبوبين والصدقة للمحتاجين.

الثالث: أن الهدية كرامة، والصدقة مرحمة، وبهذا يظهر لك أن العمل آكَدُ من الصدق والصدق أنفس من العمل، وقد قال عليه السلام: «إنما أنا رحمة مهداة»[(١)].

فقد قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه: «الأنبياء لأممهم عطية، ونبيّنا ﷺ لنا هدية، وفرق بين الهدية والعطية: الهدية للمحبوبين والعطية للمحتاجين».

ثم الناس في التوجّه بالذكر الذي هو روح العمل قسمان ذكرهما المؤلف بأن قال:

قوم تسبق أذكارهم أنوارهم، وقوم تسبق أنوارهم أذكارهم، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكراً.

قلت: فالذي يسبق ذكرُه نورَه هو الذي ذكر ليستنير قلبه، وهو السالك الطالب.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٩١) رقم (١٠٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٢٥) رقم (٣١٧٨٢).

والذي يسبق نوره ذكره هو الذي صار ذاكراً اضطراراً لقوة الوارد عنده: وهو المجذوب الواصل. وقد ذكر هذا المعنى حيث قال: (اهتدى الراحلون له بأنوار التوجُّه، والواصلون لهم أنوار المواجهة، فالأولون للأنوار، وهؤلاء لا أنوار لهم، لأنهم للّه لا لشيء دونه). وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه: «قوم وصلوا إلى كرامة اللّه، وقوم وصلوا لطاعة اللّه بكرامة اللّه».

وقال شيخنا أبو العباس الحضرمي رضي اللّه عنه: (التفرقة مع الجمع أقوى مقاماً من الجمع مع التفرقة) انتهى.

وفي هذا الكلام دلالة على أن المجذوب أفضل من السالك، وللناس فيه كلام ذكره في «لطائف المنن» ورُجّح أنه أتمُّ فانظره، وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أن كل مجذوب سالك، وكل سالك مجذوب، فقال:

ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر.

قلت: فالذاكر يستنير قلبه ولا تجلّي الحقيقة لقلبه ما آثر الذكر لاستنارته، ولولا فكرته التي حصلت له ما توجّه لذلك.

والذي قد استنار قلبه إنما هو من مشاهدة الحق به، وما كان ذاكراً إلّا لداعية الفكر الحاصلة له، فلا بدّ لكلٍّ من شهود وفكر، إلّا أن الأول فكره أصل، وشهوده تابع، وبالعكس الآخرُ، واللّه أعلم.

ثم الذكر والفكر إنما هما جاريان عن الحقيقة المودعة في أصل النشأة حيث الميثاق، وهذا ما ذكره المؤلف بأن قال:

أشهدك من قبل أن أستشهدك.

قلت: فشهودك موجود من قبل أن أستشهدك على أنه ربك، وذلك يوم الميثاق «يوم ألست بربكم» لأن هذا خطاب مواجهة ومعاينة تقتضي الإشهاد والاستشهاد فوقعت الإجابة إذ ذاك بقوله: «بَلَى» أي أنت ربُّنا، كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال:

فنطقت بآلاهيته الظواهر.

حيث قالت: «بلى»، قال ابن عباس رضي اللّه عنه: ولو قالوا: «نعم» لكفروا؛ لأنه جواب النفي المقتضي لإثباته ثم قال:

وتحققت بأحديته القلوب والسرائر.

قلت: لِما عاينت من جلاله وعظمته وكبريائه عند إشهاده فتمَّت حجته تعالى

على الجميع في الحال واستمرت بإثبات ذلك في وجودها إلى ما لا يزال. وعليه وقع التقرير بقوله الكريم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا . . .﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] الآية.

ولذلك لم يمكن أحدٌ الشكَّ في بارئه، ولم يُعْذَر كافرٌ بجحده على معنى أن العلم بوجوده مذكور في الجبلَّة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] (ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة. . . الحديث)[1].

ثم في حصول الإشهاد والاستشهاد والشهادة ظهر التكريم بِذكره على وجوه ثلاثة ذَكرها المؤلف بأن قال:

أكرمك بكرامات ثلاث: جعلك ذاكراً له ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك.

قلت: الكرامات الثلاث كلّها في ذِكره:

الأولى: ذكرك إيّاه، وهو لا يليق بك من حيث أنت، ولا تقدر على تحصيله لنفسك، فحصوله منَّة منه وفضل، ومَن أنت حتى تكون محلاً لذكره أو موضعاً لتوفيقه لولا فضله وإحسانه؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال عزّ وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] إلى غير ذلك.

ثم ذكر القسم الثاني فقال:

وجعلك مذكوراً به إذ حقق نسبته لديك.

قلت: وذلك أنك مذكورٌ به ومنسوب إليه في مواقف ثلاثة:

موقف الخلق، والاختراع، والإيجاد والإبداع، وبه يقال: أنت عبد وهو ربّ، ومن أنت حتى يكون لك ذلك، وموقف الستر والتجميل والإمداد، وبه يقال هو معطِي وأنت مُعطَى، وهو منعِم وأنت منعَم عليك، وموقف التوفيق والهداية وبه يقال أنت موفَّق وهو مُوفِّق وهو هادٍ وأنت مهدي، ومن أين لك ذلك لولا نسبة فعله بك في المواقف الثلاثة. فافهم، ثم ذكر القسم الثالث. فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٤٥٦) رقم (١٢٩٢)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٠٤٧) رقم (٢٦٥٨).

وجعلك مذكوراً عنده فتمّم نعمته عليك.

قلت: مذكوراً عنده بالتوفيق أولاً، ثم بالثناء آخراً؛ إذ قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، «ومن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خيرٍ منه»...

وأيّ نعمة أعظم من ذكر الحق لعبده، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قيل: ذِكر اللّه عبده أكبر من ذكر العبد ربّه.

وقيل: ذِكر اللّه في الصلاة أكبر من ذكر الصلاة.

وقيل: ذِكر اللّه بالتوفيق لها أكبر منها.

وقد قال يحيى بن معاذ الرازي رضي اللّه عنه: يا جهول، يا غفول، لو سمعت صرير القلم يذكرك في اللوح لطِبتَ طرَباً» انتهى.

ثم ذكر وجهاً يترجَّح به المجذوبُ على السالك ويظهر به أن البركة في العمر خيرٌ من طوله، ولا بركة إلا بذكر ومعاملة فقال:

رب عمر اتسعت أماده وقلّت أمداده.

قلت: وذلك كأعمار بني إسرائيل الطويلة، تعبَّدوا أو لم يتعبدوا؛ لأن هذه الأمة تفضُلهم المتعبد للمتعبد، وغيره لغيره، وكعمر السالك بالنسبة إلى عمر المجذوب إذا اتحد توجههما، ثم قال:

ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده.

قلت: كأعمار هذه الأمَّة، متعبّدهم وخليّهم في مقابلة من مضى من الأمم، وكذلك المجذوب في مقابلة السالك إذا اتحد بساطهما. وقد قال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على أبي سليمان الداراني رضي اللّه عنهما فقال لي: ما جئت به يا أحمد؟

قلت: غبطتُ بني إسرائيل.

قال: بماذا؟

قلت: بثمانمئة عام حتى يصيروا كالأوتار، والحنايا، وكالشنان البالية من العبادة.

فقال: «ما ظننتك قد جئت بشيء!! واللّه ما يريد منا أن تَيْبسَ جلودُنا على عظامنا، ولا أن نصير كالأوتار وكالحنايا، وكالشنان[1]، فلا يريد إلَّا صدق النيَّة؛

(١) الجلد اليابس. انظر لسان العرب (١٣/ ٢٤١).

هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما ناله ذاك في عمره طويل» انتهى. وهو عجيب. فإذن العبرة ببركة العمر، لا العمر، وهذا ما نبَّه عليه إذ قال:

من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن اللَّه تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة.

قلت: البركة: الخير المتدارِك، وبركة العمر بالأعمال، والأحوال والعلوم والمعارف، وذلك لا يحصل إلا عن جمع وتحقّق، وعلى نحو هذا قال شيخنا أبو العباس الحضرمي رضي اللَّه عنه: «من كان يستمد ما شيءٌ ما شيءٌ عدم عدم عدم وجود وجود وجود، واللَّه أعلم» انتهى.

وإنما لا تدخل تحت دوائر العبارة لرقته واتساعه ولا تلحقه الإشارة للطافته وخفائه.

وإذا كان ما عند اللَّه بهذه المثابة فالقعودُ عنه من الخذلان لا سيما مع التمكّن والإمكان. وهذا ما توجّه له إذ قال:

الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه.

قلت: الخذلان: صرف الإعانة في مواقف الرشد. والفراغ من الشواغل والشواغب التي هي العوائق أصل كبير في تحصيل الفوائد فإذا حصل السبب ولم يوجد المسبب فذلك دليل على الحرمان؛ لذلك قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[1]، يعني أن الصحيح ينبغي أن يكون مشغولاً بدين أو دنيا لتهيئ الأمر له، فإذا كان فارغاً فهو مغبون فيما عنده من الصحة إذْ ذهبت به في لا شيء. وهذا أحد التأويلين للحديث، وقد قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي اللَّه عنه: «فراغ الوقت من الأشغال نعمة عظيمة؛ فإذا كفر العبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى وانجرّ في قياد الشهوات شَوّش اللَّه عليه نعمة قلبه وسلبه ما كان يجده من صفاء قلبه» انتهى، وعليه يدور التأويل الآخر في الحديث.

وإن كثيراً من الناس قد فقد الصحة والفراغ فمن وجدهما فليشكر اللَّه بالعمل الصالح، فإن لم يشكر فهو مخذول والعياذ باللَّه.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٥/ ٢٣٥٧) رقم (٦٠٤٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١) رقم (٧٨٤٥)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٣٩٦) رقم (٤١٧٠)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٥٥٠) رقم (٢٣٠٤)، والدارمي في السنن (٢/ ٣٨٥) رقم (٢٧٠٧).

ثم التوجّه والرحيل إنما هو بالفكرة في أسباب الانزعاج، ثم في وجه التوجّه، ثمَّ في عظمة المتوجَّه إليه، وذلك بالنظر في المخلوقات بحسب ما تعطيه القوة المودعة والوارد؛ فلذلك قال:

الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار.

قلت: الفكرة هنا: التَفكّر. والمقصود استعمال الفكر في استخراج المعلومات، فهي سير القلب، أي: مشيُه وانتقاله بالنظر في ميدان: أي مواقف الأغيار: أي المخلوقات فالقلب يسير بفكره في الخلائق على حسب مرائيه، فتارة يفكّر في وجودهم فيهديه لموجدهم، وتارة يفكر في موجدهم فيهديه لتركهم والإقبال عليه، وتارة يفكِّر في معاملتهم فينظر فيها على وجه يليق به وبهم، وتارة يفكّر في موجدهم وما أجرى عليهم فيهديه ذلك لعظمته برؤية ما له فيهم.

وفي بعض النسخ «في ميادين الاعتبار» بالتاء والموحدة، وهو ظاهر، وكذلك في بعضها «سبر» بالباء الموحدة، ويصلح مع الأول والثاني فتأمله.

ومجاري الفكر أربعة، قد تقدمت أول الكتاب، وقد قال الحسن رضي اللّه عنه: «الفكرة مرآة حسنة تُريك حُسنك من سيئك». وقال الجنيد، رحمه اللّه: «أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد» انتهى.

ولعل هذه الفكرة التي ساعة منها تعدل عبادةَ سبعين سنة، كما في الحديث، ثم قال:

الفكرة سراج القلب.

قلت: مصباحُه الذي يمشي به في ظلمة الأغيار فيرى المنافع والمضار، ويبصر الحق والحقيقة أتمَّ إبصار، بها يصل إلى الإيمان، وبها ينتهي إلى العرفان، وبها يترقى في درجات الإسلام والإيمان والإحسان؛ ولذلك قال كعب الأحبار، رضي اللّه عنه: «من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر التفكّر».

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «الطريق القصد إلى اللّه تعالى في أربعة أشياء مَن حازهنَّ فهو من الصِّدِّيقين، المحقّقين، ومن حاز ثلاثة منهن فهو من أولياء اللّه تعالى المقرّبين، ومن حاز اثنين فهو من الشهداء الموقنين، ومن حاز واحدة منهن فهو من عباد اللّه الصالحين.

أولها: الذكر، وبساطه: العمل الصالح، وثمرته النور.

الثاني: الفكر، وبساطه: الصبر، وثمرته: العمل.

الثالث: الفقر، وبساطه: الشكر، وثمرته: المزيد منه.

الرابع: الحب، وبساطه: بُغْضُ الدنيا، وأهلها، وثمرته الوصلة بالمحبوب» انتهى، وهو جامع لأصول الخير وغاية التحقيق.

ثم ذكر ما يوجب فقد الفكرة، فقال:

فإذا ذهبت فلا إضاءة له:

قلت: وإذا لم تكن له إضاءة صار شبه الأعمى: تارة يخطىءُ وتارة يُصيب فيفوته السيْر وينتفي عنه الخير فلا يهتدي سبيلاً ولا يقيم دليلاً، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وإنما كانت كذلك لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنها تبيّن عن الحق من وجهه، وعن الباطل من وجهه، فتدعو للإقبال على الحق والإدبار عن الباطل.

الثاني: أنها تريك الحقيقة تبياناً حتى كأنك ترى الحق عياناً، وفقدها لا يصح معه ذلك.

الثالث: أنها تريك كمالك من نقصك، وحبيبك من عدوّك بشواهد ما يجري عليك وعلى غيرك، وإذا فقدتها كنت خليّاً عن ذلك، هذا مع أنه لا سلوك ولا سير ولا حقيقة ولا طريقة ولا علم ولا عمل ولا معرفة إلا بها.

ثم هي على قسمين ذكرهما المؤلف بأن قال:

الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان.

قلت: وكل من الفكرتين ينقسم إلى قسمين؛ لأن إضافة كل منهما لما أضيف له إمّا باعتبار أنه بساطه، أو باعتبار أنه نتيجتُه، أو باعتبارهما معاً. وهذا أوفى وإن كان كلٌّ صحيح، فهي إذن أربع:

أولاها: فكرة تفيد التصديق والإيمان وتجري في دلائل الصنع طلباً لبرهان الحق وبيان الوجه فيه.

الثانية: فكرة تفيد التصديق والإيمان، وهي الفكرة فيما دلّ عليه من لوازمه بعد تحققه؛ كالفكرة في عظمة اللَّه وشرف نبيّه، وما جاء من أمر الدنيا والآخرة مما كان ويكون.

الثالثة: فكرة تُفضي إلى الشهود والعيان، وهي الفكرة فيما يهدي لذلك من عظمة اللَّه سبحانه، ووجوه التصريف الجاري في خلقه بحكمه وحكمته.

الرابعة: فكرة ناشئة عن شهود الحقيقة ومعانيها، ومرجعها لجولان القلب في بساط التعظيم والإجلال، ثم الشهود من إشهاد المشهود وكشف الوجود حتى يرى كلًّا بحكمته على وجه لا تقدير فيه ولا قياس.

والعيان رتبةٌ وراءَ الطمأنينة والبيان. مدارها على تحقق الأمر حتى كأنه رأي العين، فلا يحتاج إلى دليل ولا برهان، حتى لقد قال قائلهم مخبراً عن نفسه:

كَبر العيان عليّ حتى أنه صار اليقين من العِيان توهّما

ثم لكل فريق طريقٌ. ومدارهم في ذلك على صادق أو صديق، كما بيّنه المؤلف إذ قال:

فالأولى لأرباب الاعتبار.

قلت: من السالكين، والمريدين، والعاملين من المتوجّهين، والنظّار العاملين على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧]، فيعتبرون بوجودها من حيث هي، ثم يعتبرون بموجدها من حيث حسن فعله فيهديهم ذلك لجمال وصفه، ثم لم يزالوا كذلك حتى يهتدوا لمعرفته بما أعطاهم من قوّةِ النظر في ملكه، ثم قال:

والثانية لأرباب الشهود والاستبصار.

قلت: يعني الذين شاهدوا الحق فعرفوه، واستبصروا عن التحقيق فأبصروه، فكانوا يمشون في الخلق تارة بنور الحق وتارة بنور الحقيقة.

قال شيخنا أبو العباس الحضرمي، رضي اللّه عنه: «وهؤلاءِ هم أهل هذه المرتبة، هم القائمون باللّه في كلّ شيء، وهم معدِن أسرار اللّه في الخليقة، وعلومهم ومعاملتهم قد ارتفعت عن حجب التقصير والأوراد، هممهم قد خرقت حجب أنوار التوحيد ونفدت بصائرهم بالنظر في حقائق تجريد التجريد، فأنوارهم قد غلبت أنوار الوجود، وسرّهم قد ظهر منه شعاع لبعض خواص أهل الشهود؛ فهم شاهدون مشهدون» وهو الغاية في بابه وباللّه التوفيق.

تنبيه:

هذا آخر أبواب الكتاب: ولم يبق بعده إلّا أبواب «المكاتبات» تجري مجرى الجامع للكتاب، وآخرها «مناجاة» فتمَّ الكتاب بأبوابه.

وما يُذكر بعدُ واحداً وثلاثين باباً، وربّما زاد بعض الناس أبواباً، وبعضهم تراجم، ولا يصح شيء من ذلك.

واللّه أعلم.

وقال رضي اللّه عنه، مما كتب به لبعض إخوانه.

قلت: وهذا كتاب متضمّنه السِّير والسلوك إلى حضرة ملك الملوك فذكر فيه بداية البدايات ونهاية النهايات، بعبارة فصيحة، وإشارة أبدع فيها غاية الإبداع، وأتى فيها بما يثلج الصدور، ويبهج به الأسماع.

وافتتحها بأن قال:

أما بعد، فإن البدايات مجْلات النهايات.

قلت: المجْلات: بفتح الميم وسكون الجيم ما يتجلّى فيه الشيء: أي يظهر فيه ظهور الصور في المرآة.

وقد مرّ من كلام المؤلف [من علات النجح في النهايات الرجوع إلى اللّه في البدايات؟ ومن أشرقت بدايته أشرقت نهايته] وهو معنى ما هنا.

والمقصود: من كانت بدايته أجمل كانت نهايته أكمل...

من كانت بدايته أصحّ كانت نهايته أوضح...

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم... ثم قال:

وإن من كانت باللّه بدايته كانت إليه نهايته.

قلت: وهذا إفصاح بعين المقصود، وهو أن من دخل الأشياء باللّه كانت نهايته فيها إلى اللّه تعالى، فمن كانت بدايته بالتفويض إلى اللّه كانت نهايته بالرضا عن اللّه...

ومن كانت بدايته بالتوكل على اللّه، كانت نهايته بالرجوع إلى اللّه...

ومن كانت بدايته بالاستعانة باللّه كانت نهايته بحسن الظنّ باللّه...

ومن كان للّه كان اللّه له...

ومن كان في اللّه تلفه كان على اللّه خلفه...

ومن كان لغير اللّه كان ذلك الغير حظّه من اللّه، كما في الصحيح من قوله عليه السلام: «...فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله...»[1] الحديث.

ثم التَّوجّه للشيء على قدر شغل القلب به، وهذا ما بيّنه بأن قال:

---

(١) سبق تخريجه ص (٦٧).

والمشتغل به هو الذي أحببته وسارعت إليه.

قلت: يقول: إن القلب والجوارح لا يشتغلان بشيء إلّا بعد حبه، وعلامة ذلك المسارعة إليه بغير توقّف، فما قصّر جسم عن همّته فأوّل السلوك تمكّن محبَة المولى من القلب حتى لا يلتفت إلى غيره، فيكون العبد به وله، لا باختيار من نفسه؛ ولذلك قال الشيخ أبو محمد عبدالسلام للشيخ أبي الحسن رضي اللّه عنهما: عليك بوردٍ واحد: إسقاط الهوى، ومحبة المولى، أبتِ المحبة أن تستعمل محباً لغير محبوبه» انتهى.

ثم الانصراف عن الشيء على قدر الاشتغال عنه. وهذا ما نبّه بذكره بأن قال:

والمشتغل عنه هو المؤثر عليه.

قلت: المؤثَر عليه: بفتح الثاء هو الذي أثر عليه غيره، وليس إلّا ضدّه أو نقيضه، فإذا أردت اشتغال عوالمك عن شيء فآثر عليه مقابله، لكي يكون لك خلف منه، فتنساه، فمن آثر الآخرة ترك الدنيا، ومن آثر اللّه على حظوظه تركها. ومن آثر العبودية للّه نسي حظوظ نفسه، فالمؤمن يشغله الثناء على اللّه عن أن يكون لنفسه شاكراً، وتشغله حقوق اللّه عن أن يكون لحظوظه ذاكراً. وفيما أوحى اللّه إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: «إن كنت تحبني فأخرج حبّ الدنيا من قلبك، فإنهما لا يجتمعان في قلب أبداً» انتهى.

وأولى ما شغل به القلبُ جناب الحق، وبساط ذلك: العلمُ بأنه طالب تعبّده، كما قال:

ومن أيقن أن اللّه يطلبه صدق الطلب إليه.

قلت: على حسب ما أيقن به من طلبه، فمن أيقن أن اللّه يطلبه لعبوديته صدق الطلب إليه في عبوديته.

ومن أيقن أن اللّه يطلبه لقربه صدق الطلب إليه في وجود قُربه.

ومن أيقن أن اللّه يطلبه لجنته صدق الطلب إليه بالعمل في تصديق كلمته.

ومن أيقن أن اللّه يطلبه لحقوقه صدق الطلب إليه لتحصيل سلامته.

ومن أيقن أن اللّه يطلبه لكرامته صدق الطلب إليه في تحقيق كرامته.

وصِدق الطلب يكون بثلاث:

حسن العمل، ودوام اللجوء، وصدق التوكُّل وهو أصلها.

وأصله العلم باتساع علمه وقدره تعالى، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

ومن علم أن الأمور بيد اللّه انجمع عليه بالتوكل.

قلت: ورجع بالتفويض إليه، فالتفويض أصل التوكل، والتوحيد أصل التفويض، وهو العلم المتمكّن من الصدر بأن الأمور كلَّها دقيقها وجليلها بيده تعالى يعطي من يشاء ما يشاء، ويمنع من يريد مما شاء، لا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لأمره، ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكن، فهو المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى. قال أبو الحسن رضي اللّه عنه: «قف بباب واحد ـ لا لتفتح لك الأبواب ـ تُفتحْ لك الأبواب، واخضع لملك واحد ـ لا لتخضَعَ لك الرقاب ـ تَخضعْ لك الرِّقاب، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]اهـ.

فإذا اشتغلت عوالمك بالصدق والتوكل فاشغلها عن الدنيا وأهلها بذكر فناء ذلك وزواله، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

وإنه لا بد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه.

قلت: وهذا أمر محقَّق لا بدَّ منه، والآتي قطعاً كالموجود في الحال، ولا سيما وأسبابه متصلة وآثاره ظاهرة، فما من مخلوق إلّا وقد ظهرت فيه مخايل الفناء، وما من جديد إلّا وقد حلّ به البلى، وما من قويٍّ إلَّا وَيَعْتَريه الضعف، ثم كذلك، ويكفي في وجود الإنسان قول اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، فلا بدَّ لكل دعامة من انحلال، ولا بد لكل كريمة من زوال، وكل شيء هالك إلَّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

وإن كان كذلك فحقٌّ على كل عاقل احتقارُ أمره، وتعظيم بارئه، وفرحه بما عنده، بدلاً مما بيده، كما نبّه عليه إذ قال:

والعاقل من كان هو بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى.

قلت: العاقل: من قام به العقل، وهو القوة المستعدة لإدراك الأشياء على ما هي عليه، ومن ذلك أن الباقي خير من الفاني، وأن الأبقى خير من الباقي، وإذا أدرك ذلك فرح به ضرورة، وفرحه يستدعي إيثاره بترك ما هو ضدٌّ له، فالدنيا فانية حقيرة، وما عند اللّه خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، فلذلك قال سهل بن عبداللّه رضي اللّه عنه: «للعقل ألف اسم، وأوَّل كل اسم منه تركُ الدنيا»اهـ.

ثم هذه الثلاث، التي هي: الصدق والتوكل وترك الدنيا دليل على تنوير الباطن كما قال:

فقد أشرقت نوره وظهرت تباشيره.

قلت: أشرق نوره: إذْ رأى كلَّ شيء على حقيقة من الآخرة والدنيا، وأن الأمر بيد اللَّه، وأنه يطلبه فظهرت تباشيره بأحكام البدايات؛ إذ صَدق الطلب لمولاه، وانجمع بالتوكل عليه، فلم يعرف إلّا إياه، وترك الدنيا لأهلها من غير التفات لها، ولا تعريج عليها، كما ذكره المؤلف إذ قال:

فصدف عن هذه الدار مغضياً وأعرض عنها مولياً.

قلت: صدف: أعرض عن هذه الدار، يعني الدنيا وما فيها من أهل ومال وغيره. مغضياً: أي: غاضاً طرفه، أي: مُغمضاً له تأكيداً في الإعراض مع هروبه وتولّيه عنها، لما رأى من قبحها، فإنما هي كما قيل في وصف الفتنة:

شَمْطاءُ حلقت شعراً لها وتنكرت مكروهة للشمِّ والتقبيل

ولقد رأيْتَ في عالم الخيال امرأة طويلة عليها ثياب حافلة ووجهها لناحية أخرى، فقلت: مَن هذه؟ قيل: الدنيا.

قلت: لو أرتني وجهها. قيل: إنها لا تُرِي وجهها لأحد، فما يراه أحد إلّا أبغضها.

وقد ذكر الناس في وصفها شيئاً لا يحصى، فانظره ـ إن شئت ـ ومداره على إثارة الإعراض عنها. وأن العاقل من أدبر عنها إدباراً كليًّا من حيث الحقيقة لا من حيث الصورة، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

فلم يتخذها وطناً ولا جعلها سكناً.

قلت: يعني أنه رفع همّته عنها فلم يطمئن لها، ولا سكن إليها، وإن كانت بيده فهو بمعزل عنها، ولا يعتدُّ بموجودها، ولا يأسف على مفْقودها، ولا يحرص على محبوبها، ولا يتشبّع بمطلوبها، بل يراها سجناً، ويرى نفسه فيها غريباً، لقوله عليه الصلاة والسلام: «الدنيا سجن المؤمن»[1].

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٢/ ٤٦٤) رقم (٦٨٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٩٩) رقم (٦٥٤٥)، ومسلم في الصحيح (٤/ ٢٢٧٢) رقم (٢٩٥٦)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٣٧٨) رقم (٤١١٣)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٥٦٢) رقم (٢٣٢٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[(١)]، والغريب لا يتشبّع بشيء، ولا يعتدّ به، بل هو فيما هو به من غربته وذلّته كما قيل:

ما للغريب وللتصابي والهوى فكفاه ذُلّاً أن يقال غريب

ومن شأن الغريب أن يدور مع السلامة، ويُعاملَ بالإنصاف، ولا يُنازع أحداً في داره، هذا وغربته في السجن، والمسجون لا يرى في السجن ما يسرُّه وينتظر أسباب الهلاك وإن كان يترقّب الفرج، ثم لا عزّ للغريب إلّا بربّ الموضع، ولا راحة للمسجون إلّا بخروجه ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. فافهم.

وإذ كان غريباً فحقّه العمل لدار قراره، والأخذ في مرضاة رب المنزل وذلك شأن هذا المريد وكما نبّه بقوله:

بل أنهض الهمة فيها إلى اللَّه تعالى.

قلت: أي بالعمل بما أمره امتثالاً، والرجوع إليه فيما يريده تفويضاً واتكالاً، لأن حق الضيف ألَا يَعُول همّاً مع رب المنزل ويكون له حيث أنزله. ويقوم معه بمراده، لا بمراد نفسه، وذلك هنا بامتثال أمره والاستسلام لقهره، وملازمة ذكره وشكره، وعدم الالتفات إلى غيره.

فأصول الخير ثلاثة: حفظُ الحرمة، وحسن الخدمة، وشكر النعمة.

وأصول الشرِّ ثلاثة: خوف الخلق، وهمُّ الرزق، والرضى عن النفس، فالفرار من هذه أصل كلِّ طهارة، والتحلّي بتلك أساس كل كمال، ثم إنهاض الهمّة مستصحبة للاستعانة، وهي من صدق التوكل.

وقد نبَّه عليه بقول:

وسار فيها مستعيناً به في القدوم عليه.

قلت: أي في هذه الدار بالهمة والبصيرة والأفعال، وفي تلك الدار بالمواجهة والعيان، فهو مستعين به تعالى في أسباب كماله ونجاته في الدارين؛ لعلمه أن الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه، ولا عاصم من أمره إلّا من رحم،

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٥/ ٢٣٥٨) رقم (٦٠٥٣)، وابن حبان في الصحيح (٢/ ٤٧١) رقم (٦٩٨)، وابن ماجه في السنن (٢/ ١٣٧٨) رقم (٤١١٤)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٥٦٧) رقم (٢٣٣٣).

ولا سبب لذلك إلّا الاعتصام به تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

فمعاملة العبد في مطالبه بثلاثة:

التفويض في التوجُّه أولاً.

والاستعانة في العمل بالأسباب ثانياً.

والتوكل في تحصيل المقصد آخِراً.

فإذا تمت له هذه كان بربِّه لا بنفسه، وإذا كان بربِّه لم يفته شيء من أمر ربِّه ولم يتوقف له شيء من طلبه، كما أشار إليه هنا بأن قال:

فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها؛ دائماً تسيارها.

قلت: العزمُ نتيجة الهمة، فحيث توجهت كان تبعاً لها، وهي هنا قد توجهت لمولاها بترك ما سواه فَأمِن عثارها بالدنيا وغيرها، ودوام تسيارها لحصول الأمن في طريقها بربّها.

قيل لبعضهم: «بِمَ تطرد الشيطان إذا قصدك بالوسوسة؟

فقال: إنَّا لا نعرف الشيطان، نحن قوم رفعنا همَمنا إلى اللَّه فكفانا مَن دونه».

وذلك بمعنى أن الشيطان يصير له ملهماً ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، فهو لا يعرف إلَّا مولاه في كل حركة وسكون، كلما نابه شيء رجع إليه بالضراعة والتوجُّه، وإذا كان كذلك فلا تزال همّته في ترقٍّ وترحال حتى يصل لموقف التنزيه المطلق كما قال:

إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس.

قلت: أي أناخت ركاب النفس ومطايا القلوب والأبدان في دائرة التقديس المطلق تقديس العبد لمولاه حتى لا يعصيه، ثم حتى لا يلتفت لغيره، ثم حتى لا يكون سواه، ثم حتى لا يرى سواه، ثم حتى يفنى عنه، ثم حتى يفنى في فنائه وعن فناء فنائه، فيعود عليه ذلك بتقديسه عن العبودية للغير والتنزيه عن مخالفة النهي والأمر، وذلك هو بساط الأُنس بالحق، سبحانه، وبما من جنابه حتى لا يكاد يَصْبِر عن مولاه في نَفَس من الأنفاس، ويصير لحدٍ لا يرى سوى بقاء معروفه، لا لشيء من وجوده كما قيل:

لو قيل لي: ما تتمنى؟ والعبدُ يُعطى مناه لقلت مُنيةُ قلبي في أن يطول لقاه

ولا يزال به التعظيم والتقديس إلى موقف العجز الذي لا نهاية له، وفي ذلك مراتب لا تُحصى، وإن عرفت مواقفها فلكل موقف أسرار لا تتناهى.

وقد ذكر المؤلف هذه المواقف فقال:

محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة.

قلت: ذكر ستة ألفاظ لستة معانٍ متقاربة، لا تُدرك حقائقها والفرق بينها إلّا بالذوق، ولكنا نذكر منها ما تتناوله العبارة؛ لنستأنس به وينتفي الغلط فيها فنقول وباللّه التوفيق:

أما المفاتحة: فمعناها: المبادأة. مبادأة العبد بما هو فيه على بساط الضراعة وبثّ الشكوى والمناجاة فيباديه مولاه بمعاني أسمائه وصفاته وعظمة ذاته ليرتاح لذلك وينسى كل شيء به.

وأما المواجهة: فمعناها: المقابلة: مقابلة القلب بملاحظة الربّ دون التفات لغيره، ولا غفلة عن ذكره؛ فيواجهه مولاه بأنواره ويقابله بأسراره حتى لا يمكنه أن يرى سواه ولا يشهد إلّا إيّاه.

وأما المجالسة: فمعناها: الملازمة: ملازمة القلب للذكر بلا غفلة، والخضوع بلا وَهلة، والأدب بلا مهلة، فيكرم إكرام الجليس بالمودّة والتأنيس، وإليه الإشارة بحديث: «أنا جليس من ذكرني» أي: أكرمه إكرام الجليس.

وأما المحادثة: فمنازلة الأسرار بذكره، وإقباله عليها بما يلقيه ويبديه من سرّ وغيره، فيُبسط فيه أنواره، ويلقي إليه أسراره، وإليه الإشارة بحديث: «كان في الأمم السالفة محدّثون فإن يكن في أُمَّتي فعُمرُ منهم»[(١)].

وأما المشاهدة: فصورة الحقيقة لحدِّ العيان بحيث لا تحتاج لبرهان ولا بيان، ومرجعها الكشف، لا يصحبها وَهْمٌ، ولا يداخلها شك.

وقد قيل: «الشهود من إشهاد المشهود وكشف الوجود».

وأما المطالعة: فمرافقة التوحيد في كل ورد وصدر، والرجوع إلى الحقيقة المرّة بعد المرّة، بلا تأويل ولا نظر، فيكون العالم على حكم حكمه فلا يبدو شيء إلّا طُولعَ به سرّه لكمال سرّه. واللّه أعلم.

هذا ما فهمته من معاني هذه الألفاظ، والدرّ من وراء الصدف، وليس

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٢٧٩) رقم (٣٢٨٢)، ومسلم في الصحيح (٤/ ١٨٦٤) رقم (٢٣٩٨).

التصوُّف بحديث يكتفي فيه الأخبار، ولا يُعْتَنى بالعلم والعمل فيه عن الأنوار، ولا بدَّ من مثل هذا للمنتسبين في المحبِّين وأهل البدايات، وباللّه التوفيق.

وإذا كانت هذه المواقف للقوم، فَهم بين يدي مولاهم أبداً، كما بيَّنه المؤلف إذ قال:

فصارت الحضرة معشش قلوبهم، إليها يأوون؛ وفيها يسكنون.

قلت: الحضرة: دائرة التقديس المتقدمة، فالألف واللام هنا للعهد، والعشش: محل التعشيش أي التوطين الذي يرجع إليه، فهم إليها يأوون في ليل المحن والفتن، وفيها يسكنون في نهار العافية، إليها يأوون في نهار الحضور وفيها يسكنون في ليل الغيبة، إليها يأوون بامتثال أمره وفيها يسكنون استسلاماً لقهره، إليها يأوون شكراً لنعمته وفيها يسكنون لجوءً لمنَّته، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين.

قلت: استعار السماء للحقوق لجلالتها، والأرض للحظوظ لدناءتها، والنزول إليهما إنما هو من عرش الحقيقة. فالعارف مسكنه عرش الحقيقة، ولا بدَّ له من سماء الحقوق لحق العبودية وأرض الحظوظ بحق البشرية، فإذا نزل لم ينزل على حكم منزلته منه إلَّا بإذن، لأنه بساط الكرامة. والإذن: قوة يجدها الوليّ من نفسه لا يُشك في حقيقتها، ولا شبهة في الوجود تتبعها حالية ولا شرعية.

والتمكين: شرعي بمعنى الإباحة، وعادي: بمعنى التيسير.

وقد يريد أن نزوله لا يقدح في كماله لكونه متمكناً فيه غير متلوّن. واللّه أعلم.

والرسوخ في اليقين الثبوتُ فيه، بحيث لا تؤثِّر فيه العوارض ولا تعتريهم الفوادح كما قيل:

لا تهتدي نُوبُ الزمان إليهمُ ولهمْ على الخطْب الشديد لجام

فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة.

قلت: بل نزلوا للحقوق بالذكر والأدب، وللحظوظ بالشكر والافتقار، امتثالاً لما واجههم به مولاهم من الأمر في الأول ولما حكم عليهم به من القهر في الثاني، مستشعرين بقهره وبرّه فيهما ومعتبرين بحكمته وحكمها الجارية عليهما،

فالحقوق تزيدهم فائدة، والحظوظ أكبر منفعة وعائدة، ولو لم يكن فيها إلَّا رجوع العبد لافتقاره وشعوره باضطراره. واعتبر هذا بقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، فطلبهُ الخيرَ من بساط الافتقار، لا مِن بساط الاحتياج.

وإنَّ فَهْم هذا من حيث حقائق المنازلة في أهل العصر لبعيدٌ.

وربّك الفتاح العليم، ثم ذكر المؤلف شأنهم في ذلك كلّه فقال:

بل دخلوا في ذلك كله باللَّه، وللَّه، ومن اللَّه، وإلى اللَّه.

قلت: الإشارة بذلك للحقوق والحظوظ، وقوله باللَّه: يعني مستعينين وقائمين باللَّه وللَّه عاملين ومتوجهين، فالأول حقيقة، والثاني شريعة.

ومن اللَّه رأوا دخولهم لا من نفوسهم، وإلى اللَّه توجّهوا بذلك وراحوا به ومنه فهم به لا بهم ولا لهم ولا منهم ولا إليهم، قد شهدوه في الكون وعنده، وقبله، وبعده على اختلاف مراتبهم.

نفعنا اللَّه بهم، ثم قال:

وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق.

قلت: وبذلك تحقق كونه باللَّه وللَّه، ومن اللَّه وإلى اللَّه، لأنه طلب ما هو المطلوب منه كما أمره مولاه بطلبه، فهو داخل فيه باللَّه طالب الصدق للَّه والإدخال والإخراج من اللَّه والتوجّه في ذلك كلّه للَّه.

قال في «التنوير»: فالمدخل الصدق: أن تدخل لا بنفسك، والمخرج الصدق أيضاً كذلك. ثم قال هنا:

ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني.

قلت: فأشهد منّتك وبرّك في دخولي، وأشهد حكمك وقهرك في خروجي.

إذ متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك مُتعرِّف إليك، ومُقْبل بوجود لطفه عليك، وأن إلى ربك المنتهى.

وقد جاء في الحديث: «لا حول عن معصية اللَّه إلا بعصمة اللَّه، ولا قوة على طاعة اللَّه إلا بإرادة اللَّه»[1] ثم قال:

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (١/ ٢٧١) رقم (١١١)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٦٢) رقم (٦٧٩٤).

واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً.

قلت: معنى من لدنك: من عندك، أي بلا سبب منِّي، وإلَّا فالكل منه تعالى. سلطاناً: حجة. نصيراً: معيناً، مقوّياً، ولهذا يشير قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: «اللهم اغننا بلا سبب، واجعلنا سبب الغنى لأوليائك، وبرزخاً بينهم وبين أعدائك» اهـ.

ومن تتمة معناه في كلامه هنا قوله هنا:

ينصرني، وينصر بي، ولا ينصر علي.

قلت: ينصرني في نفسي على كل عدوّ متصل أو منفصل من نفس وخلق وشيطان وغيرهم لأني محتاج إلى ذلك، وينصرني من أراد نصرة من مريد أو طالب أو محب أو متسبب أو صديق أو صادق؛ لأن ضيف الكرام يُضيف، وليس الرجل من نُصر في نفسه، إنما الرجل من نُصر به غيرُه ومن سأل الكريم فلا يفتقر دون ما يحتاجه وإن لم يكن مضطراً إليه، ولا يُعظم المسألة لأن اللّه لا يتعاظمه شيء، ولا ينصر عليّ أحداً من عوالمي ولا غيرها، بل أكون في حماه المنيع من المحن الدنيوية، والفتن الدينية أبداً، وهو أكرم الأكرمين.

ثم طلب المؤلف نصراً خاصاً وهو أعظم أبواب النصر فقال:

ينصرني على شهود نفسي.

قلت: حتى أراها على حقيقة الأمر من كمالها، فأرفع همتي عن المخلوقات وعلى حقيقة الأمر من نقصها فلا أدّعي شيئاً ولا أرى لها نسبة ولا قدراً، فبذلك تزكو وترتفع، وباللّه التوفيق. ثم قال:

ويفنيني عن دائرة حسي.

قلت: حتى لا أعرف وجودها فضلاً عن موجودها، وعند ذلك يتم الأمر ويحصل الكمال واللّه الموفق للصواب.

تنبيه:

إنما تظهر الفوائد وغيرها في معاملة الخلق والنظر للحق عن توجّه المنن والمحن. وهذا ما توجّه له في الكتاب بعد إذ قال:

وقال رضي اللّه عنه، فيما كتب به لبعض إخوانه:

قلت: هذا كتاب ضمّنه اختلافَ النظر في المنَّة، وأصل ذلك، وفرعه،

ومادته الحالية، والشرعية، فأصل الأصل الذي هو المرجع في الجميع أولاً وذكره بأن قال:

إن كانت عين القلب تنظر إلى أن اللّه واحد في مننه، فالشريعة تقتضي أنه لا بد من شكر خليقته.

قلت: عين القلب هي البصيرة، ونظرها في هذا الأمر بالحقيقة المعقولة وهي من بساط الحكم والشريعةُ من بساط الحكمة، وكلاهما من ربّ واحد، فوجب ألا يتعدى واحداً منهما، فينظر إلى أن اللّه واحد في مننه، فلا تنسب لغيره، وهو الذي أجراها على يدي الخلائق، وجعل شكرهم عليها عين عبوديته (فيشكروني بشكره كما يذكروني بذكره، لا لأمرٍ منهم، ولا لهم) فافهم.

ثم ذكر أقسام الناس في ذلك فقال:

وإن الناس في ذلك على أقسام ثلاثة:

قلت: يعني: ناقص، وكامل، وواقف بين النقص والكمال.

فذكر الكامل آخراً والمتوسط وسطاً والناقص أولاً فقال فيه:

غافل منهمك في غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حضرة قدسه فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين.

قلت: معنى منهمك في غفلته: مسترسل فيها، قائم معها بلا توقف.

ودائرة حسّه: عوالم جسمه، فلم يعرف غير ما يدور عليها من الأكل والشرب ونحوه من حيث هو لا من حيث المنَّة به، وإن شهد شيئاً لم يتعدّ لغير من واجهه به. وانطمست: ذهبت وارتفعت دائرة تقديسه فكان في الحضيض الأسفل، لبعده وجهله، ودلّ على ذلك وجود فعله في حاله إذ نظر الإحسان ممن وصل على يديه لا ممن أرسله إليه؛ إذ ذاك مِن بُعد فهمه وقوّة وهمه، فهو بعيد عن الحق بنظره للخلق، وذلك على وجهين كما قال:

أما اعتقاداً فشرك جلي: وأما استناداً فشركه خفي.

قلت: فشرك الاعتقاد قادح في الإيمان، وشرك الاستناد قادح في اليقين.

والفرق بينهما اعتقاد التأثير في الأول وهو كفر، واعتقاد الارتباط في الثاني بحكم سنّة اللّه مع اعتقاد أن الكل منه وإليه تعالى. وهذا حال أكثر العوام. نسأل اللّه العافية.

والناس ثلاثة أقسام:

قسم يعتقد التأثير لغير اللّه، وهذا كافر.

وقسم يعتقد ألا مؤثر في شيء سوى اللّه، ولكنه يرى ارتباط الأسباب.

وهذا ناقص.

وقسم يعتقد ألا مؤثر إلا اللّه ولا سبب سواه فيرى الأسباب عدمية واعتبارها بحكمة الإلٰهية، فلا هو يُحيل الأسباب ولا يعتدها، ولكنه يختلف حاله في ذلك، فتارة تغلب عليه مشاهدة الحقيقة، وتارة مُشاهَدة الشريعة، وتارة مجموعهما. وعلى ذلك مدار القسمين المذكورين بَعْدُ.

وافتتح أولهما بأن قال:

وصاحب حقيقة، غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفني عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب.

قلت: يعني: والقسم الثاني من الأقسام الثلاثة: رجل غلبت عليه الحقيقة فنظر إلى جانب الحق وأهمل جانب الخلق، لرؤيته انفراد الحق في منّته، وأنه لا شريك له في تصرّفه، فلم ير في التقدير غير المقَدِّر، ولا في التدبير غير المدبِّر، قد أعرض عن الكل بالواحد، ولم ير في الإقبال والإدبار إلا الواحد، إذا قيل له: من أين هذا؟ قال: من عند اللّه. وإذا قيل له: أشكر الوسائط، قال: لا أشكر إلَّا اللّه، ليس له عما سوى الحق إخبار، ولا مع أحد من الكون قرار، ولولا أن اللّه أمره ما تعبّد ولا قام لنفسه بشيء، وَحاله كما بيّنه المؤلف إذ قال:

فهذا عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة قد استولى على مداها.

قلت: يعني أن الحقيقة قد واجهت قلبه فلم يمكنه انفكاك ولا خروج عنها بوجه ولا بحال. وذلك ظاهر من حاله، فسنا الحقيقة أي ضياؤها بادٍ عليه، وسلوك الطريقة والنفوذ فيها شهود لديه، لأن مقتضى الحقيقة ففي الأسباب، وغاية الطريقة رفض السويّ، وكلاهما من حاله غيرُ خفيّ ولا غائب.

ومداها: غايتُها، فَقُم، وهذا الذي وصفه وإن كان كاملاً فليس بأكمل أو كان جميلاً فليس بأجمل كما بيّنه المؤلف بأن قال:

غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار، قد غلب سكره على صحوه، وجمعه على فرقه وفناؤه على بقائه وغيبه على حضوره.

قلت: يعني أنه غريق في بحر الأنوار، الذي هو معاني الأسماء والصفات

ولم يقف بساحل الآثار الذي هو موقف النجاة كما أشار إليه أبو يزيد بقوله: «خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله»، وهذا منه اعتراف بالنقص والتقصير، لأن خوض البحر من الجهل بهوْله، والوقوف بساحله من المعرفة بقدره، فالخائض يلقي بنفسه للهلكة والواقف قائم مع النجاة ويمكنه من استخراج حلبته وطعامه ما لا يمكن الخائض. فافهم.

والسكر: غلبة تمنع من التصرّف بالاختيار.

والصحو: حالة تقتضي التصرّف بالاختيار والجمع: شهود الخلق بالحق. والغيبة: عدم الشعور بالخلق. والحضور: الشعور بوجودهم مع الحق. والمعبّر جريان ذلك في التصرّف، فمن لم يقدر على ضبط حركاته مع وعيه فهو السكران. ومن تصرّف باختياره على وفق حاله فهو الصَّاحي. ومن شهد أفعال الخلق جارية عليهم بتصريف الحق فهو المجموع. ومن شهد لهم نسبة في شيء ممَّا هم به فهو المفرّق. ومن لم ير لهم نسبةً فهو الفاني. ومن رأى وجودهم راجعاً إليه فهو الباقي في عين فنائه، ومن لم يكن له شعور بشيء إلَّا بمولاه فهو الغائب، ومن مشى في كل شيء بالتوحيد فهو الحاضر. ولكل من هذا تأويل وتنزيل وتقرير وتحقيق وتحرير لا تُعينها الأقوال، ولا تقيسها العقول، يعرفها أهل الأذواق ويشهدها أهل الأشواق. وباللَّه التوفيق.

ثم أخذ في ذكر القسم الثالث. فقال:

وأكمل منه: عبد شرب فازداد صحواً، وغاب فازداد حضوراً.

قلت: شرب من خمر الحقيقة فازداد صحواً بماء الشريعة، وغاب عن الخلق فازداد حضوراً معهم بالحق.

فالحقيقة خمر من شربها خالية فسكر كان حده قتلَه، ومن تجوهر منها أو مزجها بماء الشريعة كان مزجُه حافظاً له عن حدّه، كما قيل:

وَمَن فهم الإشارة فليصفها ... وإلا فسوف يُقتل بالسنان
كحلاج المحبَّة إذْ تبدَّتْ ... له شمس الحقيقة بالتداني
فقال: أنا هو الحق الذي لا ... يُغيّر ذاتَه مَرَّ الزمان

والذي بالوصف المذكور يعطي كلَّ شيء حقّه من غير إقلال شيء ولا نقص منه، كما قيل:

فلا جمعه يحجبه عن فرقه ... ولا فرقه يحجبه عن جمعه

ولا فناؤه يصده عن بقائه ولا بقاؤه يصرفه عن فنائه
يعطي كل ذي حق حقه ويوفي كل ذي قسط قسطه

قلت: يعني أنه يعطي الحقيقةَ حقَّها برؤية كل شيءٍ منه تعالى وإليه، فينظر إلى أنه تعالى واحد في منّته، ويُعطي الحكمة حَقها بالقيام بشكر خليقته. وذلك لأنهم مظاهر المنّة ومحل توصيل النعمة، فلهم مجاز الشكر كما أن لهم مجاز الإنعام، وله تعالى حقيقة الشكر؛ لأن له حقيقة الإنعام، ثم شكرهم في الحقيقة شكر للّه تعالى، لأنه رسم مأمور به، ولولا الأمرُ به ما صح لأحدٍ عمل فيه، فالكل إذن من عيْن واحدة ولكن الفهم يختلف. واللّه أعلم.

ثم أخذ المؤَلف يستدل لما ذكر من أرجحية المقام الأخير وكماله فقال:

وقد قال أبو بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه لعائشة رضي اللّه عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول اللّه ﷺ: يا عائشة، اشكري رسول اللّه ﷺ. فقالت: لا واللّه: لا أشكر إلا اللّه.

قلت: الذي في الصحيح أن أمَّها هي التي قالت لها حين شهد رسول اللّه ﷺ وقال: «يا عائشة اشكري اللّه: فإن اللّه قد برّأك...»[1] ثم تلا آية البراءة من الإفك. قومي إلى رسول اللّه ﷺ. وأبو بكر حاضر.

فيحتمل أن يكون نقل ذلك بالمعنى ونسب لأبي بكر؛ لحضوره وموافقته عليه، وهو بعيد. وحديث الإفك مشهود ذكره أهل الصحيح وغيرهم، فانظره إن شئت ـ ثم عيّن موقع الدلالة وبيّنه بأن قال:

دلّها أبو بكر على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار.

قلت: وإنما كان أكمل، لأنه قيام بحق الحقيقة، وقيام بحق الشريعة، وعمل في عمارة الدارين. وقد قال في «التنوير» بعد ذكره الأسباب والكلام فيها ما نصّه: «والقول الفصل في ذلك أنه لا بدّ من الأسباب وجوداً، ومن الغيْبة عنها شهوداً فأثْبتها من حيث أثبتها بحكمته ولا تستند إليها لعلمك بأحديته». انتهى وهو كما قال.

ومن أدلته آية «البرور» التي ذكرها بأن قال:

وقد قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

قلت: فجعل شكرهما تابعاً لشكره بلا واسطة بينهما، وذلك أنه سبحانه هو

(١) أورده الطبري في تفسيره (١٨/ ٩٢).

الموجد والممدُّ حقيقةً، وللوالدين مجاز ذلك الإيجاد والإمداد، على أيديهم. واللَّه أعلم.

ثم أتى بدليل آخر من السنّة؛ فقال:

وقال صلوات اللَّه وسلامه عليه: «لا يشكر اللَّه من لا يشكر الناس»[1].

قلت: يُروى الحديث على الخبرية: أي من لا يشكر الناس لا يشكره اللَّه، وعلى هذا فـ«هاء» الجلالة مرفوع.

ويُروى على الشرطية، أي: لا يصحُّ شكر اللَّه ممن لا يشكر الناس. وقد روى النعمان بن بشير رضي اللَّه عنه، عنه عليه الصلاة والسلام: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر اللَّه»، وهذه الرواية صريحة في الشرطية. واللَّه أعلم.

ثم اعتذر عن جواب عائشة لأبي بكر، وبيّن أنه ليس من نقصها، وأنه كمال الوقت لها، فقال:

وكانت هي في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها، غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا الواحد القهار.

قلت: الاصطلام: الغيبة عن الشاهد بالمشهود لما يواجه القلبَ من عظمة المشهود حتى لا يبقى فيه متَّسع لغيره. وَهذا التأويل وإن كان صحيحاً في نفسه فإنه يؤدي للنقص بوجهٍ ما.

فأحسن منه قول ابن أبي جمرة: رجعت لأمره حيث قال: اشكري اللَّه. وهو أولى بها من شكره، ولم يرجع غيرها لذلك، استصحاباً للأصل إذْ لم يُعلم منه ﷺ ما تعلمه هي، لكن قوة الكلام في ردّهم باليمين وسياقه يدل لوجود الاصطلام، وهو كمالها في ذلك الوقت لا في عموم الأوقات. واللَّه أعلم.

تنبيه:

من مواقف الجمع بين الحقيقة والشريعة ما وقع من قوله عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2].

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٨/ ١٩٨) رقم (٣٤٠٧)، وأبو داود في السنن (٤/ ٢٥٥) رقم (٤٨١١)، والترمذي في الجامع الصحيح (٤/ ٣٣٩) رقم (١٩٥٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٩٥) رقم (٧٩٢٦).

(٢) انظر تخريج الحديث اللاحق.

وفي اختصاصه بالنبي عليه السلام وجريانه في العموم تكلّم المؤلف بعد هذا الكتاب بنصّ سؤال وجواب وقع له في الحديث الكريم فقال:

وقال رضي اللَّه عنه: لما سئل عن قوله صلوات اللَّه عليه وسلامه (وجعلت قرة عيني في الصلاة) هل ذلك خاص بالنبي ﷺ أم لغيره منه شرب ونصيب؟

قلت: هو سؤال متّجه محتاج إليه. وقرّة عين: أعظمُ مفْروح به؛ لأنه إما من القَرِّ بالفتح الذي هو الثبات؛ فإن عين المحزون والخائف تدور وتتقلب، وعين الفارح ثابتة، أو من القُرّ بالضم الذي هو البرد فإن دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارَّة. وغاية الفرح هو الذي تجري منه الدمعة الباردة؛ فمعنى أقرَّ اللَّه عينك: ثبّتها أو برّدها. واللَّه أعلم، والشرب بالكسر، والنصيب، بمعنى واحد.

وأصل الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «حبُب إليّ من الدنيا ثلاث: النساء، والطّيب، وجُعلت قرّة عيني في الصلاة...»[1] الحديث، والذي تقدّم هو غاية السؤال، ثم ذكر الجواب مجملاً مجموعاً فقال:

فأجاب أن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود، والنبي ﷺ ليست معرفة كمعرفته، وليست قرّة عين كقرّته.

قلت: وهذا الجواب كاف عما بعده من التفصيل، لكن شرط العالم أن يأتي في جوابه بالتفصيل بعد الإجمال، أو بالإجمال بعد التفصيل؛ فالإجمال للتحصيل، والتفصيل للبيان.

قال الشيخ أبو العباس بن العريف رحمه اللَّه: «الطالب يسأل ليعلم فحقُّه أن يسأل عن المسألة بمسألة أخرى، والعاميّ يسأل ليعمل، فحقّه أن يذكر النازلة، وعلى العالم أن يبين بياناً يمنع السائل من التأويل»اهـ.

ثم في هذا الجواب ثلاث دعاوى:

الأولى: أن قرَّة العين في الصلاة بالتجلي الحاصل فيها.

الثانية: أن ذلك على قدر المعرفة.

الثالثة: أن الرسول ﷺ ليست معرفة كمعرفته. فليست قرّة عين كقرّته.

وقد أجاب عن كل دعوى بما تحتاج إليه من وجهٍ وإيراد، فقال في جوابه الأول:

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦١)، وعبدالرزاق في المصنف (٤/ ٣٢١) رقم (٧٩٣٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٤) رقم (٢٦٧٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٢٨٠) رقم (٨٨٨٧)، وأبو يعلى في المسند (٦/ ١٩٩) رقم (٣٤٨٢).

وإنما قلنا أن قرة عينه في الصلاة بشهوده جلال مشهوده؛ لأنه عليه السلام أشار إلى ذلك بقوله: «في الصلاة» ولم يقل بالصلاة.

قلت: وذلك أنه أتى بـ«في» الظرفية، فاقتضت أن الصلاة ظرف لقرة العين، لا أنها عينها. ولو قال «بالصلاة» لاقتضى أنها عينها.

لكن قد يقال إن «الباء» تقع بمعنى «في» و«في» تكون بمعنى «الباء». وإذا قلنا بالظرفية فيتعين كون المظروف مشاهدة الجلال وهي دعوى تحتاج لبرهان ذكره بأن قال:

إذ هو صلوات اللّه وسلامه عليه لا تقر عينه بغير ربه.

قلت: وهذه أيضاً دعوى تحتاج إلى دليل على إثباتها.

فيجاب بأنه معلوم من حال أقلّ العارفين فكيف بسيّد المرسلين الذي يقول: (أنا أعلمكم باللّه، وأتقاكم للّه أنا)[1]، ومن ذلك ما ذكره المؤلف إذ قال:

وكيف، وهو يدل على هذا المقام ويأمر به من سواه بقوله: «اعبداللّه كأنك تراه»[2].

قلت: يقول: وكيف لا يكون ذلك، بل وكيف يصح أن يغفل عن مولاه مع كماله الذي لا أكمل منه وهو يأمر بذلك غيره مع أنه لم يكن يأمر بخير إلا كان أول عامل به، ولا ينهى عن شرّ إلا كان أول تارك له. وقوله: «اعبد اللّه... إلخ» لم يَرد بهذا اللفظ، بل جواباً لقول جبريل عليه السلام: أخبرني عن الإحسان؟ فقال: «أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...»[3] الحديث.

ثم ما ذكره إثبات لكونه يعبد اللّه على المعاينة، لا نفياً لغير ذلك. والمقصود نفي رؤية الغير فاحتاج إلى دليل آخر، والذي ذكره بأن قال:

ومحال أن يراه ويشهد معه سواه.

قلت: وذلك لأنه إذا ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته، ولا نسبة للخلق عند ظهور آثار الحق، وإذا دخل الربُّ القلبَ خرب مما سواه.

ولذلك قال بعضهم: أبى العارفون أن يشهدوا شيئاً مع الحق لما حققهم به من معاني القيُّومية، وإحاطة الديمومية، وأنشدوا في ذلك:

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٢٢) والحلبي في السيرة (٣/ ٣١٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٢٧) رقم (٥٠)، ومسلم في الصحيح (١/ ٣٧) رقم (٨).

مذ عرفتُ الإلٰه لم أر غيره وَكذا الغيرُ عندنا ممنوع
مذ تجمّعت ما خشيت افتراقاً فأنا اليوم واصلٌ مجموع

ثم ذكر المؤلف ما أُورد عليه فقال:

قال له القائل قد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من اللَّه، وبارزة من عين منّة اللَّه فكيف لا يفرح بها، وكيف لا تكون قرّة العين بها وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

قلت: وهذا سؤال متَّجه واضح واردٌ بيِّنٌ، لكنه لا ينتظم إلَّا بتأويل «في» بمعنى «الباء» ويعضِّده حديث: «أَرِحْنا بها يا بلال»[(١)].

ولكن يجاب: بأن الحقيقة أولى من التأويل بالحرف المذكور، وأن الإراحة بها للاستراحة بما فيها، لا بعينها، وعند تطرّق الاحتمال يسقط الاستدلال فيحتاج إلى زيادة دليل، أو جواب آخر وهو الذي توجّه إليه المؤلف واستخرجه من الآية المستدل بها على الفرح بالمنَّة إذ قال:

فاعلم أن الآية قد أومأت إلى الجواب لمن تدبر سر هذا الخطاب إذ قال: فبذلك فليفرحوا، وما قال بذلك فافرح.

قلت: أومأت: أشارت. وسرّ الخطاب: هو صرفه للغير، لكن قد يقال: إن مراده به أو فيه، فيحتاج إلى تحقيق انصرافه عنه بعد بيان ما يقدَّر فيه.

وهذا الذي بيّنه بأن قال:

قل لهم يا محمد ليفرحوا بالإحسان، والتفضل! وليكن فرحك أنت بالمتفضل.

قلت: هذا تقرير ما احتوى عليه الخطاب، ولكنه غير مسلَّم يفتقر إلى دليل يثبته؛ إذ لا ينتفي به التوهّم، ولا يزال الإيراد، فعضَّده بالآية الأخرى فقال:

كما قال اللَّه في الآية الأخرى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

قلت: والاستدلال بهذه الآية على المعنى المقصود لا يتمّ إلَّا باقتطاعها عمَّا قبلها، فأما إن فهمت جواباً لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: ٩١] فلا يتم الدليل.

والخارج من هذا كلِّه أنَّ لكل عارف شِرب ونصيب على قدره، وَسيدنا ﷺ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٧٧) رقم (٦٢١٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٢).

هو سيّد العارفين، فهو أوفرهم نصيباً، وأن قرّة العين لهما في الصلاة لا بالصلاة، وفي طيّ كلامه أن قرّة العين لا تكون لصاحب بداية ولا مجاهدة كما قال الشيخ محمد عبدالعزيز المهدوي ـ رضي اللّه عنه ـ واللّه أعلم.

تنبيه:

لما جرى ذكر الفرج بمنة اللّه في هذا الجواب أتبعه بكتاب يتضمّن مراتب للناس في الفرح بالمنن؛ ليكون أتمَّ في البيان والإعلام؛ فقال:

وقال رضي اللّه عنه: «مما كتب به لبعض إخوانه...».

الناس في ورد المنن عليهم على ثلاثة أقسام.

قلت: يعني باعتبار تلقيها، وقبولها، والفرح بها.

والأقسام على مراتبها: ناقص غافل، ومتيقظ عاقل، وعارف كامل، ولكلٍ حقيقة ومادة وغاية، ذكرها المؤلف بالإشارة والبيان فقال في أولها:

فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها ولكن بوجود متعته فيها فهذا من الغافلين.

قلت: يعني الذين غفلوا عن المنعم بالنعمة ونسوا اللّه تعالى بوجود المنة، فكانت هممهم مقصورة على ما يستلذونه من الأكل والشرب والجماع وغيره.

وربما أثار لهم ذلك خصالاً مذمومة كالحرص والطمع والتسويف والاسترسال في العوائد، وقلة المبالاة في الأخذ والتصرف، وشدة الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، وبه يقع الخسران والهلاك كما نبّه عليه المؤلف بالآية الكريمة إذ قال:

يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

قلت: يعني أنه مستدرج، والاستدراج كمون النِّقمة في عين النعمة. وقد قال سهل بن عبداللّه رضي اللّه عنه في قوله تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]: «كلَّما جدّدوا معصية جدّدنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية، حتى إذا ركنوا إلى النعمة وغفلوا عن المنعم أُخذوا» انتهى. ثم ذكر القسم الثاني فقال:

وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها.

قلت: فهذا من الموقِنين القائمين بالشريعة في عين ملاحظة الحقيقة؛ إذ رأى

المنّة، التي هي العطاء الأصلي الذي لا علَّة له ولا سبب، للَّه سبحانه، وشاهد نسبة الخلق في ذلك من جريانه على أيديهم فكان شاكراً لنعمة مولاه من غير إهمال للخلق ولا تعويل عليهم، فهو في ذلك مكرَّم بنظره إلى مولاه، وقيامه بالحق فيما أولاه، وبذلك استحق ما ذكره المؤلف بأن قال:

يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

قلت: يعني أنه ممن يوجه على هذه الآية: إذْ كان فَرِحاً بذكر مولاه أيّده بنعمته، وتوجهه له بمنّته، وهو لا يستحق شيئاً من ذلك من حيث ذاته، بل بفضل اللَّه ورحمته، ولما قال رسول اللَّه ﷺ لأُبيّ: «أُمرت أن أَقرأ عليك. قال: وكيف وقد أُنزل عليك؟ قال: بذلك أُمرت». قال أُبيٌّ رضي اللَّه عنه: «أو ذكرتُ هناك. وبكى خشية وإجلالاً...»[1] الحديث.

ثم ذكر تمام الآية فقال:

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قلت: يعني من كل شيء، حتى من عباداتهم وأعمالهم، كما قال الشيخ أبو العباس رضي اللَّه عنه، وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي اللَّه عنه: «العاقل من غرَّقَ شديد الزمان في الألطاف الجارية عليه، وفرّق إساءته في بحر إحسان اللَّه إليه، فاذكروا آلاء اللَّه لعلكم تفلحون» انتهى.

ثم ذكر القسم الثالث، وهو أرفعها فقال:

وفرح باللَّه.

من حيث كمال ذاته وجلال صفاته وتقدّس أسمائه وجمال أفعاله، إنْ رأى نعمةً ذكر منّته، وإن رأى بليَّة ذكر رحمته، وإن جرى عليه شيء نظر إليه بلا علة فهو مشغول به لا بغيره، كما قال:

ما شغله من النعم ظاهر متعتها ولا باطن منتها.

قلت: يقول ليس من الغافلين الذين شغلهم التمتع عن الإنعام، ولا من الذاكرين الذين شغلهم الإنعام عن المنعم، وقد ضرب الناس للأقسام الثلاثة مثالاً مداره على أن ملكاً أعطى ثلاثة أفراس لثلاثة رجال.

أما أحدهم: فطار قلبه فرحاً بانتفاعه بالفرس وحصوله عليه لما يرجو به، وهذا وِزان الغافل.

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥/ ٦٦) رقم (٨٢٣٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥١).

وأما الثاني: فاستشعر ذكر الملك له بهذا الفرس فأخذ في الثناء عليه وشكر نعمته، ورأى المنة له في ذكره إياه بما وجَّه له. وهذا وِزان الشاكر.

وأما الثالث: فاستشعر عظمة الملك وجلاله، وأنه موصوف بالكرم والكمال الكامل من جميع جهاته. وهذا وزان الفرِح باللّه الذي لم يشغله عنه شاغل كما قال:

بل شغله النظر إلى اللّه عما سواه وانجمع عليه فلا يشهد إلا إيّاه.

قلت: ولو كلف غير ذلك ما أطاق؛ لاستجماع سرّه على مولاه، واستغراقه في مشاهدة عظمته التي لا يبقى مع شهودها أثرٌ لشيء: إن شكر الحق فشكره لمولاه، وإن أعرض عنهم فلا معوّل له إلا إياه، قد كان في اللّه تلفه فكان منه خلفه، فهو كما قال:

يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

قلت: وصَادِقيةُ ذلك بحسب ما تقدّم قبل من التقرير في الآية. ووجه الاستدلال بها، وهو راجع لمعنى بيت «لبيد» الذي كان يتمثل به رسول اللّه ﷺ حيث يقول:

«ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل»[1].

وقد مرَّ الكلام في هذا المعنى كثيراً، ثم عضّده المؤلف بما ذكر إذ قال:

وقد أوحى اللّه إلى داود عليه السلام: يا داود قل للصديقين: بي فليفرحوا وبذكري فليتمتعوا.

قلت: الصدّيق: من صدّق اللّه بكل شيءٍ منه علماً وعملاً، وحالاً، وقولاً، وفعلاً، وبالغ في ذلك حتى لا يبقى منه جزء إلا داخله الصدق.

ومعنى «بي فليفرحوا» ليكُن فرحهم بوجودي وكمالي، لا بشيء يرجع إليهم كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

وقد قال عليّ بن أبي طالب في بعض مناجاته: «كفاني عزّاً أن تكون لي ربّاً، وكفاني شرفاً أن أكون لك عبداً، وأنت لي كما أحبُ فاجعلني لك كما تحب»

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٣٩٥) رقم (٣٦٢٨)، ومسلم في الصحيح (٤/ ١٧٦٨) رقم (٢٢٥٦).

انتهى. وبقوله: (وبذكري) يحتمل بذكرهم إياي، ويحتمل بذكري إياهم، وهو أولى، ويحتمل بالذكريْن. والكل صحيح، لأن الكل منه وإليه سبحانه وتعالى.

ثم ذكر المؤلف دعاءً مناسباً لما ذكر في الكتاب فقال:

واللّه يجعل فرحنا وإياك به وبالرضا منه ويجعلنا من أهل الفهم عنه.

قلت: يعني فإن الفرح بذلك هو الفرح الكامل؛ إذ الفرح به تعالى حال أهل الكمال، والفرح بالرضى منه فرحُ أهل المقامات والأحوال، وهو المأمور به؛ كما تقدّم أول الكتاب (لا تفرح للطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من اللّه إليك) ثم قال:

وأن لا يجعلنا من الغافلين.

قلت: يعني الذين وقفوا مع المتعة في النعمة، وتوجهوا للطاعة بالتقصير وسوء الأدب فكانوا مطرودين بما أوتوا، مبعدين بما آثروا، خاسرين بما تركوا حتى إذا أوتوا: أخذناهم بغتة وهم لا يشعرون. ثم قال:

وأن يسلك بنا مسلك المتقين.

قلت: يعني الذين اتقوا الالتفاتَ لغيره، فقاموا بتوحيده وتمجيده وشكره على بساط معرفته وذكره وامتثال أمره والاستسلام لقهره ثم قال:

بمنّه وكرمه:

قلت: يعني أنه طلب ذلك لا بسبب علَّة من نفسه؛ لأن ما عند اللّه لا ينال بالعلل والأسباب. كما قيل:

بلا عمل مني إليه اكتسبته سوى محض فضل لا بشيء يُعَلَّلُ

بل كما قال بعضهم رحمة اللّه عليه: «ما هناك إلّا فضْلهُ، ولا نعيش إلا في ستره ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم» انتهى.

وبانتهائه تمَّ الكتاب.

ولم يبق إلا «المناجاة» في بابين وهما مفاتيح الخير وخاتمته؛ لأن الأول تعرّض لنفحات الرحمة وتعريض بالمقاصد، والثاني تصريح بتأديب وتوحيد، وقد أثنى عليها سيدي أبو عبداللّه بن عبَّاد رحمه اللّه في آخر الرجز فقال:

لم تبق إلا ما به المناجاة سياقه حقت له المراعاة

لكونه يهذّب الأسرارا ويجلب الأضواء والأنوارَا

ونظمه نطيل هذا المقصدَا الدالّ على أسلوبه فليوردَا
واللَّه يا أُخيُّ، ويا صفييِّ إن انتهجتَ منهج ذا الوليّ
وسقته مساقه الجميلا منكسراً وخاضعاً ذليلا
رأيتَ في باطنك الزياده والخير واستبشرت بالسعادة

وإذا كان الأمر كما ذكر فلنأت بها ممزوجة بما يتعلّق بها من الكلام؛ ليكون أدعى للتحصيل، وأوقع في النفس، وآثر للثبات، فنقول وباللَّه التوفيق:

المناجاة

الفصل الأول

وقال رضي اللّه عنه:

في مناجاة مولاه وتضرّعه بين يديه بما أولاه:

إلهي أنا الفقير في غناي.

إذ ليس وجوده منّي، ولا دوامه لي، ولا بقاؤه بي، ولا تحققه من عندي مع توقّفه على الأسباب في وجوده واستمداده وبقائه، والكلُّ منك وإليك، فاغنني بك عني وعن كل شيء يا كريم.

فكيف لا أكون فقيراً في فقري.

الذي يشهد حالة عدمي، وعليه مبنى وجودي، وهو أصلي وفصلي، وعليه جرى نعتي ووصفي؛ إذ لم أكن شيئاً مذكوراً، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين.

إلٰهي أنا الجهول في علمي.

إذ لا علم لي إلّا بتعلُّم فهو متوقّف على التعلُّم، ووجود المعلومات مع عدم الإحاطة وإمكان التفلُّت والانقلاب والتلبّس.

فكيف لا أكون جهولاً في جهلي.

الذي هو نفيٌ محض، وعدم صِرْف، وملازم لي في جميع أحوالي، حتى لقد أحبُّ الشيءَ وهو شرٌّ لي، وأكره الشيء وهو خيرٌ لي، فاجعل لي نوراً يستمد منه علمي، وينتفي به جهلي بفضلك إنَّك على كل شيء قدير.

إلٰهي إن اختلاف تدبيرك.

في الكائنات حتى جرت على ما تريد كما تريد من غير حجر ولا توقف ولا تقييد.

وسرعة حلول مقاديرك.

في المخلوقات حتى جرى ما قدّرت على ما أردت وعلمت بلا مهلة ولا أسباب موجبة، هما اللذان.

منعا عبادك العارفين بك.

من حيث جلالك وعظمتك وكمال أوصافك وتَأثيرها على عبادك.

عن السكون إلى عطاء.

إذْ ليس لهم تصرّف في بقائه، ولا أحواله، ولا لهم حكم في إمداده وإبقائه، وفي علمك ما لا يقضي عليه شيء من خلقك.

واليأس منك في بلاء.

لأنك الذي ترمي بالشدّة، وتدارك بالعافية فلا ييأس منك إلَّا مخذول، ولا يأمن مكرك إلَّا جهول.

إلٰهي مني ما يليق بلؤمي.

من الإساءة والإجرام.

ومنك ما يليق بكرمك.

من الإحسان والإنعام فاجعلني مشاهداً للؤْمي حتى أذكرك، وذاكراً لكرمك حتى أشكرك، متبرئاً من نفسي ومستنداً إليك يا كريم.

إلٰهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي.

إذ سميت نفسك لطيفاً رؤوفاً في أزلك واتَّصفت بذلك وأنت القديم.

أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي.

وأنت الحليم الكريم، حاشا فضلك وكرمك يا عظيم.

إلٰهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك.

الذي لا علة له؛ لأني محل تقصير وآفة، وعصيان وإساءة، من حيث وجودي.

ولك المنّة علي.

فيما أظهرت عليّ من ذلك لأني محتاج له ومفتقر إليه مع عدم قدرتي على تحصيله، فلك الحمد فيما أسديت، ولك الشكر فيما أوليت.

وإن ظهرت المساوئ مني فبعدلك.

الذي لا يلحقه نقص ولا يجوز عليه ظلم؛ لأنك أنت الملك المالك الذي لا يُمْلَك، ولا مُلك لغيره، لك الحجَّة على خلقك ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ولك الحجة علي.

فيما ظهر عليَّ من المساوئ أو حقوق عبوديتك لازمة والإساءة مني ظاهرة قائمة، فإنْ تردْني بخير فمن إفضالك، وإن تجزني بما أنا عليه فمن عدلك بعد إمهالك.

إلٰهي كيف تكلني وقد توكلت بي.

إذ سمَّيتَ نفسك وكيلاً في أزلك، وأظهرت ذلك بإيصال المنافع ودفع المضارِّ عني حيث لا قدرة لي عليه، ولا كانت، وأبديت ذلك في عوالمي بكل حالٍ يا كريم.

وكيف أضام.

أي أُنْقَصُ من حقِّي الذي جعلت لي بكرمك.

وأنت النصير لي.

على كل عدوّ وَغيره من أمري؛ إذ سمَّيت نفسك «نصيراً» قبل كوني.

أم كيف أخيب.

فيما آمله وَأطلبه من أمر الدنيا والآخرة.

وأنت الحفي بي.

أي الرفيق اللطيف الرفيق لي على علم بخفيِّ الخَفِيّ من أمري، القادر على توصيل ذلك بألطف وجه وأرفقه عليَّ فاجعلني ممن شهد وكالتك فاكتفى بك عن كل شيء، ولم يدبّر أمراً معك، وممن نظر لنصرتك فلم يعرّج على طلب النصرة من غيرك، وممن عاين سابق لطفك فعلَّق أمله في كل أمرٍ بك، فإن المكرومَ مَنْ رجع إليك بكل حال، والمحروم من رجع لغيرك بحال من الأحوال.

ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك.

توسّل من يعلم أنه لا غنى له عنك أبداً، ولا يغني عن فقره منك شيئاً، وإنما أتوسّل به بأنه دالة عليك وموصّلة لما لديك.

وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك.

لا يصحّ ذلك ولا يمكن، لكنْ رجوع العبد إلى حدِّه، ونفقة الفقير مما يخرج من عنده، كما قيل:

ما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك ربّي أضْرَع

ورجوع العبد لأوصافه من تحققه بأوصافه تعالى.

أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفى عليك.

وكيف تخفى عليك وأنت مبدئها ومنشئها والمقَدِّر لها والمدبِّر، وسعت كلَّ شيء رحمة وعلماً فاجعلنا ممن شهد بذلك أبداً فاكتفى بعلمك ورحمتك عن شكواه إليك.

أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك.

لأنك المبدئ له والمعيد، ومن كان مبدأُ كلِّ شيء منه ومرجعُه إليه كيف يحتاج إلى ترجمة عنه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك.

فيما آمله من أمر الدنيا والدين، وأنت الكريم الذي تكرم الوافدين، ولا تُخيِّب القاصدين، كلَّا وعزَّتك لا يكون ذلك أبداً.

أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك.

قامت بك لما أشهدتها من الحقيقة وإليها قياماً بحق الشريعة، وإن كان في قيامها ضعف ونقص فبساط الكرم ممدود للفقراء والمساكين؛ وهدية العبد على قدره، فالفضل أن يقبلها السيد.

قيل أرْجَى آية، في كتاب اللَّه ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

فالربّ يليق به الفضل والكرم، والعبد يليق به الفقر والعدم.

إلٰهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي.

إذْ جهلتُ قدري وجهلت أمري ولم أعلم خيرَه في سرِّي ولا جهري فأنت ترشدني لما فيه صلاح ديني ودنياي، ولا تتركني في جهلي ولا بلواي.

وما أرحمك بي مع قبيح فعلي.

أعصيك فترحمني وتحلُمُ عني، وأُقصِّر في حقوقك فتكرمني وترحمني فلا تعاجلني بالعقوبة، ولا تقطع عني مداد التوبة، بل تعد بالمغفرة والفضل وتعامل

بالجميل في كل حال، فلك الحمدُ ولك النعمة ولك الفضل ولك الثناء الحسن الجميل.

إلٰهي ما أقربك مني.

بعلمك وقدرتك وإرادتك وإحاطتك التي لا تكيّف ولا تُوصف بالتمثيل والجهة والحد والحين، إذ أنت المتصرف في كل شيء من المصرّف أبداً أقرب إلى المصرَّف من وجود التصريف ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، فما أقربك مني يا مولاي.

وما أبعدني عنك.

إذ لا نسبةَ بين عبد وربّ، لا من سبب ولا من غيره، بل كما قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه: «يا قريب أنت القريب وأنا البعيد، قربك مني أيأسني من غيرك، وبعدي عنك ردّني للطلب منك؛ فكن لي بفضلك حتى تمحو طلبي بطلبك يا عزيز يا قريب».

ما أرأفك بي فما الذي يحجبني عنك.

وكلّ مظاهر رأفتك دليل عليك وليس في الكون إلّا مظاهر رأفتك ورحمتك يا رؤوف يا رحيم.

إلٰهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء.

برأفتك ورحمتك الظاهرة في آثار كلٍ على اختلافه الواضحة في تنقلات أطواره، حتى كان ساجداً ومُسبِّحاً بلسان حاله، أو فعله أو مقاله.

حتى لا أجهلك في شيء.

لارتباط تعريفك لي بكلّ شيء في حركاته وسكناته وسائرِ وجوده في تقلُّباته وفي سائر أحواله وأطواره.

إلٰهي كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك.

فإذا نظرتُ لأوصافي صَمَتُّ فلم أُعَبّر ولم أُخبر عن كرمك، وإن نظرتُ لإحسانك تكلمت فعبّرت وأخبرت؛ لأَن الكرم لا يفتقر إلى شرط ولا يتوقف على سبب، وأفعال العباد تحتاج إلى التخليص والإخلاص كما قال قبل هذا (من عبَّر من بساط إحسانه أَصْمتَتْهُ الإساءة مع ربه، ومن عبّر من بساط إحسان اللّه إليه لم يصمت إذا أساء).

وكلما أيأستْني أوصافي أطمعتني مننك.

الجارية لي في عموم الحالات والأوقات، لأن أوصافي لا تقضي على أوصافك، وأفعالي لا ترد شيئاً من أفعالك، فإذا نظرت إليك فلا خوف ولا رجاء، وإذا نظرت إلى أفعالي فالكل مردود ومُوجب لطردي لما فيه من العلل والآفات.

إلٰهي من كانت محاسنه مساوئ.

لما يدخلها من الآفات والعلل.

فكيف لا تكون مساوئه مساوئ.

التي هي عين النقص والعيوب والزلل.

ومن كانت حقائقه دعاوى.

لكونها ليست منه ولا له ولا بارزة عنه، لثبوت افتقاره.

فكيف لا تكون دعاويه دعاوى.

ومن كان كذلك فهو في غاية الفقر سواء كان له شيء، أو لا شيء له؛ إذ لا شيء له في الفرع ولا في الأصل، المعدوم معدوم والموجود معلول والمتشبع بما لم يُعْط كلابس ثوبي زورٍ، وأنا ذلك الرجل، فارحمني بفضلك وقابلني بإحسانك يا كريم.

إلٰهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقالاً.

فترجم به عن محاسنه ومساوئه.

ولا لذي حال حالاً.

فيدّعي به ما يريده من حقائق وغيرها.

إلٰهي كم من طاعة بنيتها.

حتى قام في نظري وجودُها وظهر لي تحصيلها.

وحالة شيدتها.

حتى ظهر لي أنّي أحكمتُها وحصنتها.

هدم اعتمادي عليها عدلك.

حين نظرت إليها فيه فرأيت أنك إن قابلتني به فيها لم يبق لي حالاً ولا عملاً.

بل أقالني منها فضلك.

حين نظرت إليه فيها وفي غيرها فلم يبق بيديّ سواه، لأنك أنت الذي مننت بالكلّ وتفضلت بالجميع يا أكرم الأكرمين.

إلٰهي إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً.

في عموم الأوقات والحالات بأن تعتريني العثرات والتقصير والغفلات.

فقد دامت محبة وعزماً.

في سائر الأزمان والأوقات؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧].

إلٰهي كيف أعزم وأنت القاهر.

الذي لا يتم مع قهره أمرٌ إذا أراد نقضه حتى عرفه العباد بنقض العزائم وتبديل الأوقاتِ والحالات.

وكيف لا أعزم وأنت الآمر.

الذي لا بدّ من امتثال أمره والعزم على طاعته وَبرّه.

إلٰهي ترددي إليك في الآثار.

بالردّ والقبول والنظر والاستدلال وغير ذلك من الأحوال.

يوجب بعد المزار.

عن حضرتك ودائرة ولايتك، لما فيها من الشغل بغيرك وإن كان ذلك لا لغيرك.

فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.

لأن أولى ما رجع إلى اللّه ما جاءنا عن اللّه، وخير ما استعمل في طلب رضاه ما عُرف قطعاً أنه يرضاه ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧].

إلٰهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك.

من الأسباب العدمية والآثار الوهمية والخلائق الملهية التي لولا اللّه ما وجدت ولولا فضله ما استمُد لها وجود، وهو محل الافتقار أبداً.

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك.

بل أنت الظاهر ومظهر المظاهر الذي لا يفتقر في ظهوره إلى دليل يدل عليه،

ولا في قربِه إلى شيء يوصل إليه؛ فالمستدل بالغير محجوب به، والمتوسّل به مصروف عنك.

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

فإنك ولّيتها رُتبة الدلالةِ فدلَّت. وأعطيتها مكان التوصيل فوصّلت، فما دَلّ عليك سوى ربوبيتك، وما وصَّل إليك سوى آلهيتك، مع أنك غير محتاج إلى شيء من ذلك كما قيل:

عجبت لمن يبغي عليك شهادة وأنت الذي أشهدتَه كلَّ شاهد

إلٰهي عميت عين لا تراك عليها قريباً رقيباً.

وحقّ لها العمى؛ إذ لم تراقب من هو أقرب إليها من وجودها ولم تشاهد تصرّفه فيها، وقيامَهُ عليها.

وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً.

إذ لا ينفعه شيء، ولا يتوصل لخير أبداً، سواء قلنا من حبّك إياه، أو من حبه إياك؛ لأن من لم يُحبَّهُ مولاه وكله لنفسه فهلك، ومن أحبه كفاه كلَّ شيء فملك، ومن لم يحبّ مولاه لم يتوجَّه له، ومن لم يتوجَّه له كان مطروداً عنه.

ثم يحتمل قوله: «عجبت وخسرت» أن يكون خبراً أو دعاءً، وكلٌّ صحيح، فتأمله.

إلٰهي أمرت بالرجوع إلى الآثار.

عبوديةً وتأدُّباً، وقياماً بحقّ الحكمة وإقراراً بعجز البشرية وَرجوعاً لشهود النقص والافتقار.

فارجعني إليها بكسوة الأنوار.

الإيمانية وَالعرفانية التي لا يخفى معها شيء.

وهداية الاستبصار.

العلمية حتى أكون على نور وَبصيرة أبْقَى وَأَرِدُ فيها؛ فأدعو إليك على بصيرة أنا ومن اتَّبعني، كما أمرت به نبيك ﷺ في كتابك العزيز بقولك الحق: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، يقول وإنما طلبي لكسوة الأنوار وهداية الاستبصار لأمرٍ هو.

حتى أرجع إليك منها.

بالتوجه بها، والغنى عنها؛ لأن الكشف يقتضي ذلك من شأنها وهو الذي يفيده النور. والهداية تدعو إلى ذلك، لأنها خروج عن الكلِّ بالحق للحق من حيث يرضى.

كما دخلت إليك منها.

بالمعاملة فيها وبها والغنى عنها بالتحقيق بغيرها. وإذا رجعت إليك منها من لازم ذاك أن أكون:

مصون السر عن النظر إليها.

في إقبال ولا إدبار ولا نفع ولا إضرار، أولاً وآخراً.

ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها.

باعتمادي عليك، واستنادي إليك ظاهراً وباطناً، كما في تلك الحكاية «أحسن من ذلك تِيه الفقراءِ على الأغنياء ثقة باللَّه» وأكبر من ذلك همة العارفين تتلاشى فيها جميع المقدورات فضلاً عن المخلوقات. فامنُنْ علينا بذلك وحققنا به يا من بيدك ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه.

إنك على كل شيء قدير.

وبالإجابة جدير، يا نعم المولى، ويا نعم النصير فأَنت حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الثاني

وقال رضي اللَّه عنه:

وهو مرتَّب على الذي قبله بزيادات لمن تأمله. وهذا أوله:

إلٰهي هذا ذلي ظاهر بين يديك.

ظاهراً وباطناً؛ إذ ليس لي شيءٌ أعتدّ به، لأني فقير في غناي فضلاً عن فقري، وجاهل في علمي فضلاً عن جهلي.

وهذا حالي لا يخفى عليك.

وإنِّي لا أملك نفعاً ولا دفعاً ولا عطاءً ولا منعاً، ولا أثق بشيء من ذلك في وجود ولا عدم، مع أنِّي متصف بما يليق بي من لؤمي مُتَعَرّض لكرمك.

منك أطلب الوصول إليك.

طلباً لفضلك اللاحق حسب ما أطمعني فيك إحسانك السابق منك ما يليق بكرمك.

وبك أستدل عليك.

إذ واجهتني بأسباب ذلك من اللطف والرحمة المتوجهين لضعفي الذي لولاهما ما كنت ولا دمت. والأصل أبداً دليل على الأثر.

فاهدني بنورك إليك.

حتى تظهر المحاسن مني بمنّتك التي أجرت عليَّ نورك فأبصر به الخير فآتيه والشرَّ فأَتَّقيه.

وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

حتى تزيل عنّي المساوئ، وتذهب عني الدعاوى، فيظهر عليّ من فضلك ما لا يظهر معه في أثر عدلك، وإن كان الكل في طيّ الكلّ فللنسب اختصاص واعتبار.

إلٰهي علمني من علمك المخزون.

الذي علمته أولياءَك حتى وثقوا بكفالتك، واستندوا لوكالتك.

وصنّي بسر اسمك المصون.

الذي صنته بجملة أسمائك، وخصصت به خواصّ أوليائك، فصانهم عن ضيم الأعداءِ والسكون إلى الأولياء فحصل لهم النصر المبين: بوجود الفتح والتمكين.

إلٰهي حققني بحقائق أهل القرب.

الذين شاهدوا أوصافك، فاكتفوا بك، فتوكلوا عليك، فلم تكلهم إلى غيرك، ولم يلحقهم ضيم بنصرك، ولم يخب لهم أمل بفضلك.

واسلك بي مسالك أهل الجذب.

الذين وقفوا بين يديك موقف الافتقار على بساط الاضطرار، فتوسلوا بك إليك من بساط فقرهم لكمال معرفتهم.

إلٰهي أغنني بتدبيرك عن تدبيري.

حتى لا أشكو بحال ولا أترجم بمقال، ولا أتعلق بمال ولا آمال، اكتفاءً

بعلمك ورحمتك وتدبيرك الجاري على أتم وجه وأحسن حال، اقتداء بخليلك إبراهيم إذ قال: (حسبي من سؤالي علمه بحالي)[1].

وباختيارك لي عن اختياري.

حتى أرجع في كل شيء لاختيارك، ولا أنظر في شيء باختياري، فأكون بك وإليك راجعاً لحسن اختيارك، فبذلك تحسن أحوالي وتزكو علومي وأعمالي.

وأوقفني عن مراكز اضطراري.

فأشهد لطفك مع عظيم جهلي، ورحمتك مع قبيح فعلي، لأني في كل أمري وبكل حالي مفتقر إليك وأنت اللطيف الخبير.

إلٰهي أخرجني من ذل نفسي.

بشهود قربك المقتضي لمراقبتك، حتى تُطاع فلا تُعْصى وتُذكر فلا تُنسى. ويكون العبد بك وإليك قائماً بالعبودية والتذلّل الذي هو عين عزّه بين يديك.

وطهرني من شكي وشركي.

المقتضِيينَ لبعدي وحجبي بشهود رأفتك التي لا تُبقي لي شكاً ولا شِركاً بظهورها في عوالم القلب وغيره واجعل ذلك:

قبل حلول رمسي.

أي: تراب قبري؛ لأن ما بعد حلول رمسي غير نافع لي؛ لانقطاع التكليف والاستفادة عنه، إذ هو محل كشف الحقائق وثواب العمل.

بك أستنصر.

على ما أخشاه من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار.

فانصرني.

على كل شيءٍ من ذلك بما علمته يصلح لنصرتي، وإن كان استنصاري ناقصاً فأنت الرحيم.

وعليك أتوكل.

فيما آمله من الآثار والأطوار في تنقلها وتقلُّبها وغير ذلك.

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (١١/ ٣٠٣) وابن تيمية في مجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٩هـ).

فلا تكلني.

لِشيء سواك من نفس ولا خلق ولا دنيا ولا غيرها من الآثار والأطوار فأنت الوكيل.

ولجنابك أنتسب.

لمعرفتي أن اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار إنما تجري بإجرائك، فالمكروم من أكرمته والمحروم من أحرمته.

فلا تبعدني عنك.

بالاشتغال بالآثار والأطوار، ردّاً وقبولاً، وحبّاً وبغضاً وغير ذلك.

وببابك أقف.

وقوف مفتقر قد دفعته العوالم باختلاف آثارها وتنقلات أطوارها إليك، فلم أجد ملجأ سواك.

فلا تطردني.

عن بابك وإن كنت مستحقاً للطرد باختلاف أعمالي وتقلبات أحوالي.

وإياك أسأل.

في كل حال من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار قَلَّتْ وجَلَّتْ.

فلا تخيبني.

لأنِّي إنما أسألك من بساط كرمك لا من بساط فعلي؛ إذ كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما أيأستْني أوصافي، أطمعتني منّتك، وجناب كرمك لا يفتقر إلى شرط يا أكرم الأكرمين.

أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك.

لأنك أنت الغنيُّ على الإطلاق، القدير بلا قيد، فلا يتوقف كرمك على شيء، ولا يتقيّد بسبب كجميع أفعالك.

فكيف لا تكون غنياً عني.

وأنا الفقير بكل حال؛ إذْ محاسني مساوئ وحقائقي دعاوى، وأنا محل المساوئ والدعاوى، لاتصافي بالنقص على كل حال وأنت الكامل ذاتاً ووصفاً، واسماً، وفعلاً يا كريم.

إلٰهي: إن القضاء والقدر غلبني.

فلم يتركا لي مقالاً أدعو به ولم يَدَعا لي حالاً أنظر إليه.

وإن الهوى بوثاق الشهوة أسرني.

فنقص أعمالي وأفسد أحوالي وذلك عدل في عين الحكمة.

فكن أنت النصير لي.

في كل أمر أريده ويصدر مني من شهوة وغيرها، بأن أشاهد عدلك في المنع، وفضلك في العطاء وأجرِ لي ذلك على أكمل وجه.

حتى تنصرني في نفسي.

باليقين، واتِّباع الحق، والفهم في كل شيء.

وتنصرني.

ممّن انتَمى إليَّ من صادق وصديق، وحبيب ومنتسب بأن يكون لهم شربٌ مما تنيلني كما يليق بهم من فضلك.

وأغنى بجودك.

عن كل شيء، حتى لا أعتمد على أعمالي ولا على شيء من دوام عزمي وغيره.

حتى أستغني بك عن طلبي.

فيكون توجهي لك من بساط العبودية إنك أنت القاهر والآمر الذي لا تدخل الأسباب فيما عنده، ولا بدّ من مراعاة حكمته واتِّباع أمره، فيكون العمل له لا لشيء، والطلب منه لا لشيء، بل لا طلب؛ إذْ لا نسبة للخلق عند ظهور آثار الحق.

أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك.

حتى عَرفوك ووحّدوك فانجمعوا عليك بخدمةٍ موصِّلة إليك، فلم يلتفتوا إلى الآثار ولا وقفوا مع التقلبات والأطوار.

وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبابك.

حتى نظروا إليك ببصائر الإيمان والإيقان، فأغناهم ذلك عن الدليل والبرهان، وصاروا يستدلُّون بك على الحق فلم يشاهدوا شيئاً سوى الملك الحق.

أنت المؤنس لهم.

بجميل أوصافك وعظيم جلالك إذ شهدوه.

حيث أوحشتهم العوالم.

بما هي عليه من فقرها وذلّها وعجزها فشهدوا ظُلمَة المعالم، وأنها لا تهدي إلى شيء ولا توصِّل إليه، بل هو مُظهر الظاهر، لأنه واجب الوجود وما سواه جائز.

وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم.

هداهم للتوفيق لمَّا ظهرت لهم المعالم، أي أدلّة التحقيق فرأوا كل شيء به؛ إذ كل شيء له، وأنه الحاضر بلا غيبة، والقريب بلا بُعد.

ماذا وجد من فقدك.

وإن وجد خير الدارين فهو فاقد؛ لتلاشي ما أُوتيه في جنب ما فاته، وأيضاً فلا يتمّ إلَّا به بل لا يصح بغيره.

وما الذي فقد من وجدك.

وإن فقد كل شيءٍ في الوجود حتى نفسه فليس بفاقد؛ إذ من كان في اللَّه تلفه كان على اللَّه خَلَفه، وسواء وُجد بطريق الجلال وهو الذي يقتضي المراقبة، أو بطريق الجمال، وهو الذي يقتضي المحبَّة.

لقد خاب من رضي دونك بدلاً.

وما ذلك إلَّا لأنه لا يراك عليه رقيباً، ولم يشهدك منه قريباً؛ إذ لو كان ذلك ما التفت لغيرك فضلاً عن أن يرضى به.

ولقد خسر من بغى عنك متحولاً.

وما ذلك إلَّا لأنه مطرود عن محبَّتك، لأنك لو أحببته لم تصرف وجهه لغيرك، ولو أحبَّك ما أمكنه أن ينظر غيرك.

إلٰهي كيف يرجى سواك وأنت الذي ما قطعت الإحسان.

بل جعلته متجدداً متعدداً مع الآثار والأطوار، حتى أن من رجع إليها بنورك لم يشاهد فيها غيرك.

وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدّلت عادة الامتنان.

بل أجريتها مع الحالات والأوقات، وكرّرتها على ممرّ الأنفاس

والتَقَلّبات فلم يصح لذي بصيرة اعتماد على غيرك ولا رجوع لسواك.

يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين.

قيام العبيد بين يدي الملك المجيد، إذا وجدوا منه نفحة القُرب، وَنسمات الرحمة فناجوه في بساط العبودية على وجه الإفتقار والتذلُّل، فأعطاهم في الحال ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعدَّ لهم مثل ذلك في الدار الآخرة.

ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين.

رفعاً للهمة عن الخلائق ووقوفاً مع الحق بشهود الحقائق، فهم تحت جلاله حامدون، وبوجهه الكريم متعززون، ولا تستعبدهم الأغيار، ولا تطرقهم الأكدار، لأنهم في كنفه وعزِّه.

أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين.

إذْ لو تذكرهم بالتوفيق ما ذكروك بالفعل والقول والتصديق.

وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين.

إذ لو لم تحسن إليهم ما عبدوك فبتوفيقك توجّهوا للعبادة، وبعافيتك ورزقك استعانوا على طاعتك.

وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين.

إذ لو لم تَجُدْ عليهم قبل طلبهم بإيجاب ما طلبوه وإيجاده، وبتحريكهم ما طلبوك، بل كما قيل:

لو لم تُرد نيل ما أرجو وأطلبه من فيض جودك ما علَّمتني الطَّلبا

وأنت الوهاب.

لنا إذ كل شيء من عطائك بلا علة ولا سبب سابق.

ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين.

تكملة للمنة بظهور النسبة إذ ليست بمحتاج إليهم، وَلا هم أغنياء ولا مستقلين بما لديهم.

إلٰهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك.

إذ لا وصول إليك إلَّا بفضلك ورحمتك وكرمك.

واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك.

إذ لا إقبال عليك إلَّا منك، ولا وصول إليك إلَّا بك، وإن كانت الأسباب معروضة فالحقائق ملحوظة، كما أشار إليه الصحابة رضي اللَّه عنهم حيث قالوا:

واللَّه لولا اللَّه ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا[1]

إلٰهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك.

لعلمي بأنك أنت الغفور الرحيم الذي لا يتعاظمه ذنبٌ يغفره.

كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك.

لعلمي بأنك أنت الفعَّال لما تريد بلا حجر ولا توقف لا سيما وقد ورد فيما يُوحَى: «يا داود: قل لعبادي الصدّيقين لا يغترّوا؛ فإني إن أُقم عليهم عدلي وقسطي أعذّبهم غير ظالم لهم، وقل لعبادي المذنبين لا ييأسوا فإني لا يتعاظمني ذنب أغفره لهم»[2].

إلٰهي قد دفعتني العوالم إليك.

إذ لم أجد فيها نصرةً ولا إعانة؛ لفقرها وذلّها وعجزها وضعفها.

وأوقفني علمي بكرمك عليك.

فلم يمكّني غير ملازمتي بابك، والاستناد إلى جنابك، إذ أنت الغني العزيز القدير الكريم، بدأت بالنوال قبل السؤال، ولم تزل تجري علينا الإحسان والأفضال.

كيف أخيب وأنت أملي.

فيما أريده جلباً ودفعاً وخفضاً ورفعاً، وضُرّاً ونفعاً، واللَّه لا يكون ذاك وأنت الكريم المحسن أولاً وآخراً.

أم كيف أهان وعليك متكلي

في جميع أمري ومن توكّل عليك كَفَيْتَه، ومن تعلق بك هديته ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، فأسألك صدق التوكل عليك، وحُسنَ الإنابة إليك حتى ألقاك يا أكرم الأكرمين.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١١٠٣) رقم (٢٨٧٠)، ومسلم في الصحيح (٣/ ١٤٢٨) رقم (١٨٠٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٤٨).

إلٰهي: كيف أستعز وفي الذلة أركزتني.

إذ خلقتني من تراب، وغَذَّيتني من تراب، وتردُّني للتراب، أوَّلي: نطفة مذرة، وآخرتي جيفة قذرة، وأنا فيما بين ذاك كما تعلم من النقص ظاهراً وباطناً، ولي ذلٌ فوق هذا أو دونه.

أم كيف لا أستعز وإليك نسبتي.

إذْ خلقتني ورزقتني، وألهمتني وعلمتني، وأرشدتني وهديتني، فأقول مولاي ولا أُبالي، وأيّ عزّ فوق هذا وأيّ شرف أكبر منه.

إلٰهي كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني.

إذ جعلتني محتاجاً لكل شيء من أمري الدنيا والآخرة، وأقمته على أيدي الخلائق، وهذا غاية الفقر.

أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني.

إذ جعلت كل شيء بيدك، ففتحت باب الغنى عن الكلّ بالتوجُّه إليك، وبابَ الفقر بالاحتياج لما يتوقف عليه وجودي، فأسألك غناك حتى لا ألتفت لغيرك، وفقري إليك حتى لا أحسّ باستغناء عنك مع العافية يا كريم.

أنت الذي لا إلٰه غيرك.

فَيُعبَد، ولا معبود سواك فيُقْصد.

تعرفت لكل شيء.

بما يجري عليه وعلى غيره من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار.

فما جهلك شيء.

لارتباط العلم بك من ضروریاته بتقلباته وغير تقلباته.

وتعرفت إلي في كل شيء.

بما يجري على ذلك الشيء من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار.

فرأيتك ظاهراً في كل شيء.

بما تجري عليه من وجوه التعريف، لا من حيث الحلول والتكليف.

فأنت الظاهر لكل شيء.

ظهور دلالة وتعريف، لا ظهور معاينة وتكييف، تعالى ربّنا جلّ وعلا.

يا من استوى برحمانيته على عرشه.

بمعنى: أظهر في العرش وما فيه وجودَ رحمته حتى لم يُوجد فيه سوى الرحمة؛ لثبوت غنائه تعالى وافتقار الكلّ إليه، كما أشار إليه القرآن المجيد بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، قيل: للرحمة، وقيل للاختلاف، وقيل لهما، مع أن الاختلاف هو عيْن الرحمة.

ثم الرحمانية مُتعلقها الإيجاد، فلذلك لم تختص.

والرحيمية متعلّقها الإمداد وإمدادُ الكافر نقمة عليه بخلاف وجوده؛ إذ لا يترتب عليه عقاب؛ فلذلك اختصت الرحيمية بالمؤمنين.

فصار العرش غيباً في رحمانيتك.

إذ لولا هي لكان عدماً محضاً، ونفياً صرفاً، فوجوده فيها غيب، نعم، هو فيها كذرّةٍ من الذرَّات، لولا تعظيم الربّ إياه واعتناؤه به.

كما صارت العوالم غيباً في عرشه.

فكما أن العرش محتوي على جميع العوالم حسّاً فالرحمة محيطة به معنى؛ فالعوالم غيب فيه، وهو غيب فيها، فسبحان ربي العظيم وبحمده.

محقت الآثار بالآثار.

إذ غَيَّبتَ العوالم في العرش، حتى كأنها حلقة ملقاةٌ في فلاة.

ومحوت الأغيار.

التي هي العرش وما فيه من العوالم.

بمحيطات أفلاك الأنوار.

التي هي آثار الأسماء والصفات من القدرة والإرادة، والعلم؛ لأنه لا نسبة للأغيار معها، كما تقدّم.

لو ظهرت صفاته اضمحلّت مكَوّناته.

يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار.

في هذه الدار، وفي تلك الدار، في هذه الدار مطلقاً، وفي تلك الدار إحاطة، إذ يراه المؤمنون كما صرّح به صادق الوعد، والسرادقات: الحجب. استعارها للعزّ المانع من رؤية اللّه تعالى وللّه المثل الأعلى.

يا من تجلى بكمال بهائه.

في جلاله وجماله الذي لا يُكيَّفُ ولا يُدانى بشيءٍ ولا يقاس به.

فتحققت بعظمته الأسرار.

التي تجلى بأن أزال الحجاب عنها فتمكنت الحقيقة منها تمكناً سرى في كل وجود صاحبها فأكسبه هيبة وإجلالاً وتعظيماً.

كيف تخفى وأنت الظاهر.

الذي لا يصحّ خفاؤه، ولا يتوقف ظهوره على سبب ولا أمر.

أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر.

الذي لا تصحّ غيبتُه أبداً، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤].

وقد مضى من كلام المؤلف [كيف يحتجب الحق بشيءٍ والذي يحجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر].

واللّه سبحانه الموفق للعمل بهذا الكتاب، والجري على ما فيه من حقّ وصواب، وبه أستعين على ذلك وغيره، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد للّه رب العالمين.

فهرس الأحاديث النبويّة

الحديث	الرقم
«آمنت به أنا وأبو بكر وعمر . . .	١٩٣
«اتق اللّه حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة	١٤١
«أحبّوا اللّه لما يغدو بكم من نعمه، وأحبوني بحبّ اللّه	٦٤
«أحثوا التراب في وجه المادحين»	١٥٤
أخبرني عن الإحسان	٢٥٩
«ادخلوا الجنة برحمتي وتقاسموها بأعمالكم»	١٢٩
إذا أحب اللّه عبداً نادى جبريل	١١٥
«إذا استكمل الرجُل النفاقَ. ملك عينيه	١٠١
أذنب عبدي ذنباً فعلم أنّ له رباً	٣٦
أرحنا بها يا بلال	٢٦٠
أشبع ألفاً من صاع	١٣٨
«أشدُّ الناس عذاباً عالم لم ينفعه اللّه بعلمه . . .»	٥٩
«أصبحتُ مؤمناً حقاً»	٢٣٤
اعبد اللّه كأنك تراه	٢٥٩
اعملوا فكل ميسر لما خلق	١٧٤
«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت	٩٦
أف للاشتغال بالدنيا	٢١٦
ألا أدلك على ما هو خير لك من خادم	١٠٨
«ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل»	٢٦٣
«اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد	١٠٥
«اللهم أنت الصاحب في السفر . . .»	١٤٦
«أُمرت أن أَقرأ عليك.	٢٦٢
أنْ حذّر قومك من الشهوات	٣٢
أنا أعلمكم باللّه وأتقاكم للّه أنا	٢٥٩

الحديث الرقم

«أنا عند ظن عبدي بي . . . ٣٥
أنا اللّه لا إله إلا أنا خلقت الخير ٩٨
أنا أغنى الشركاء عن الشرك ١١٧، ١٩٧
«أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل» ٦٧
إنّ اللّه إذا أحب عبداً نادى جبريل ١٥٤
«إن الله جعل الروح والراحة في الرضا واليقين . . .» ٢١
«إن اللّه لا يسأل الخلق عن ذاته وصفاته ١٠٠
أنّ الحجر الأسود إنّما تدلي إلى الأرض ٩٢
إنّ رجلين من الصحابة كان في حرس المسلمين ١١٤
«إن العبد إذا أذنب فقال يا رب اغفر ٧٦
إنّ قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى لقوا ١٠٣
«إن للّه في أيام دهركم نفحات فتعرَّضوا لنفحات ٧٣
«إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح ١٩٨
«إنما أنا رحمة مهداة» ٢٣٥
«إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية» ٦٧
التجافي عن دار الغرور والإنابة ١٤٧
«التدبير نصف العيش» ٢١
ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان ٥٨
«حبُب إليّ من الدنيا ثلاث ٢٥٧
حدثوا الناس بمل يعرفون ٩٥
حسبي من سؤالي علمه بحالي ٦٢، ١٧٥، ٢٧٦
«الحمّى حظُّ كل مؤمن من النار . . .» ١٢٤
حمّى يوم ١٢٤
خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير ٧٦
خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس ٤٢
خَفْ سطوة العدل وأرج رأفة الفضل ٩٠
«الدنيا خطوة المؤمن» ١١٠
«الدنيا سجن المؤمن» ٢٤٦

الحديث الرقم

رب ذنب أدخل صاحبه الجنة ١١٨
سبحان اللّه بقرة تتكلم وذئب ١٩٣
سودته أيدي المشركين ٩٢
شدّ علة بطنه حجراً من الجوع ١٣٨
طلب الجنة بلا عمل نوع من الذنوب ١٠٣
عبدي أنا الذي أقول للشيء كن فيكون ١٤٠
عجب ١٩٢
«عرفت فالزم ٢٣٤
«العظمة إزاري والكبرياء ردائي ١٣٩
«فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله . .» ٦٧، ٦٨، ٢٤٣
فمنّا من أينعت له ثمرته فهو يهديها ٩٧
قال إبليس لربه عزّ وجلّ وعزّتك وجلالك ٢٢٢
القرآن حجة لك ٢١٨
قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ١٣٤
قطعت رجل عروة بن الزبير في الصلاة ١١٤
«قطعتم عُنق صاحبكم» ١٥٤
قل لعبادي الصديقين لا يغترّوا؛ ١٤٣
«كان في الأمم السالفة محدّثون فإن يكن ٢٤٩
كفى بخشية اللّه علماً وكفى بالاغترار ٥٩
وكلُّ شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس» ٢٠
«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» ٢٤٧
كن يقظان وارتد لنفسك إخواناً ٦٩
«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما ٤٢
«لكلّ حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ ١٤٧
«لن تراعوا إن اللّه قبض أرواحنا» ٢٦
«لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشدُّ ١١٨
«لولا أن الذنب خير من العُجب ١١٨
ليس الزهد بتحريم الحلال ٧٠

الحديث الرقم

ما تقرّب إليّ المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم ١٤٠
ما لكما لم تصليا الليل ٢٧
«ما من داع إلّا وهو بين إحدى ثلاث: ٢٤
ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ٢٣٧
ما نفضنا التراب من أيدينا من دفن رسول اللّه ﷺ ١٦٢
«ما يصيب المؤمن من وصب ولا نَصب ١٢٤
«المدح هو الذبح» ١٥٤
«من أذن له في الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ١٢١
«من أراد أن يعلم ما له عند اللّه فلينظر ٩٨
«من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ٢٢١
«من أُعطي فشكر، وابتُلي فصبر ٢٠٠
من حفظها وحافظ عليها فهو لها ١٣٤
«من سرّته حسنتُه وساءته ٧٥
«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته ١٧٥
«من عمل بما علم ورَّثه اللّه علم ما لم يعلم» ٣٣
من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه» ٢٥٧
«المؤمن إذا مُدح ربا الإيمان في قلبه...» ١٥٢
«المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» ١٣٢
«المؤمن بكل خير على كل حال إذ نفسه ١٠٨
المؤمن يرى نفسه من ذنوبه كأنه قاعد ٧٥
«نعم العبد صُهيب ١١٦
النعم وحشية قيّدوها بالشكر ٨٧
نعمتان مغبون بهما الناس ٢٣٩
«هنَّ خمس وهُنّ خمسون ١٣٦
«واعلم أن النصر مع الذل ٢٥
واللّه لولا اللّه ما اهتدينا ٢٨١
«وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً» ٢٧، ١٣١
ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ٦٧

الحديث الرقم

«لا أحد أغيْر من اللّه . . .» ١٣٩
«لا تحزن إن اللّه معنا» ١٠٥
إ روع عليكم ١٣١
لا تسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني ١٩٧
لا تطلب الإمارة فإنّك إن أعطيتها ١٦٦
لا تغتروا بي فإني إن أقم عليهم عدلي ٢٨١
«لا حول عن معصية اللّه إلا بعصمة اللّه، ولا قوة على طاعة اللّه ٢٥١
«لا يزال لسانك رطباً بذكر اللّه» ٧٢
يا ابن عمران كن يقظان وارتد ٦٩
يا داود قل لعبادي الصالحين ٢٨١
«يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً، ٢٨
يا رسول اللّه لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا ١٠٥
«يا عائشة اشكري اللّه: فإن اللّه قد برّأك . . .» ٢٥٦
يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ٢٠٣
«يستجاب لأحدكم ما لم يعجّل: ٢٤
يسروا ولا تعسروا وبشروا ٧٠
يقول اللّه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ٩٦
يقول اللّه تعالى: أنا اللّه لا إله إلا أنا ٩٨

فهرس المحتويات

حكم ابن عطاء الله ٤
المقدمة ٥
سيرة المؤلف ٧
مؤلفاته ٧
وفاته ٧
سيرة الشارح ٧
وفاته ٨

حِكمُ ابن عطاءِ اللّه السكندري

مقدمة الكتاب ١١
تنبيه ١٢
فـصـل ١٣
فـصـل ١٤
فـصـل ١٥
فـصـل ١٥
فـصـل ١٦
البابُ الأول ١٨
من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل ١٨
تنبيه ٣٩
الباب الثاني ٤٠
تنبيه ٥٣
الباب الثالث ٥٤
تنبيه ٦١
الباب الرابع ٦٢
تنبيه ٦٨

الباب الخامس ٦٩
تنبيه ٧٤
الباب السادس ٧٥
تنبيه ٨٣
الباب السابع ٨٤
تنبيه ٩٣
الباب الثامن ٩٤
تنبيه ٩٩
الباب التاسع ١٠٠
تنبيه ١١٢
الباب العاشر ١١٣
الباب الحادي عشر ١٢٣
الباب الثاني عشر ١٢٨
تنبيه ١٣٧
الباب الثالث عشر ١٣٨
تنبيه ١٤٢
الباب الرابع عشر ١٤٣
تنبيه ١٥١
الباب الخامس عشر ١٥٢
تنبيه ١٥٥
الباب السادس عشر ١٥٦
تنبيه ١٦٠
الباب السابع عشر ١٦١
تنبيه ١٦٩
الباب الثامن عشر ١٧٠
تنبيه ١٧٤
الباب التاسع عشر ١٧٥
الباب العشرون ١٨٠
تنبيه ١٨٨
الباب الحادي والعشرون ١٨٩

تنبيه ١٩٧
الباب الثاني والعشرون ١٩٨
تنبيه ٢٠٣
الباب الثالث والعشرون ٢٠٤
تنبيه ٢١٢
الباب الرابع والعشرون ٢١٣
تنبيه ٢٢٣
الباب الخامس والعشرون ٢٢٤
تنبيه ٢٤٢
تنبيه ٢٥٢
تنبيه ٢٥٧
تنبيه ٢٦١
المناجاة ٢٦٦
الفصل الأول ٢٦٦
الفصل الثاني ٢٧٤